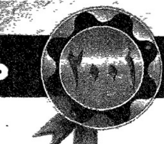
مهرجان القراءة للجميع



مكتبة الأسرة



د. محمود حمدى زقزوق

هموم الأمة الإسلامية

الأعمال الدينية

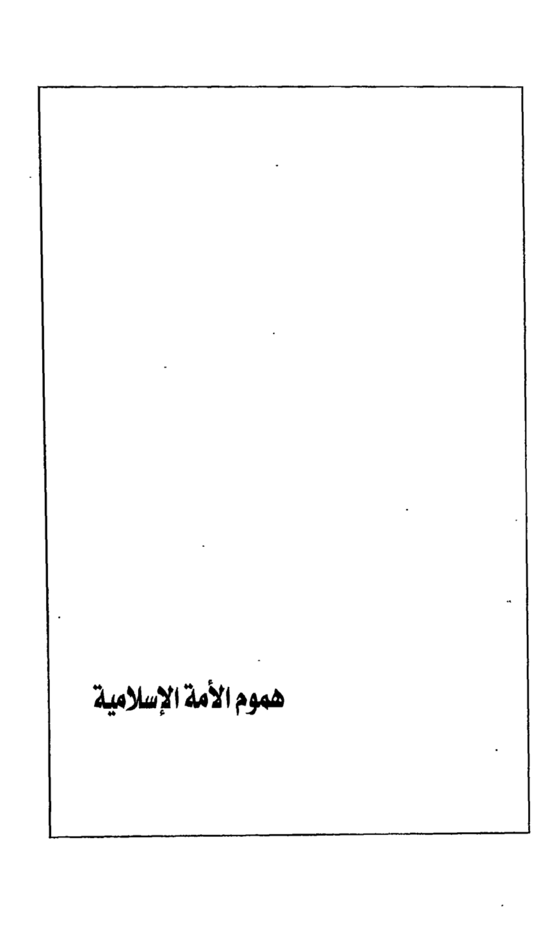


الهيئة المصرية العامة للكتاب

إهــــــــداء2006

ورثة الكيميائي/ محمد فاروق الفران

الإسكندرية



هموم الأمة الإسلامية

لوحة الغلاف

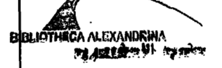
اسم العمل الفنى: القبة المدهشة

لوحة الغلاف هى القبة المدهشة فى حمام بيت نورولى، وهو أحد أفضل البيوت المصانة فى جدة التاريخية، والمعروف أن الشرفات والنوافذ الناتئة غالباً ما تشيد من خشب الساج أو الأخشاب المتينة، وبالقبة زخارف وأشكال هندسية إسلامية تشبه الفسيفساء والأرابيسك، وهى شديدة الدقة، عظيمة البلاغة، تعتمد فى أغلب الأحيان على الزخارف النباتية، وتلجأ إلى الألوان الهادئة، وبالإضاءة الصريحة، وعلى الرغم من إعتماد (الشكل المتماثل)، إلا أن الفنان لم يعمد إلى التكرار، وإنما ابتكر فى كل جزئية وحذف من هنا وهناك فى تلقائية وبساطة، وفى ثراء وغناء واضحين

محمود الهندى

هموم الأمة الإسلامية

د. محمود حمدى زقزوق



على سبيل التقديم :

كان الكتاب وسيظل حلم كل راغب فى المعرفة واقتناؤه غاية كل متشوق للثقافة مدرك لأهميتها فى تشكيل الوجدان والروح والفكر، هكذا كان حلم صاحبة فكرة القراءة للجميع ووليدها «مكتبة الأسرة» السيدة سوزان مبارك التى لم تبخل بوقت أو جهد فى سبيل إثراء الحياة الثقافية والاجتماعية لمواطنيها.. جاهدت وقادت حملة تنوير جديدة واستطاعت أن توفر لشباب مصر كتاباً جاداً وبسعر فى متناول الجميع ليشبع نهمه للمعرفة دون عناء مادى وعلى مدى السنوات السبع الماضية نجحت مكتبة الأسرة أن تتربع فى صدارة البيت المصرى بثراء إصداراتها المعرفية المتنوعة فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية.. وهناك الآن أكثر من ٢٠٠٠ عنواناً وما يربو على الأربعين مليون نسخة كتاب بين أيادى أفراد الأسرة المصرية أطفالاً وشباباً وشيوخاً تتوجها موسوعة «مصر القديمة» للعالم الأثرى الكبير سليم حسن (١٨ جزء). وتنضم إليها هذا العام موسوعة «قصة الحضارة» فى (٢٠ جزء).. مع السلاسل المعتادة لمكتبة الأسرة لترفع وتوسع من موقع الكتاب فى البيت المصرى تنهل منه الأسرة المصرية زاداً ثقافياً باقياً على مر الزمن وسلاحاً فى عصر المعلومات.

د. سمير سرحان



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠١

مكتبة الأسـرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الدينية)

هموم الأمة الإسلامية

د. محمود حمدى زقزوق

الغـلاف
والإشراف الفنى:
الفنـان : محمود الهندى

المشرف العام :
د . سـمير سرحـان

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقـافـة
وزارة الإعـلام
وزارة التربية والتعليم
وزارة الإدارة المحلية
وزارة الشـباب
التنفيذ : هيئة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

كثيـر من البحوث الواردة فى هذا الكتاب تم نـشرها فى كتاب صدر لنـا منذ عشر سـنوات بعـنوان (قضايا فكريـة واجتمـاعيـة فى ضوء الإسلام) ، وقد أضفنا هنا إلى ما سـبق نشره حينذاك عـددًا من البحوث التـى تتناول موضوعـات تُعد بالغة الأهمـية بالنسبة للأمة الإسلامية وبخاصة ما ورد فى الباب الأول كله .

وتشكل بحـوث الكتاب فى مجـموعـها موضـوعات تدخل فى إطار همـوم الأمة الإسلامية . ولسنا نعنى هنا بكلمة هموم مجـرد أحزان أو أشجان ، وإنما نستخدم هذه الكلمة بمعنى يشمل الأحـزان والأشجان ويتجاوزها إلى محاولة التـغلب عليها . وهذا يُخرج الكلمة من معناها السلبى إلى معنى إيجابى محرك للهمم[1] ، وهذا التوسع فى المعنى يعنى أننا نقصد قضايا تهم الأمة الإسلامية ، وتقلقها ، وتجعلها معنية بها ومهتمة بأمرها لما لها من أثر بالغ فى مستقبلها ومصيرها ومكانتها ومكانها على خريطة العالم ؛ الأمر الذى يدفعهـا إلى العمل الفعال من أجل التغلب على كل العقبـات ومواجهة كل التحديات .

وباستعراض سريع لفصول الكتـاب يتضح لنا تبرير تسمية الكتاب بـ « **هموم الأمة الإسلامية** » ، فالباب الأول الذى جاء بعنوان « **مفاتيح الحضارة وتحديات العصر** » قد اشتـمل على ثلاثة فصـول تتناول مفاتيح الحـضارة فى ضـوء الأمر الإلهى « **اقرأ** » ، والإسلام وتحديات القرن الحادى والعشرين ، والدين فى مواجهة الإرهاب .

أما الباب الثانى الذى هـو « **دراسات فى ضـوء القرآن والسنة** » فقد اشـتمل على ثلاثة فصول أيضاً تتناول مقومات وحدة الأمة الإسلامية، وخصائص المجتمع الإسلامى، والمسئولية العالمية فى نظر الإسلام .

---

(١) ولعل شيخنا الغزالى كان يقصد هذا المعنى الإيجابى عندما أطلق على أحد كتبه اسم « هموم داعية » .

أما الباب الثالث والأخير فقد جاء بعنوان « **الإسلام وتيارات الفكر الغربي** » ، وقد اشتمل على ثلاثة فصول تناولنا فيها قضايا الاستشراق ، ودور مؤسسات الدعوة حيال الغزو الفكرى ، ومستقبل الإسلام فى الغرب ، وهذه كلها موضوعات تندرج بشكل أو بآخر تحت مفهوم « **هموم الأمة الإسلامية** » الذى نقصده .

وإن إلقاء نظرة سريعة على أحوال الأمة الإسلامية فى عالم اليوم تكشف لنا عن مفارقة غريبة ؛ فمن ناحية تمتلك الأمة الإسلامية ـ التى تمثل أكثر من خمس سكان العالم ـ كل المقومات التى تهيئ لها فرصة الانطلاق إلى آفاق التقدم والازدهار بلا حدود، ولا تقتصر هذه المقومات على الجوانب الروحية فحسب ، بل لدى الأمة الإسلامية كل المقومات البشرية والمادية أيضًا ؛ فبلاد المسلمين تشتمل على كل خيرات الدنيا من معادن وكنوز مختلفة ، كما أن لديها رصيدًا حضاريًا ضخماً يشكل قاعدة راسخة للثقة والاعتزاز والفخار ، وفى الوقت نفسه للانطلاق والنهوض ؛ وهذا يعنى أن لدى الأمة الإسلامية ما يؤهلها للإسهام بدور مؤثر وفعال فى مسار التاريخ ، وتوجيه أحداثه ، وتقرير مصير عالمنا ، واحتلال مكان لائق فى خريطة العالم .

ولكن الواقع الذى عليه المسلمون ـ من ناحية أخرى ـ شيء مختلف تمامًا عن هذه الصورة المشرقة ، فالأمة الإسلامية أمة متقطعة الأوصال ، منهوكة القوى ، مستنزفة الموارد ، مسلوبة الإرادة ، وكما وصفها بعض المفكرين المسلمين المعاصرين[1] : « **أمة حائرة فى عالم محيِّر** » ، وهذه صورة تدمى قلب الصديق وتبهج قلب العدو .

وفى الوقت الذى يسرع فيه العالم من حولنا الخطى ، وينطلق فى كل الاتجاهات ، نشغل أنفسنا فى عالمنا الإسلامى بقضايا هامشية تجاوزها الزمن ، ويعد الصراع حولها فى عصر السباقات العالمية من قبيل الهزل فى وقت الجد ، وهكذا فإنه بدلاً من توحيد جهود المسلمين وتعاونهم فيما بينهم لإثبات وجودهم نرى صورة أخرى مختلفة تعكس الواقع المتناقض ؛ وركب الحياة يسير بخطى متسارعة ، ومتغيرات العصر وتطورات العلم ومكتشفاته يكاد المرء يعجز عن متابعتها لكثرتها وتسارعها ، والتاريخ يسجل ولا يترك مكانًا للضعفاء أو الكسالى .

---

(١) هو الأستاذ الدكتور أحمد كمال أبو المجد .

وهكذا تجد الأمة الإسلامية نفسها فى مفترق الطرق ، وعليها أن تقرر لنفسها أى طريق تسلك ؛ فإما أن تسلك الطريق الذى يؤدى بها إلى التقدم والازدهار ، وإما أن تظل مكانها متخلفة عن الركب الحضارى فيتجاوزها الزمن ، وليس هناك خيار آخر .

إن هموم الأمة الإسلامية كثيرة ، وعليها أن تواجه هذه الهموم والتحديات بإرادة قوية وعزيمة لا تلين وتصميم لا يعرف الضعف أو الاستسلام حتى تعبر هذا النفق المظلم الذى زج بها إليه ، وهذا يحتاج إلى تضافر كل الجهود وتعاون كل الطاقات وتوظيف كل الإمكانات ، وعندئذ فقط يمكن للأمة الإسلامية أن تلتجئ إلى الله طالبة العون والتوفيق ؛ فالله لا يعين الكسالى ولا ينصر المتبطلين ، ولكنه فى عون العبد ما دام العبد فى عون نفسه ، وفى عون أخيه ، وفى عون المجتمع الذى يعيش فيه ، انسجامًا مع القانون القرآنى الثابت : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ .

(سورة الرعد : الآية ١١)

إن الكتاب الذى نقدمه اليوم إلى القارئ الكريم ما هو إلا تعبير عن بعض ما يجول فى النفس ويتردد فى الخاطر حول بعض قضايا الأمة الإسلامية وما يواجهها فى حياتنا المعاصرة ، وما يمكن أن تفعله للخروج من أزمتها الخانقة .

وعلى الرغم من أن هذه الفصول ـ التى يتضمنها هذا الكتاب ـ قد كتبت فى مناسبات مختلفة وفى أوقات متباعدة ، فإن القارئ الكريم سيتبين أنها ترتبط ببعضها برباط وثيق يجمع بينها ويشكِّل منها فى النهاية وحدة واحدة .

ونأمل أن يكون فى نشر هذه الفصول فائدة تعود على القراء المهتمين بقضايا أمتهم ، وأن تشكِّل إسهامًا متواضعًا فى إيقاظ الهمم وعودة الوعى الحضارى ـ الذى نحن اليوم فى أشد الحاجة إليه ـ فى كل ركن من أركان عالمنا الإسلامى .

والله من وراء القصد ،،،

القاهرة فى : ٢٤ من ذى القعدة ١٤١٨ هـ

٢٣ من مارس ١٩٩٨م

أ . د . محمود حمدى زقزوق

الباب الأول

مفاتيح الحضارة وتحديات العصر

ويتضمن هذا الباب الفصول الآتية :

الفصل الأول : مفاتيح الحضارة فى ضوء الأمر الإلهى «اقرأ».

الفصل الثاني : الإسلام وتحديات القرن الحادى والعشرين.

الفصل الثالث : الدين فى مواجهة الإرهاب.

الفصل الأول

مفاتيح الحضارة فى ضوء الأمر الإلهى « اقرأ »

ويتضمن هذا الفصل :

١ـ البداية .
٢ـ عود على بدء .
٣ـ الإنسان .
٤ـ الدين .
٥ـ الحضارة .
٦ـ خاتمة .

١ ـ البداية :

قبل أن نتحدث عن هذا الموضوع « مفاتيح الحضارة »[1] فى ضوء الأمر الإلهى « اقرأ » يجدر بنا أن نعود بذاكرتنا إلى الوراء لنتبين الخلفية البعيدة لهذا الموضوع ، وهذه العودة بالذاكرة لا تمت بصلة إلى ماضى الإنسان القريب أو البعيد على الأرض ، وإنما تعود بنا إلى بداية الخلق قبل أن يهبط الإنسان إلى الأرض. وهذه قضية لا تمت بصلة إلى تاريخ كتبه الإنسان ، وإنما نستقى خبرها من الوحى الإلهى ، من القرآن الكريم .

فالقرآن يقص علينا أن الله بعد أن خلق الإنسان من طين ، أى : من مادة ، أضاف إلى هذه المادة عنصراً آخر روحيًا بأن نفخ فيه من روحه ، وقد نسب ذلك إلى ذاته سبحانه ، ولم يقل :ونفخت فيه فحسب ، ولكن قال : ﴿ **وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي** ﴾[2]. وبذلك كرم الله الإنسان تكريمًا لم يرق إليه كائن آخر . وقد أكد القرآن ذلك حين قال : ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ** ﴾[3] . واقتضت إرادة الله أن يعد الإنسان للخلافة فى الأرض وأن يكلفه بعمارتها ، ولما كانت عمارة الأرض لا تكون إلا بالعلم فقد كان التكريم الثانى للإنسان بالعلم ، فعلمه الله الأسماء كلها قبل أن يهبط إلى الأرض ، أى :سلحه بالعلم الذى يستطيع به أن يقوم بمهمة إعمار الكون وصنع الحضارة فيه ، وجاء هذا التكليف فى قوله تعالى : ﴿ **هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا** ﴾[4] أى :طلب منكم عمارتها ، ومفهوم العمارة هنا مفهوم شامل لكل ألوان التعمير المادى والمعنوى .

---

(١) ألقيت هذه المحاضرة بدار الأوبرا المصرية فى ٧ / ١ / ١٩٩٨م (٩ رمضان ١٤١٨ هـ) .

(٢) سورة ص : آية ٧٢ .

(٣) سورة الإسراء : آية ٧٠ .

(٤) سورة هود : آية ٦١ .



تلك كانت البداية ، ثم توالى إرسال الرسل إلى البشر يبلغونهم رسالات الله إلى أن جاء الدور على محمد ﷺ الذى جعله الله خاتم الأنبياء والمرسلين ، فكان أول الوحى إليه عودًا على بدء ، عودًا إلى التكليف الإلهى الأول للإنسان للقيام بمهمته التى كلف بها وهى إعمار الأرض مادياً ومعنوياً ، أى : صنع الحضارة فيها ، ومن هنا كانت الآيات الخمس الأولى من الوحى الإلهى على محمد ﷺ وهى :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) ﴾[1] .

فكانت هذه الآيات الأولى عودًا على بدء ، وتذكيرًا بالعلم وأهميته البالغة فى إعمار الكون . وهذا يعنى استمرار التكليف الإلهى واستمرار التركيز على العلم .

ومن هنا يحق لنا أن نقول : إن هذه الآيات الأولى من الوحى الإلهى لم تأت من فراغ، ولم تكن مقطوعة الصلة بالبداية الأولى، وإنما كانت تتويجاً لرسالات الأنبياء ممثلة فى الرسالة الخاتمة التى اصطفى الله لها محمداً ﷺ الأمر الذى يؤكد لنا أن رسالة الدين هى الإعمار والبناء، هى العمل من أجل الخير والحق والسلام. وهذا يؤكد لنا من ناحية أخرى أن الدين قد جاء لمصلحة الإنسان، ومن أجل خيره وسعادته فى دنياه وأخراه.

وبعد هذه المقدمة الضرورية نود أن نبحث الأمر بشيء من التفصيل ونلقى بعض الضوء عليه حتى تتضح الصورة على نحو أفضل.

وهذا يدعونا إلى أن نتحدث عن بعض المفاهيم الأساسية فى موضوعنا هذا،

(١) سورة العلق : الآيات ١-٥ .

وهى مفـاهيم الإنسان والدين والحضـارة لنتبين من خلال ذلك أن الأمـر بالقراءة ـ الذى تكرر مرتين فـى الآيات المشار إليهـا ـ يحمل معـانى عديدة تعنى الإمـساك بمفاتيح الحضـارة ؛ فالقراءة هنا تُفهم بمعنيين أولهمـا : قراءة الكتاب المسطور وهو القرآن الكريم الذى يحمل المنهج الإلهى للإنسان. وثانيهما : قراءة الكتاب المفتوح وهو الكون. والمطلوب منه القـراءة هو الإنسان. فمن هو هـذا الإنسان الذى تكرر ذكره مرتين أيضاً فى هذه الآيات الأولى من الوحى القرآنى ؟

٣- الإنسـان :

لقد شاءت إرادة الله أن يخلق نوعين من الكائنات : أحدهمـا مسخَّر لا حيلة له من أمر نفـسه ولا حرية له ولا اختـيار؛ وهذا أمر ينطبق على جـميع الكائنات الأرضية ما عدا الإنسان. فكل هذه الكائنات مسخرة بأمر ربها تسبح بحمده ولكن لا نفقه تسـبيحها، والسـموات والأرض قالتا : أتينا طائعين. ومـا فيهما مـسخر للإنسان.

وفى ذلك يقول القرآن:

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١).

حتى الملائكة المكرمون ﴿ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾(٢).

أما النوع الآخـر من المخلوقات ـ وهو الإنسان ـ فإنه مـخلوق فريد؛ ومن هنا لم يكن مسخَّراً لغـيره من الكائنات، بل جعله الله مكلفاً أى :صاحب مـسئولية؛ ومن هنا جعله الله خليفـة فى الأرض ليعمرها بالخير، وكرمـه وفضله على جميع

(١) سورة الجاثية : آية ١٣.

(٢) سورة التحريم : آية ٦.

الكائنات، وهذه الكرامة التى اختص بها الإنسان ذات أبعاد مختلفة، فهى حماية إلهية للإنسان تنطوى على احترام عقله وحريته وإرادته، وتنطوى أيضاً على حقه فى الأمن على نفسه وماله وذريته.

ومن أجل ضمان تحقيق الحماية الإلهية للإنسان حددت الشريعة الإسلامية لنفسها مقاصد خمسة لتأكيد هذه الحماية ، وهذه المقاصد هى حفظ النفس والدين والعقل والمال والنسل.

ولما كان الإنسان مكلفاً ـ أى : مسئولاً ـ فلا بد أن يكون حراً، ومن أجل ذلك منحه الله الحرية فى الفعل والترك، حتى فى قضية العقيدة الدينية نجد القرآن يؤكد هذه الحرية بكل وضوح فى قوله : ﴿ **فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ** ﴾[1]؛ ولذلك وجدنا الإنسان فى بعض حالاته يرد على التعاليم الإلهية بقوله : ﴿ **سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا** ﴾[2]، وفى حالات أخرى يرد قائلاً : ﴿ **سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا** ﴾[3]، كما يخبرنا القرآن الكريم.

وهذه المسئولية التى أُلقيت على عاتق الإنسان لم تستطع الكائنات الأخرى تحملها، وقَبِلَ الإنسان وحده تحمل هذه المسئولية بكل ما تعنيه من التزامات. ويخبرنا القرآن بذلك قائلاً :

﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ** ﴾[4].

والأمانة المقصودة هى أمانة التكليف والمسئولية، وحتى يستطيع الإنسان تحمل تبعات هذه المسئولية وتنظيم الحرية التى منحت له ،أنعم الله عليه بنعمة العقل

---

(١) سورة الكهف : آية ٢٩.

(٢) سورة النور : آية ٥١.

(٣) سورة البقرة : آية ٩٣.

(٤) سورة الأحزاب : آية ٧٢.

الذى يميز به الخير من الشر ،والنافع من الضار ، والحق من الباطل. فالعقل أداة التفكير لدى الإنسان، ومن خلاله يستطيع أن يبتكر ويخترع ويضيف كل يوم جديداً من أجل خير الإنسان وسعادته، وبالعقل يبحث الإنسان وينقب ويفهم ويدرك العلاقات بين الأشياء، ويكتشف القوانين التى تحكم الكون ويدرك الأسباب والمسببات، ومن خلال العقل يمتلك سلاح العلم الذى سلح الله به الإنسان قبل أن يهبط إلى الأرض ، والذى أعاد القرآن التأكيد عليه فى بداية الوحى القرآنى.

ويصف حجة الإسلام الغزالى العقل بأنه « أنموذج من نور الله » ويصفه الجاحظ بأنه « وكيل الله عند الإنسان ».

ومن هنا كانت أول كلمة من الوحى الإلهى على محمد ﷺ - وهى «**اقرأ**»- تتجه إلى مخاطبة هذا العقل، كما وردت فى هذه الآيات الأولى من الوحى الإشارة إلى القلم والعلم، وهذا تأكيد على أهمية القراءة التى هى مفتاح العلم، وبالتالى مفتاح الحضارة وتأكيد على أهمية تدوين العلم بالقلم وحفظه من الضياع لتستفيد منه الأجيال؛ وذلك كله من المهام الأساسية للعقل الإنسانى.

ولأهمية العلم والتعويل عليه فى إعمار الكون وصنع الحضارة فيه جعله الإسلام فريضة من فرائض الدين؛ وقد جاء ذلك على لسان الرسول ﷺ فى قوله : « **طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة**» (١).

والإنسان يستطيع - من منطلق حريته - أن يسخِّر عمله وفكره وقدراته من أجل خير الإنسان.

وهنا تكون الفرصة مواتية لصنع الحضارة والتقدم، كما يستطيع الإنسان أن يفعل العكس من ذلك تماماً ويسخِّر كل إمكاناته للهدم والتخريب والتدمير. وهنا تكون الحروب التى تهلك الحرث والنسل وتعصف بكل شىء جميل بناه الإنسان.

وحتى تنضبط حركات الإنسان ولا يعتريه الغرور أو يضله الهوى أراد الله أن

---

(١) رواه ابن ماجه.

يساعده فى اكتشاف طريقه وتوجيه طاقاته نحو البناء والتعمير من أجل خير الإنسان وسعادته فى دنياه وأخراه؛ ومن هنا كان الدين.

٤- الدين :

ويعد الدين نزعة فطرية أصيلة فى نفس الإنسان. وليست هناك أمة فى التاريخ عاشت ثم مضت دون أن يكون لها تصور ـ بشكل من الأشكال ـ عن الدين والألوهية والمصير. وإذا كان الدين يلبى حاجات الإنسان الروحية فإن ذلك يعنى أنه قد جاء لمصلحة الإنسان. وإذا تأملنا تشريعات الإسلام كلها بما فيها العبادات نجد أنها جميعاً تنطلق من منطلق واحد هو مصلحة الإنسان وسعادته فى الدنيا والآخرة.

ومن هنا وجدنا القرآن الكريم ـ وهو الكتاب المقدس للمسلمين ـ يشتمل على موضوع رئيسى هو الإنسان، فكل ما فى القرآن إما حديث إلى الإنسان أو حديث عن الإنسان ، أو عن أمر يتصل بالإنسان بشكل أو بآخر ؛ فالإنسان ـ إذن ـ هو قضية القضايا فى الدين. وهو محور هذا الكون وهو سيد فى هذا الكون. والدين هو الذى أعطى له هذه المكانة الفريدة لأن الله قد جعله خليفة فى الأرض، وأسند إليه مهمة تعمير الكون وصنع الحضارة فيه.

والمتتبع لتاريخ الحضارات السابقة وما تركته لنا من آثار لا تزال قائمة يستطيع أن يتعرف بسهولة على ما كان للفكرة الدينية فى هذه الحضارات من دور كبير وأثر عظيم. فالدين عنصر فعال فى كل حضارة. وهذا أمر لا يمكن تجاهله.

وإذا كانت تعاليم الإسلام قد جاءت من أجل مصلحة الإنسان فإنها قد نظرت إلى هذه المصلحة بطريقة متوازنة. فقد اهتمت بأمر الدنيا كما اهتمت بأمر الآخرة، وطلبت من الإنسان أن يقيم التوازن بينهما كما جاء فى القرآن الكريم :

﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ [1] .

﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا ﴾[2].

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾[3] .

﴿ وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾[4].

وهكذا نجد أن الإسلام ينظر إلى الإنسان نظرة واقعية : يلبى ـ من ناحية ـ حاجاته المادية، وفى الوقت نفسه لا يهمل حاجاته الروحية. ومن خلال هذا المزج الفريد المتوازن بين هذين الجانبين تستقيم حياة الإنسان، وبالتالى يكون شخصية سوية قادرة على القيام بواجبها فى إعمار الكون مادياً ومعنوياً.

ولعله من الأمور اللافتة للنظر ألا يتحدث الوحى الإلهى فى بدايته عن أمور دينية بحتة تتصل مباشرة بالعقيدة وشكلها وصلة الإنسان بالله ومصير الإنسان بعد الموت . . . . إلخ، وإنما تتحدث مباشرة عن مفاتيح الحضارة : عن القراءة والعلم وتدوينه والإنسان ودوره.

ولكن التأمل فى الأمر على نحو أعمق يبين لنا أن الإنسان الذى تستقيم حياته بالعلم بمفهومه الواسع وبمقررات العقل السليم والذى يتجه إلى تسخير قواه العقلية والمادية من أجل التعمير والبناء يكون أقدر على الوصول إلى الهداية الإلهية. فالعلماء هم أقدر الناس على إدراك أسرار الخلق وجلال الخالق. ومن هنا نجد القرآن ينبه إلى هذه الحقيقة بقوله :

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [5].

---

(١) سورة القصص : آية ٧٧.

(٢) سورة الأعراف : آية ٣١.

(٣) سورة الأعراف : آية ٣٢.

(٤) سورة الإسراء : آية ٢٩.

(٥) سورة فاطر : آية ٢٨.

فالتأمل العميق فى خلق الله واكتشاف القوانين الإلهية فى تسيير هذا الكون وفى الإنسان ، كلها أمور موصلة إلى طريق الحق الذى هو طريق الله. ومن أجل ذلك يقول القرآن الكريم معززاً هذا الطرح الذى عرضناه :

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [1] .

فالدين ـ إذن ـ يدفع الإنسان دفعاً إلى طلب العلم ـ الذى هو فريضة إسلامية ـ إيماناً منه بأن ذلك الطريق سيوصل فى النهاية إلى خالق الكون، أى: إلى الإيمان بالله.

وغنى عن البيان أنه ليس كل إنسان بقادر على ارتياد هذا الطريق. ولم يغب ذلك عن تعاليم الإسلام بوصفه الدين الخاتم الذى ينبغى أن تتلاءم تعاليمه مع طبيعة الإنسان فى كل العصور. ومن هنا كان منهج الدعوة الإسلامية الذى نص عليه القرآن الكريم ملائماً لكل العصور ومناسباً لكل العقول :

﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [2] .

ولا يغيب عنا أن الآية بدأت بالحكمة، والحكمة هذه لا يدركها إلا أهل الحكمة أى: العلماء الذين يمتلكون مفاتيح الحضارة. ولكن الآية قد راعت أيضاً المستويات العقلية الأخرى.

إن الإسلام فى تعاليمه يدفع الإنسان دفعاً إلى صنع الحضارة وضمان استمرارها، ليس فقط بتأكيده على العلم وأهميته البالغة فى صنع الحضارة، وإنما أيضاً بتأكيده على ضرورة دراسة الحضارات السابقة والاستفادة من الدروس والعبر التى يمكن استخلاصها من هذه الدراسة.

---

(١) سورة فصلت : آية ٥٣.

(٢) سورة النحل : آية ١٢٥.

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ [1].

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [2].

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ [3].

وأمثال هذه الآيات كثير فى القرآن الكريم تحثنا على معرفة أسباب انهيار الحضارات السابقة ومواطن الخلل فيها حتى نتجنبه ونتفادى حدوثه مرة أخرى.

إن انهيار حضارة ما يعنى أنها قد حادت عن الطريق السليم وبالتالى تكون قد فقدت مقوماتها. وهنا لا بد لنا من إلقاء بعض الضوء على مفهوم الحضارة كما يراها الإسلام.

٥- الحضارة :

إن المتتبع لمفهوم الحضارة (بكسر الحاء وفتحها) فى المعاجم العربية يجد أنه يعنى عكس البداوة، وهذا يعنى أسلوباً مختلفاً فى التعامل مع الناس والأشياء، ونقلة فكرية أيضاً نظراً لما بين مجتمع البداوة ومجتمع الحضر من فروق.

وقد أشار ول ديورانت أيضاً فى كتابه « قصة الحضارة » [4] إلى معنى قريب من ذلك حين يقول : إن الحضارة أو المدنية فى وجه من وجوهها هى رقة المعاملة، ورقة المعاملة هى ذلك الضرب من السلوك المهذب الذى هو فى رأى أهل المدن من

(١) سورة الحج : آية ٤٦.

(٢) سورة غافر : آية ٢١ .

(٣) سورة يوسف : آية ١١١.

(٤) قصة الحضارة : ول ديورانت ـ ج١ ترجمة د. زكى نجيب محمود ص٥ ـ القاهرة ١٩٧٣م.

خصائص المدينة وحدها، ويضيف قائلاً : « إن المدنية تبدأ في كوخ الفلاح لكنها لا تزدهر إلا في المدن».

ومن ذلك يتضح لنا أن مفهوم الحضارة مرتبط بمفهوم التقدم، فالحضارة ـ إذن ـ نقلة تقدمية بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى : تقدمية في الفكر وفي السلوك وفي أسلوب التعامل مع الناس والأشياء. وهذا كله في إطار منظومة من القيم تتعدى الإطار القبلي الضيق إلى الدائرة الإنسانية الأوسع والأرحب.

وقد كان للإسلام دور كبير في تنبيه الأذهان إلى هذه الدائرة الرحبة مؤكداً على العنصر الإنساني الشامل ، كما جاء في القرآن الكريم :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾(1).

وهذا التعارف يعد مفتاحاً للتفاهم والتعاون المشترك بين البشر في سبيل ترسيخ قيم إنسانية مشتركة. ومن هنا اعتبر الإسلام الاعتداء على فرد واحد من أفراد الإنسان بمثابة اعتداء على الإنسانية كلها :

﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ (2).

والحضارة ذات طبيعة مزدوجة، أي: أن لها جانباً مادياً وجانباً روحياً. ومن هنا عرفها ألبرت أشفيتسر في كتابه « فلسفة الحضارة » بقوله : إن الحضارة بصورة عامة هي « التقدم الروحي والمادي للأفراد والجماهير على السواء » (3).

وهذا يتفق مع ما سبق أن أشرنا إليه من أن الحضارة تعد نقلة تقدمية في الفكر وفي السلوك وفي أسلوب التعامل مع الناس والأشياء.

---

(1) سورة الحجرات : آية ١٣.

(2) سورة المائدة : آية ٣٢.

(3) فلسفة الحضارة لألبرت أشفيتسر ـ ترجمة د. عبد الرحمن بدوي ـ ص ٣٤ (دار الأندلس ١٩٨٠ م).

ويعنى كذلك أن الحضارة تحقق نفسها ـ من ناحية ـ فى سيادة العقل على قوى الطبيعة، ومن ناحية أخرى فى سيادة العقل على نوازع الإنسان، وليس يكفى إطلاقاً أن يسود العقل على الطبيعة الخارجية، فهذه السيادة وإن كانت تمثل تقدماً إلا أنه تقدم تقترن فيه المزايا بالمساوئ التى يمكن أن تعمل فى اتجاه مضاد للحضارة أو مؤذن بفسادها.

ومن أجل ذلك فإن من الضرورى أن تكون هناك قيم تحكم مسيرة التقدم على المستوى المادى.

وقد لجاء مالك بن نبى فى تعريفه للحضارة إلى معادلة رياضية تقول :

إن الحضارة = إنسان + مادة + وقت .

وبذلك فإن المشكلة الحضارية تنحل إلى ثلاث مشكلات أولية هى : مشكلة الإنسان، ومشكلة المادة، ومشكلة الوقت، وتقوم الفكرة الدينية بعملية المزج بين هذه العناصر الثلاثة.

ولمالك بن نبى تحليلات طيبة ونظرات ثاقبة فى هذا الصدد، ولسنا هنا نريد أن نكرر ما قاله، ولكننا نود أن نشير إلى أن المشكلة الحضارية الرئيسية فى نظرنا هى مشكلة الإنسان، فالإنسان هو العنصر الفاعل الإيجابى فى العملية الحضارية كلها، وما عداه مسخر لخدمته ومجال لنشاطه. وهذا يتفق تماماً مع ما سبق أن أشرنا إليه من أن مخلوقات الله تنقسم إلى نوعين : نوع مسخر ، ونوع مكلف مسئول وهو الإنسان.

وإذا كانت الحضارة تتوقف فى المقام الأول على الإنسان، وكان الإنسان مكلفاً ومسئولاً فإن الحضارة تعنى التزاماً أخلاقياً، ومن هنا نفهم قول النبى ﷺ :

«إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» (١).

فالحضارة ـ إذن ـ ليست مجرد حضارة إنتاج أو استهلاك، فهذه لا تستحق أن

---

(١) رواه مالك فى الموطأ.

يطلق عليها لفظ حـضارة، فلا يكفى أن يقتنى المرء الحضارة مـجرد اقتناء دون أن يكون ملتزماً أخلاقـياً بمنظومة القيم الحضارية والسلـوك الحضارى؛ ولهذا يمكن أن نرى فـرداً من الأفراد يستـخدم كل منتـجـات الحضـارة ولكنه لا يسلك سلوكـاً حضاريـاً. ومثل هذا الفرد لا يمكن أن يقال عنه إنه مـتحضر رغم الأكـوام الهائلة التى يحيط بها نفسه من منتجات الحضارة.

وإذا قلنا إن الحضـارة فى جوهرها تعـد التزاماً أخـلاقياً فـإننا نعنى بذلك أن الحضارة مسئولية؛ فهى التزام أخلاقى يجعل المرء على وعى بالمسئولية الكبيرة التى يتحملها الإنسان الفرد، ليس فقط تحمله المسئولية عن أفعاله الخاصة، وإنما ـ بمعنى معين ـ تحمله المسئولية عن العالم الذى يعيش فيه. فكلنا نعيش فوق كوكب أرضى واحد أصبح مـثل سفينة تتقاذفـها الأمواج من كل جانب. ونحن جمـيعاً ـ سكان هذا الكوكب ـ مسئـولون بدرجات متفاوتة عـما أصاب هذا الكوكب الأرضى من تلوث فى الماء والهواء والغذاء وما أصاب طبقة الأوزون من تآكل ينذر بخطر داهم يهدد البشرية كلها.

ويعبر النبى ﷺ عن هذه المسئولية التضامنية بين البشر جميعاً فى تشبيه دقيق يصور فيـه الناس جميعاً كـأنهم يوجدون معاً على ظهر سـفينة، وأن هناك عناصر تعبث فيها وتهددها بالغرق، وأن مسئوليـتهم المشتركة تحتم عليهم أن يتضامنوا فى سبيل إنقاذها.

وفى ذلك يقول : « **مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فـأصاب بعضهم أعـلاها وبعضهم أسفلها، فكان الـذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فـقالوا : لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنـا، فإن يتركـوهم وما أرادوا هلكوا جـميـعاً، وإن أخذوا على أيـديهم نجوا ونجوا جميعاً** » [1].

---

(١) رواه البخارى فى كتاب التركة.

وهذا الخرق فى السفينة يذكرنا أيضاً بثقب الأوزون الذى يهدد عالمنا الذى نعيش فيه، ويذكرنا أيضاً بغيره من مشاكل بيئية عديدة تهدد الحياة والأحياء على الأرض. تلك المشاكل التى نتجت عن التقدم التقنى المنفلت الزمام، وما تسببه النفايات الذرية ونفايات المصانع من تلويث للهواء والماء والغذاء.

والحضارة الحقيقية من شأنها أن تجعل روح التسامح تسرى بين الناس، وفى ظل هذا التسامح تتاح للمرء حرية التفكير.

وقد يفكر المرء فى اتجاه خاطئ ، ولكن لفت نظره إلى الاتجاه الصحيح لا يكون عن طريق الإرغام أو القهر، وإنما يكون بالحكمة والموعظة الحسنة، وفى ظل هذه الحضارة ينتفى التعصب الأعمى ويختفى العنف الجهول والإرهاب الفكرى.

وهذا التسامح المشار إليه يمكن أن يكون ـ من جانب آخر ـ بمثابة مدخل للالتقاء بالحضارات الأخرى والانفتاح عليها وإقامة جوار معها، وهذا يعنى فتح المجال أمام التعددية الحضارية.

إن الطبيعة المزدوجة للحضارة تعنى ضرورة التوازن الدقيق بين جانبها المادى وجانبها الروحى. وهذا هو بالضبط ما يدعو إليه الإسلام وما سبق أن أشرنا إليه.

ومن هنا فإنه لا يجوز اختزال الحضارة فى إرضاء الاهتمامات المادية فقط أو الروحية فقط أو العقلية فقط، بل لا بد أن يكون هناك توازن بين كل هذه الاهتمامات والمتطلبات، فالأزمة الحضارية الراهنة فى العالم ترجع فى رأى كثير من المفكرين إلى أن قدرة الإنسان المعاصر على تشكيل ذاته على المستوى الفردى والجماعى قد تراجعت تراجعاً حاداً خلف قدرته على تشكيل بيئته تشكيلاً مادياً.

ومن هنا يعد السعى من أجل سيادة السلوك الأخلاقى فى مقابل الحضارة الشيئية البحتة مسئولية يشترك فى تحملها كل فرد. فقد ألقت المقادير فى يد الحرية الإنسانية مصير هذا النزاع القديم المتواصل حول سيادة العقل.

ولا يجوز أن يغيب عنا أن هدف الحضارة هو الإنسان قبل أى شىء آخر. وفى تأكيدنا على معنى الإنسان وكرامته وحريته لا نعدو قول الحق إذا قلنا إن الحضارة ـ أى حضارة ـ تنتهى عندما تفقد فى شعورها معنى الإنسان. ومعروف أن الإسلام جعل الإنسان خليفة الله فى أرضه.

وهناك ارتباط لا ينفصم بين الأخلاق والإنسانية : فالأخلاق تذهب إلى المدى الذى تذهب إليه الإنسانية، والإنسانية معناها توفير الاعتبار لوجود أفراد الإنسانية وسعادتهم، وحيث تنتهى الإنسانية تبدأ الأخلاق الزائفة والحضارة الزائفة.

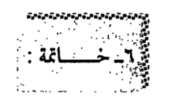
وإذا كان الفيلسوف الإنجليزى توماس هوبز قد ذهب فى تصوره إلى حد رؤية الإنسان ذئباً بالنسبة لأخيه الإنسان وأن الكل فى حرب ضد الكل فإن التصور الإسلامى الذى يتلاءم مع الحضارة الحقيقية أو الذى يعبر عن لب هذه الحضارة وينبغى أن يصل إلى وعى الأفراد والجماعات هو « مسئولية الكل عن الكل »، فالجميع ـ كما يقول القرآن ـ مخلوقون من نفس واحدة.

وقد أعطى الله الإنسان من الطاقات والاستعدادات والإمكانات ما يتناسب مع ما فى هذه الأرض من قوى وطاقات وكنوز وخامات، فهناك تناسق بين القوانين الإلهية التى تحكم الأرض وتحكم الكون كله والقوانين التى تحكم الإنسان، وما حباه الله به من قوى وطاقات ؛ حتى لا يقع التصادم بين هذه القوانين وتلك، وحتى لا تتحطم طاقة الإنسان على صخرة الكون.

وعمارة الأرض تتحقق ـ كما سبق أن أشرنا ـ بالعلم الذى هو فريضة إسلامية، وبالتقنية التى هى تطبيق للعلم ، ومن أجل ذلك تدخل تحت مفهوم الفريضة، ولكن العمارة على هذا النحو المشار إليه ليست هى الحضارة بإطلاق، وكذلك ليست هى العمارة بإطلاق ، بل هى أحد جوانب العمارة، ويمكن أن يطلق عليها مصطلح الحضارة الشيئية أو المادية. أما الجانب الآخر الذى به تكتمل الحضارة ـ أو عمارة الأرض بالتعبير القرآنى ـ فإنه يشمل كل القيم الدينية والعقلية والأخلاقية والجمالية.

ومن هنا فإن الحضارة فى المفهوم الإسلامى تعنى تحقيق المشيئة الإلهية فى عمارة الأرض مادياً ومعنوياً ؛ وبذلك يحقق الإنسان ذاته بوصفه خليفة لله فى الأرض .

وهكذا نجد أن سيطرة الإنسان على قوى الطبيعة لا تكفى وحدها لبناء الحضارة، بل لا بد أن ينضم إلى ذلك أيضاً سيطرة الإنسان على نوازعه الداخلية وأهوائه وشهواته حتى تكون منضبطة بالقيم الدينية والعقلية والأخلاقية والجمالية، وبذلك تتم عمارة الأرض كما أراد الله، وبذلك يكون الإنسان فى صلة مستمرة بالله خالق الكون تصحح له دائماً مساره على الأرض حتى لا يضل الطريق ، فيظن أنه سيد هذا الكون مع أن دوره لا يعدو أن يكون سيداً فى هذا الكون، وهذا هو معنى خلافته لله فى الأرض.



٦ـ خاتمة :

ولعله قد أصبح واضحاً مما تقدم مدى الربط الوثيق بين الآيات الأولى من الوحى القرآنى التى بدأت بالأمر بالقراءة وبين مفاتيح الحضارة. وقد أدرك المسلمون الأولون ذلك فاستطاعوا ـ بعد فترة زمنية قصيرة نسبياً من ظهور الإسلام ـ أن يقيموا حضارة زاهرة كانت من أطول الحضارات عمراً فى التاريخ. ولعله من المفيد فى هذا المقام أن نمارس شيئاً من النقد الذاتى للحال التى وصلنا إليها نحن المسلمين. فالنقد الذاتى هو بداية الطريق الصحيح نحو الإصلاح.

فعندما اختفى الفهم المستنير للتعاليم القرآنية، وأصبح المسلمون يتعاملون مع القرآن على أنه كتاب يردد الناس آياته دون فهم، ويقرأون به على الأموات، ويصنعون منه الأحجبة، ويضعونه فى البيوت أو السيارات بمثابة ديكور أو للبركة، ثم فى الفترة الأخيرة يتخذون منه حرفة التداوى بالقرآن ـ عندما صار الأمر على

هذا النحو اختفى الفهم السليم وغابت معالم الطريق، وفقد المسلمون مفاتيح الحضارة التى ظلت فى أيديهم ما يقرب من ثمانية قرون.

ومن هنا فإن عدم مشاركة المسلمين فى صنع الحضارة يعنى أنهم قد تخلوا عن مسئوليتهم فى عمارة الأرض، وتركوها لغيرهم ، وهى تلك المهمة التى أكدها القرآن الكريم.

فماذا يريد المسلمون ؟

هل ينتظر المسلمون انهيار الحضارة المعاصرة حتى يقيموا حضارتهم على أنقاضها ؟ إذا كان الأمر كذلك فسيطول بهم الانتظار.

أم يرى المسلمون أن واجبهم فى المشاركة فى صنع الحضارة المعاصرة يتمثل فى الاهتمام بالجانب الروحى الذى أهملته الحضارة الحديثة حتى يقيم المسلمون ـ بذلك ـ التوازن الذى اختل فى الحضارة الحديثة ؟

إن هذه مهمة جزئية ليست هى ما يريده الإسلام من أبنائه،فالإسلام لا يفصل الجانب المادى عن الجانب الروحى، والنموذج الذى ينبغى أن نسعى إليه ونقدمه لأمتنا ـ ولغيرنا ـ لا بد أن يكون جامعاً للأمرين، وإلا كنا خائنين لرسالتنا نرتضى لأنفسنا أن نكون لقمة سائغة فى فم القوى العظمى.

إننا فى عالم اليوم فى عصر لم يعد يعترف إلا بالقوة. وقوة اليوم لم تعد هى قوة السلاح فقط أو قوة الإيمان فقط، وإنما هى القوة التى تجمع بين الأمرين، وهذا هو جوهر تعاليم الإسلام.

فلا يجوز لنا ـ إذن ـ أن نتخلى عن فريضة العلم، وما يرتبط به من تقنية متطورة بجوار قيامنا بفرائض الروح والقلب.

ومن هنا فإنه لا مناص لنا من أن نتمكن من حضارة العصر بكل منجزاتها

المادية، وتطوراتها العلمية والتقنيـة، فى الوقت الذى نراجع فيه موقفنا من الإسلام وتعاليمه، لنزيل الغبش الذى غطى على تعاليم الإسلام فحجب عنا الرؤية السليمة الواضحة لهـذه التعاليم على مدى القرون الماضيـة، وهذا يتطلب تحولاً جذرياً فى العقلية الإسلامية لتنسجم مع تعاليم الإسلام تصـحيحاً للأوضاع الغريبة، والتقاليد البالية، والقصور العقلى، والفهم السقيم الذى أراد أن يشد تعاليم الإسلام لتنسجم مع ما درجنا عليه من عقليـة متخلفة أو يتخذ. منه ستاراً لعمليـات إرهابية إجرامية يرفضها الإسلام رفضاً قاطعاً.

فالعيب ـ إذن ـ فينا نحن المسلمين وليس فى الإسلام. فالإسلام سيظل شامخاً بتعاليـمه، إذا اشرأبت أعناق المسلمين وقلوبهم وعقولهم نحـوه ـ بصدق ـ جذبهم إلى أعلى، وإذا أرادوا أن يخـضعـوه إلى فهـمهم السـقيم تخلى عنهم، وتركـهم يسقطون فى وهدة التخلف.

إن الأمر الذى يـدعو للأسى والحسرة أننا كلمـا أدركنا ما نعـانيه من قـصور وعجز وتخلف فى المجال الحضارى فى عالم اليـوم لجأنا إلى حيلة دفاعية نبرر بها موقفنا فنخدع أنفـسنا بأنه إذا كان قد فاتنا اللحاق بركب الحضارة الحـديثة المؤسسة على العلم والصناعة فإننا ننعم بإيمان دينى لا ينعم بمثله بناة تلك الحضارة.

وهذا ادعاء ينقض نفسه بنفســه، لأننا لو كنا حقاً قد تشربنا الدين الذى نؤمن به لوجب علينا بحكم هذا الدين نفـسه أن نسبق الدنيا فى إقـامة الحضارة القـائمة على كشوف العلم وما ينبنى عليها، لأن الإسلام دين يحض على العلم بأى معنى فهمنا كلمة «عـلم» فإذا كان العلم الذى بنيت عليه حضارة عـصرنا هو ـ أساساً ـ العلم بقوانين الطبيعة، فذلك ما دعانا إليه القرآن الكريم كلما دعانا إلى تدبر خلق الله ، فـخلق الله هو هذا الكـون بشـتى كـائناته وظواهره، وتدبر هـذه الكائنات والظواهر لا يعنى النظر إليها نـظرة المتفرج، بل يعنى تعمقهـا والوصول إلى درجة العلم بالأسس التى تحكم سلوكها والقوانين التى تنظم مـسيرتها، وذلك من صميم النشاط العلمى وما ينطوى عليه.

فإذا أمرنا القرآن الكريم بأن ننظر إلى الإبل كيف خُلقت أو إلى السحب كيف تتجمع لتنزل ماءها إلى أرضنا فتحييها بما تنبته من نبات، فإن الهدف من ذلك ينتهى بنا إلى درجة العلم بالحيوان أو العلم بالنبات.

وينطبق ذلك على كل كائن أو ظاهرة مما يجب علينا ـ بحكم الدين ـ أن نتناوله بالنظر [1]، ولكننا للأسف لا نفعل شيئاً من ذلك، ونعتقد أن مجرد قراءة القرآن وحفظه يكفيان لاكتمال إيماننا بالدين، فأين ذلك من قول الله تعالى :

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [2].

إن كثيراً من آيات القرآن الكريم التى تتحدث عن الظواهر الكونية والكائنات المختلفة تنتهى بالدعوة إلى حث القوى الفكرية لدى الإنسان لتقوم بأداء وظيفتها فى هذا الصدد ممثلاً ذلك فى قائمة الأفعال التى تعبر عن التفكير والتعقل والتفقه والاعتبار والتدبر والتبصر والتذكر والعلم ، وغيرها من أفعال مشابهة.

لقد تم التركيز فيما يسمى بالصحوة الإسلامية على أمور العبادات ، وهذا أمر مطلوب، واهتمت بالكثير من المظاهر والشكليات، وهذا من قبيل الهزل فى وقت الجد.

إن المسألة الملحة اليوم هى البحث عن مخرج للمسلمين من وهدة التخلف الشامل، وذلك لن يكون إلا باستعادة الوعى بالإسلام بوصفه دين العقل والعلم والحضارة.

والصحوة الإسلامية تظل مجرد كلمة خالية من المضمون ما دامت لم تصل إلى مرحلة عودة الوعى بالإسلام، وعودة الوعى هى الحالة التى يمكن أن تكون المنطلق الحقيقى للفهم الشامل للإسلام بوصفه دين العزة والكرامة، دين التقدم والحضارة، دين العلم والمدنية، دين الدنيا والآخرة ، دين التوازن بين الجسم

---

(١) د. زكى نجيب محمود ـ صحيفة الأهرام ٥/٦/ ٩٠.

(٢) سورة محمد : آية ٢٤.

والروح ، دين الاعتدال والسماحة، دين السمو المادى والمعنوى، وبصفة عامة: دين السلوك المسئول على جميع المستويات الفردية والاجتماعية والدينية .

والسلوك المسئول هو دائماً سلوك حضارى، والتعاليم التى تنتج هذا السلوك المسئول هى التعاليم التى تدفع معتنقيها إلى صنع الحضارة والمشاركة فيها، لا بوصفهم مجرد مستهلكين أو متفرجين، ولكن بوصفهم فاعلين مؤثرين.

إن ديناً بهذا الوصف لا يمكن أن يجعل أمر الحضارة من المسائل الهامشية ضمن اهتماماته، وإنما يجعلها فى قائمة أولوياته.

ومن هنا يمكننا أن نقرر أن الحضارة فريضة إسلامية، وواجب دينى لا يجوز للمسلمين أن يتخلوا عنه، بل عليهم أن يجعلوه فى قمة أولوياتهم حتى يعودوا مرة أخرى أعزة، ويستعيدوا مكانهم الريادى ومكانتهم العليا فى عالم اليوم باستعادتهم لمفاتيح الحضارة والدخول فى سباق التقدم الحضارى الذى يعود على الإنسانية بالخير. فالقرآن يحثنا على ذلك حين يقول :

﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾[1]، ﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾[2].



(١) سورة البقرة : آية ١٤٨.

(٢) سورة المطففين : آية ٢٦.

الفصل الثانى

الإســلام وتحديات القــرن الحــادى والعشــريـن

ويتضمن هذا الفصل :

١- تمهيد :

يستعد العالم لدخول القرن الحادى والعشرين، وليس هذا مجرد انتقال من فترة زمنية إلى فترة زمنية أخرى، وإنما هو ـ فوق ذلك ـ نقلة حضارية تعنى فكراً جديداً وقيماً جديدة تتناسب مع ما جد فى العالم من متغيرات، وما طرأ عليه من تطورات.

ولأن العالم الإسلامى جزء من عالمنا ـ الذى أصبح كما يقال كثيراً مثل قرية كونية صغيرة ـ لا بد له من الاستعداد للدخول إلى هذا القرن الجديد. لكن هذا الاستعداد له متطلبات يتحتم الوفاء بها، فليس المقصود كما قلنا هو مجرد انتقال زمنى لأن ذلك ينطبق على كل الكائنات التى لا تشعر بالزمن ولا تعى ماذا يعنى، ولكن الأمر يتطلب ـ بالنسبة إلى الإنسان ـ ضرورة الوعى بالزمن، وهذا الوعى يتم بمعنى مزدوج : فهو وعى بحركة الزمن من ماض إلى حاضر إلى مستقبل وأنها دائماً فى صعود. فالتاريخ يسير إلى الأمام ولا يتراجع إلى الوراء، ثم هو وعى بالتطور التاريخى، والذى يعنى نقلة حضارية تشتمل على إضافة حضارية يسجلها التاريخ. فالاستعداد لدخول القرن الحادى والعشرين يعنى ـ إذن ـ الوعى بالتاريخ، ولا يكون ذلك إلا إذا أزيلت العقبات التى تعترض طريق عودة هذا الوعى. وهذه العقبات تمثل تحديات أمام الأمم. والأمم التى تستجيب للتحدى وتتغلب عليه تحيا وتعى ما حولها. أما التى تنهزم أمام التحدى فإنها تفنى وتطوى صحيفتها فى زوايا النسيان دون أن تقوى على التحرك نحو المستقبل.

فهل أمتنا الإسلامية مستعدة لدخول القرن الحادى والعشرين ؟ وهل يستطيع الإسلام أن يواجه التحديات الكثيرة التى تعترض طريقه لدخول القرن الحادى والعشرين ؟ بل هل استطاع أن يتخلص من تحديات القرن العشرين ؟ ثم ما هى هذه التحديات التى يشتمل عليها القرن الحادى والعشرون ؟.

٢ - تحديات القرن الحادي والعشرين

عندما نتأمل التحديات التي تعترض سبيل الإسلام لدخول القرن الحادى والعشرين فإننا نجدها قد بدأت فى الظهور فى النصف الأخير من هذا القرن، وبصفة خاصة فى العقد الأخير من القرن العشرين الذى حدثت فيه تطورات بالغة الأهمية وعلى رأسها انهيار الاتحاد السوفيتى السابق، وظهور القطب الواحد فى العالم، وانتشار الخوف غير المبرر من الإسلام فى الغرب بوصفه العدو البديل أو الخطر القادم الذى يهدد الحضارة العالمية، والترويج لنظرية صراع الحضارات ونهاية التاريخ ،والتطورات العلمية الجديدة مثل الاستنساخ وزراعة الأعضاء، وغيرها مما قد يزعزع المعتقد الدينى ـ ومنه الإسلام ـ فى عالم القرن الجديد.

وإذا كانت هذه التحديات تمثل تحديات خارجية فهناك تحديات داخلية عديدة من أهمها : انتشار ظاهرة الإرهاب فى العالم الإسلامى على نطاق واسع، رغم أنها تعد ظاهرة عالمية، ويرتبط بذلك أيضاً الفهم الخاطئ للإسلام، والتفسيرات المغلوطة لتعاليمه، وكذلك خطر الأصدقاء الجهال للإسلام الذين هم أشد ضرراً على الإسلام من خصومه.

وهذا إجمال يحتاج إلى تفصيل يبين موقف الإسلام من ذلك كله.

ونبدأ بتحديات الداخل لأن ترتيب البيت من الداخل ينبغى أن تكون له الأولوية، فضلاً عن أنه من ناحية أخرى مرتبط بشكل وثيق بتحديات الخارج، بمعنى أنه إذا تعافى الإسلام من أمراضه الداخلية وتغلب على تحديات الداخل فإنه حينئذ يكون فى مقدوره مواجهة التحديات الخارجية. أما إذا لم يستطع التغلب على تحديات الداخل فإنه لن يكون فى وضع يسمح له بالتغلب على تحديات الخارج.

٣- تحديات داخلية :

أ- ظاهرة الإرهاب :

تُعد ظاهرة الإرهاب على رأس التحديات الداخلية التى تواجه العالم الإسلامى. وقد شهد عام ١٩٩٧م على وجه الخصوص تطور هذه الظاهرة بشكل مخيف، إذ اتجه الإرهاب إلى القتل والتدمير للأبرياء دون تمييز بين طفل وامرأة وشيخ وشاب، وتعدى ذلك إلى التمثيل بألقتلى دون سبب مفهوم، وفى كثير من الأحيان تحت شعار إسلامى، وبصيحات الله أكبر .

ونتائج هذا الإرهاب مدمرة لقدرات الشعوب الإسلامية اقتصادياً، وسياسياً، واجتماعياً، وتعوق تنفيذ خطط التنمية الشاملة، ولا شك أن الإرهاب فى العالم الإسلامى يتلقى الدعم والتخطيط من رءوس الإرهاب فى الخارج وبخاصة فى الدول الأوروبية التى توفر الملاذ وحرية الحركة لهؤلاء تحت مظلة الحماية المزعومة لحقوق الإنسان.

وفى تقديرى أن مواجهة الإرهاب فى العالم الإسلامى قد اتسمت بقصور شديد، إذ نظر الكثيرون إليها على أنها صراع بين الإرهاب والحكومات. ومن هنا لم يظهر الدور الشعبى فى الصورة، وترك الأمر - فى غالب الأحيان - للحكومات بأجهزتها الأمنية. وذلك خطأ واضح؛ فخطر الإرهاب يمس الشعب كله بجميع فئاته، ويمس مصالح كل فرد فيه؛ فالإرهاب يهدف إلى زعزعة استقرار المجتمع وتهديد أمن الوطن والمواطنين.

وقد رأينا بعد حادث الأقصر البشع كيف أن نتائج هذه الجريمة النكراء قد أصابت المواطن العادى فى كل الأماكن السياحية بالضرر البالغ فى مصدر رزقه، بنفس القدر الذى وقع على صناعة السياحة والاستثمار والاقتصاد، بالإضافة إلى الضرر الذى أصاب سمعة مصر فى العالم، وسمعة الدين الإسلامى ذاته.

ومن هنا فإن التغلب على التحدى الذى يمثله الإرهاب يجب أن يكون مسئولية المجتمع بأسره. فلم يعد مقبولاً ولا معقولاً أن يعتمد الكل على المواجهة الأمنية فقط، أو أن تتحمل أجهزة الشرطة دون غيرها كل المسئولية.

إن الأمر يتطلب وضع خطة قومية شاملة لمواجهة الإرهاب تحدد فيها واجبات ومهام كل جهة ـ حكومية كانت أم أهلية ـ ويتم تنفيذ ذلك عن طريق خطط فرعية خاصة بمجالات عمل كل جهة وذلك فى إطار الخطة العامة.

أما ما يطلقه الإرهابيون من شعارات إسلامية فإنها لا يمكن أن تخدع عاقلاً لأن الأديان كلها، والإسلام بصفة خاصة، ترفض العنف والقتل والتخريب، وتدعو إلى المحبة والأخوة والسلام. والإسلام إذ يرفض العدوان رفضاً قاطعاً فإنه يعتبر قتل نفس واحدة كأنه قتل للإنسانية كلها ﴿ **مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا** ﴾[1].

ب- الفهم الخاطئ للإسلام :

والإسلام ـ دين الاعتدال والوسطية ـ يكره التطرف والغلو فى الدين ويدعو إلى التيسير على الناس والرحمة بهم، ورغم تعاليم الإسلام الواضحة فى هذا الشأن إلا أن هناك اتجاهات تفسر الإسلام على هواها، وتريد أن تشده ناحية اليمين أو ناحية اليسار بتفسيرات خاطئة تجعل منه إما ديناً جامداً منغلقاً متقوقعًا لا يقوى على مسايرة الزمن، ولا يرعى متغيرات الحياة. وبذلك يشدونه إلى فهمهم السقيم ويضيقون رحمة الله الواسعة، وإما أن يجعل منه فريق آخر دينًا دموياً عدوانياً متعطشاً لسفك الدماء. وكلا الاتجاهين لا مكان له من الحقيقة ولا يعبر إلا عن الرؤى المريضة لمن يتحدثون بها.

---

(١) سورة المائدة : آية ٣٢.

فالإسلام إذ يرفض الجمود والانغلاق والتـقوقع، فإنه من ناحية أخرى يرفض رفضاً قاطعاً كل شكل من أشكال العنف أو العـدوان أو القتل والتخريب، ويسمى القرآن ذلك بأنه إفسـاد فى الأرض يعاقب مرتكبوه بأشد العـقاب فى الدنيا ثم فى الآخرة : ﴿ أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١).

والفهم الخـاطئ للإسـلام يرجع إما إلى جـهل أصحابه بجـوهر تعاليم الدين كما هو الحال لدى الفـريق الأول، أو خداع الجماهير برفع شعارات دينيـة لتحقيق أغراض دنيوية كما هو الحال لدى الفريق الثانى.

والأمر يحتاج إلى كشف زيف هذه التفسيرات الباطلة فى كلتا الحالتين، وإبراز قيم الإسلام السمحة التى تحض على الرحمة والتراحم والعدل حتى مع الأعداء.

وربما يكون الفريق الأول حسن النية فى مقـابل سوء نية الفريق الثانى. ولكن حسن النيـة قد يؤدى إلى عواقب وخيـمة لا تحمد عقـباها. فالصديـق الجاهل قد يكون أشد خطراً ـ دون أن يدرى ـ من العدو العـاقل، على الأقل لأن العدو يسفر عن عداوته؛ وبالـتالى يمكن أخذ الحـذر منه والاستـعداد لمواجهـته. أمـا الصديق الجاهل المحـسوب على الإسـلام والذى يبدى أشد الحـرص على حمايتـه بأسلوبه المتخلف فإنه بذلك يمثل عقبة فى طريق التـقدم ولا يستطيع أن يفهم ما يدور حوله من تطورات فضلاً عن فهم جوهر الإسلام وروحه بوصفه ديناً حضارياً إنسانياً بكل معنى الكلمة.

وحتى يسـتطيع الإسلام أن يتجـه بخطى ثابتة وحثـيثة نحـو المستقـبل فلا بد لأتبـاعـه من التـخلص من هذا المرض المزدوج وذلك عن طريق الفـهم المسـتنيـر للإسلام وتعاليمه والكشف عن الوجه الحضـارى لهذا الدين الذى تتماشى تعاليمه

---

(١) سورة المائدة : آية ٣٣.

مع كل زمان ومكان وبيـان قدرته على التطور ومواجهة مـتغيرات الحـياة، وقدرته الذاتية فى الصمود أمام كل التحديات. وتاريخ الإسلام شاهد على ذلك.

وإذا اتضح لجماهير المسلمين أن الإسـلام برىء من جهل أصدقائه ومن شذوذ من يدّعون أنهم يقـتلون دفاعاً عنـه فإن ذلك يمهد السـبيل للتغلب على الصـعاب والتحديات الأخـرى الخارجية والتى تتـخذ من الفهم الخاطئ للإسـلام من جانب هذين الفريقين ذريعة لوصم الإسلام بكل الرذائل.

٤- تحديات خارجية :

وإذا كان الأمر كذلك وهو أن التحديات الداخليـة مرتبطة بالتحديات الخارجية فإن علينا أن نبين أهم التحديات الخارجية وسبل التغلب عليها حتى يمكن الانطلاق إلى دخول القرن الحادى والعشرين.

أ) الخوف من الإسلام فى الغرب :

أثناء الحرب الباردة كان الغرب ما يزال فى حـاجة ماسة إلى المعاونة من جانب الإسلام فى صراعه مع الشيوعية، أو لنكن أكثر واقعية ونقول: كان فى حاجة إلى مهادنة الإسلام. فالغرب يعلم علم اليقين أن الإسلام والشيوعية لا يجتمعان. ومن هنا فقد كان من المفيد للغرب أن يتعاون مع الإسلام فى هذا الصدد. ولكن بعد أن انتهت الحرب الباردة وسـقطت الشيوعية بسقوط الاتحاد السـوفيتى السابق فى بداية التسعينات لم يعد الغرب فى حاجة إلى الإسلام فانتهت سياسة التعاون والمهادنة.

لكن الأمـر لم يقف عند هذا الحـد، بل راح الغرب يـبحث عن عـدو بديل للشيوعيـة، ولم يجـد إلا الإسـلام ليكون هـو العدو البديل. إذ يبدو أن الغرب لا يسـتطيع أن يعـيش دون أن يكون له عدو ،فـإذا لم يكن هناك عـدو حـقيـقى فليتصور عدواً. وكان العدو المتصورٌ هو الإسلام.

وانتشرت فى الإعلام الغربى فكرة الخوف من الإسلام أو ما يطلق عليه «إسلاموفوبيا» . ولم يستطع كبار المسئولين فى الغرب أن يخفوا هذا التصور، فورد ذلك على لسان الأمين العام السابق لحلف الأطلنطى، وكان ما يزال فى منصبه المهم، كما ورد على لسان أحد الرؤساء فى الغرب.

وبدأ الحديث فى الغرب عن الأصولية الإسلامية، والإرهاب الإسلامى، والخطر الذى يتهدد الحضارة الغربية من هذا الشر المدمر والذى هو الإسلام فى زعمهم. واختلطت الأوراق وتاهت الحقائق وسط التدفق الإعلامى الغربى فى هذا التيار الجارف.

وقد ساعد على شيوع هذا التصور تزايد موجات العنف فى بعض البلاد الإسلامية. ومن المفارقات الغريبة أن الغرب نفسه بدأ يوفر الملجأ والملاذ وحرية الحركة لرءوس الإرهاب فى العالم الإسلامى.

وهذا التوجه الغربى يعنى عدم السماح بتطوير قدرات العالم الإسلامى العسكرية، بل وحتى الاقتصادية والعلمية رغم ما يغدقه الغرب من إمكانات هائلة على إسرائيل التى زرعها الغرب شوكة فى ظهر العرب لتعوق أى طموحات فى تطوير قدراتهم، وتنمية بلادهم. ويعنى أيضاً عدم السماح للعالم الإسلامى بأى نصيب فى المشاركة فى رسم سياسة العالم عن طريق تمثيل العالم الإسلامى بمقعد دائم فى مجلس الأمن.

وأذكر أننى شاركت عام ١٩٩٣م فى مؤتمر دولى بالعاصمة النمساوية فيينا حول موضوع « **السلام من أجل الإنسانية** » وتقدمت باقتراح يقضى بضرورة أن يكون للعالم الإسلامى ـ الذى يمثل أكثر من خمس سكان العالم ـ مقعد دائم فى مجلس الأمن. وقلت آنذاك : « لكى تتاح الفرصة أمام المسلمين للإسهام بفاعلية فى سلام العالم أقترح أن يحصلوا على مقعد دائم فى مجلس الأمن الدولى ، وينبغى أن يكونوا ممثلين فى هذا المجلس بدولة يختارونها من بين الأعضاء الممثلين فى منظمة المؤتمر الإسلامى . فالمسلمون يؤلفون خُمس سكان العالم. ومن أجل ذلك فإن من حقهم أن يكون لهم صوت مسموع ».

ولكن عز على بعض المشاركين أن يكون للمسلمين مثل هذا الدور فعارضوا الاقتراح بحجة تنم عن مغالطة مكشوفة، إذ زعم البعض أن ذلك يعنى أن يكون هناك أيضاً تمثيل فى مجلس الأمن للفاتيكان ومجلس الكنائس العالمى .... إلخ وأن يصبح المجلس مكوناً من مشايخ وقساوسة، وهذا كلام يعد من قبيل الهزل فى وقت الجد. فالأمر يتعلق بتمشيل شعوب يبلغ تعداد سكانها خمس سكان العالم، ولا علاقة له بتمثيل الدين كدين. وفضلاً عن ذلك فإن الشعوب المسيحية فى أوروبا ممثلة بأربعة من الدول دائمة العضوية فى مجلس الأمن وهى بريطانيا وفرنسا وروسيا والولايات المتحدة الأمريكية.

ب) صراع الحضارات :

ويرتبط بقضية الخوف من الإسلام الترويج فى الغرب لنظرية صراع الحضارات، وأن هذا الصراع أمر حتمى. وبطبيعة الحال يوضع فى الحسبان فى هذا التفكير ـ بالدرجة الأولى ـ صراع الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية. ويستعيد البعض ذكريات الماضى القريب والبعيد لهذا الصراع.

والهدف فى النهاية هو ضرورة هزيمة الحضارة الإسلامية حتى تتمكن حضارة واحدة هى الحضارة الغربية بأن تكون لها اليد الطولى والسيطرة على العالم كله، وتتأكد بصورة قاطعة فكرة العولمة التى سنتحدث عنها فيما بعد. ولعل ذلك كله يشكل مقولة نهاية التاريخ التى يتم الترويج لها أيضاً.

وقد سبق للفيلسوف الألمانى المعروف هيجل ـ الذى توفى عام ١٨٣١م ـ أن أشار فى كتابه المعروف « فلسفة التاريخ » إلى أن الإسلام قد اختفى منذ زمن طويل من أرض التاريخ العالمى ـ أى: لم يعد له تأثير فى توجيه أحداث التاريخ ـ بعد أن ركن إلى الاسترخاء واستسلم إلى السكون الشرقى. وهنا ـ كما يحدث أيضاً فى الكتابات الغربية المعاصرة عن الإسلام ـ يتم الخلط بين الدين الإسلامى وبين الواقع الحضارى المتخلف الذى تعيشه الأمة الإسلامية. وهذا الواقع يمثل مرحلة عارضة فى تاريخ المسلمين، وليس حكماً أبدياً بالجمود والتحجر على خمس سكان العالم.

وحقيقة الأمر أنه إذا كان البعض يتبنى فى الغرب نظرية حتمية صراع الحضارات فإن الإسلام كدين لا يرى ذلك أمراً حتمياً لا مفر منه لأن الصراع القائم بين البشر لا يقتصر على الصراع بين الحضارات ، فهناك أيضًا صراعات تقع بين البشر داخل الحضارة الواحدة، وما أكثر مثل هذه الصراعات فى عالمنا الذى نعيش فيه.

ولكن موقف الإسلام المبدئى الثابت يتلخص فى أن تعددية الأجناس فى المجتمعات البشرية - أو بمعنى آخر تعددية الحضارات واختلافها - لا يجوز أن تكون مدخلاً للنزاع والشقاق، وأن تمثل عائقاً أمام توحيد جهود الناس وتآلفهم فيما بينهم. فالتعددية ينبغى أن تفتح الطريق أمام التعارف والتعاون والتوحد. وهنا تكمن المهمة الإنسانية التى ينبغى على الإنسان حيثما كان موقعه أو معتقده أن يتحمل مسئوليتها. ويشير القرآن الكريم إلى ذلك بقوله :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾[1].

وهنا جعل القرآن الاختلافات بين البشر مدخلاً للتعارف والتآلف والتعاون لا مقدمة للنزاع والشقاق والصراع. فنظرية الصراع الحتمى للحضارات مرفوضة أساساً من الإسلام الذى يقرر أن الناس جميعاً قد خلقوا من نفس واحدة، وأن العدوان على نفس واحدة يعد عدواناً على البشرية كلها وليس على طائفة معينة أو حضارة بعينها. ومن هنا فإن التصور الإسلامى أوسع دائرة وأرحب أفقاً وأعمق فى إنسانيته من تلك التصورات العنصرية التى تسعى إلى إعلاء شأن حضارة ما على غيرها من الحضارات والثقافات.

ج) العولمة :

ومنذ سنوات مضت ظهر الحديث عما يسمى بالنظام العالمى الجديد، وبخاصة بعد انهيار الاتحاد السوفيتى السابق وأصبح الحديث عن « العولمة : Globalization » أمرًا مطروحاً.

---

(١) سورة الحجرات : آية ١٣.

وعلى الرغم من أن ملامح هذا النظام العالمى الجديد أو العولمة لم تتضح بصورة قاطعة فإن الهدف من هذا النظام الجديد أو العولمة - أو الكوكبية أو الكونية كما يحلو للبعض أن يسميه - لم يعد يخفى على أحد. فالمقصود هو أن هناك حضارة غربية قائمة لها قيم ولها معايير معينة، وعلى الجميع فى العالم أن يتواءم معها وأن يعتنق مبادئها ونظمها إذا أراد لنفسه مكاناً فى مسيرة العالم.

وهذا يعنى أن تسود حضارة واحدة بقيمها ومثلها ، وأن يترسخ مفهوم العولمة أو القطب الواحد فى الأذهان. وبذلك يختفى مفهوم التعددية الحضارية المتعارف عليه منذ فجر التاريخ. ومن ثم يصبح الخضوع لنظام العولمة أمراً لا مفر منه، ولا فكاك لأى دولة فى العالم من أن تنضوى تحت لوائه، وإلا فإن الزمن والأحداث سوف تتجاوزها.

ويعد نظام العولمة - بالمفهوم المشار إليه - من التحديات الكبرى التى تواجه العالم الإسلامى فى القرن القادم. فهل يمكن إخضاع الإسلام والمسلمين لهذا النظام حيث تختفى الحواجز الحضارية والثقافية فى العالم الجديد ؟

إن حقائق الدين الإسلامى وطبيعته ووقائع التاريخ تبين أن الإسلام لا يمكن أن يذوب فى أى نظام آخر، فله ذاتيته المستقلة وكيانه الخاص. ولكن هذا التصور الإسلامى لا يتناقض مع أية كيانات أخرى؛ لأن التعددية الدينية والحضارية قد كفلها الإسلام منذ قامت للإسلام دولة، وترسخت فى دستور المدينة الذى أعلنه محمد ﷺ .

وقد كانت الحضارات فى البلاد التى دخلها الإسلام روافد أثرت الحضارة الإسلامية. فالإسلام يعتبر الحضارات إنجازاً إنسانياً، وإضافات للتراث الإنسانى الذى هو بطبيعته أخذ وعطاء. ولا توجد أمة عريقة فى التاريخ إلا وقد أعطت كما أخذت من هذا التراث. وإذا كان الأمر كذلك فإن هدف نظام العولمة يعد مناقضاً لطبيعة الأمور. فلا يمكن أن تذوب السمات الحضارية الأساسية للشعوب وبخاصة الشعوب العريقة التى لها بصمات حضارية لا تمحى فى سجل التاريخ.

والإسلام إذ يقر التعددية الدينية والحضارية فإنه من ناحية أخرى يقر فى الوقت نفسه بأن هناك قواسم مشتركة بين كل الحضارات. وهذه القواسم المشتركة تعد المدخل الحقيقى للتعاون بين الحضارات وليس الصراع فيما بينها. ومن هنا كان تأكيد القرآن الكريم على أن الاختلافات بين الشعوب لا يجوز أن تكون عائقاً أمام التعارف والتآلف والتعاون بين الأمم والحضارات، كما سبقت الإشارة إليه فى الآية الكريمة : ﴿ **وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا** ﴾[1].

ومن ذلك يتضح أن الإسلام سيقف صامداً أمام كل محاولة لتذويبه فى أية حضارة أخرى أو أى نظام عالمى جديد. ولكنه فى الوقت نفسه سيظل دائماً على استعداد لأن يكون شريكاً لأى نظام عالمى يسعى إلى خير الإنسان وتقدمه وازدهاره.

د) التطورات العلمية :

وبالإضافة إلى هذه التحديات المشار إليها هناك تحد آخر يتمثل فى الإنجازات العلمية المتلاحقة على الأرض وفى الفضاء، والتى تسارعت خطاها على نحو مذهل ووصلت الآن قبل استقبال القرن الحادى والعشرين إلى إتمام استنساخ كامل لبعض فصائل الكائنات الحية، ولعل القرن العشرين سيشهد قبل نهايته استنساخ البشر رغم المعارضة القوية لذلك فى كثير من بلاد العالم.

ويعد العلم بصفة عامة سلاح العصر، فمن يملك العلم يملك القوة. ومن يملك القوة يستطيع أن يفرض نفسه فى عالم اليوم. أما الدول التى لا تملك العلم فإنها تقنع بأن تكون تابعة ومستهلكة لمنتجات الآخرين، (وزبوناً دائماً فى «سوبر ماركت» الأقوياء).

فأين موقف الإسلام والمسلمين من ذلك كله؟ وهل استعد المسلمون للمشاركة الجادة فى الجهود العلمية ؟ وهل هناك أمل فى أن يحتل المسلمون مكاناً فى الخريطة المؤثرة للقرن الحادى والعشرين؟

---

(١) سورة الحجرات : آية ١٣.

لا شك أن التوجـهات الفكرية والدينيـة فى أى أمة لها تأثيـراتها البـالغة فى المواقف الحاسـمة التى تتـخذها الأمم والتى تحـدد مصيـرها ومكانها علـى خريطة العالم. وإذا نـظرنا إلى موقف الإسلام مـن العلم وتطوراته ـ وهذا الموقف الدينى ينبغى أن يكون له تأثيـره على توجهات المسلمين ـ فإننا نجـد أن الإسلام ينفرد بين الأديان المختلفة بجعله العلم فريضة من فـرائض الإسلام، لا تقل فى أهميتها عن فرائض الصوم والصلاة والزكاة، لأن العلم هو السـبيل إلى إعمار الكون. وإعمار الكون فى الإسلام يعـد من الأوامر الإلهيـة التى ينبـغى تلبيتـها على المسـتويين المادى والمعنوى ، كما جاء فى القرآن الكريم :

﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾[1]، أى: طلب منكم عمارتها [2].

والإسلام بذلك يساند العلم ويدعم مسيرته. ولا يمكن أن يكون هناك تعارض بين الإسلام وحقائق العلم بأى شكل من الأشكال. ومجال العلم فى الإسلام غير محدود ، فهو يشمل السماء والأرض وما بينهما. فليس هناك قيود ولا سدود فى الإسلام تقف فى طريـق التقدم العلمى مـا دام ذلك فى مصلحـة الإنسان، وهذه المصلحة تحوطهـا القيم الأخلاقية بسيـاج يحميها من سوء الاستـغلال. وكل تقدم علمى هو فى الوقت نفسه دعم للدين من المنظور الإسلامى لأنه يبين قدرة الخالق. ومن أجل ذلك أكد القرآن على أن العلمـاء هم أخشى الناس لله لأنهم أقدر الناس على معرفة أسرار الخلق وجلال الخالق.

وقضية الاستنسـاخ إذا كان فيها مصلحة للإنسان فى مـجال النبات أو الحيوان فلا يستطيع عاقل أن يرفـضها باسم الدين. أما الاستنساخ فى مـجال الإنسان فإنه إذا اقتصـر الأمر على استنساخ أعضـاء معينة تنفع الإنسان وتقضى على كـثير من آلامه حـينما يحتاج إلى عـضو بديل من عضـو انتهت صلاحيـته فليس هناك من جانب الدين ما يمنع من ذلك.

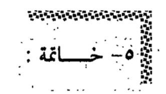
---

(١) سورة هود : آية ٦١.

(٢) يراجع فى ذلك الفصل الأول من هذا الكتاب حول موضوع «مفاتيح الحضارة فى ضوء الأمر الإلهى اقرأ»

أما الاستنساخ الكامل للإنسان فليس هناك اتفاق على أنه يحقق مصلحة واضحة للإنسان، بل العكس هو الصحيح وهو أنه ستترتب عليه مشكلات عديدة على المستويات الدينية والأخلاقية والقانونية والاجتماعية وغيرها.

إن المشكلة ـ إذن ـ ليست بين الإسلام والتطورات العلمية، ولا يمكن أن تشكل هذه التطورات تحدياً للإسلام. إنما المشكلة فى مدى انسجام المسلمين مع تعاليم الإسلام المشار إليها ومدى ملاحقتهم للتطورات العلمية، ومشاركتهم فى البحث العلمى مشاركة جادة يستطيعون من خلالها أن يعبروا إلى القرن الواحد والعشرين فى ثبات وثقة. فلا تنقص المسلمين الإمكانات المادية أو البشرية، وهم ليسوا أقل ذكاء من غيرهم؛ فالله قد أعطى العقل لكل الناس، وكما قال ديكارت: « إن العقل أعدل الأشياء قسمة بين الناس ». فهل يقبل المسلمون التحدى ويتحركون بخطى سريعة نحو آفاق العلم الواسعة ليثبتوا وجودهم وإسهامهم فى مسيرة التقدم العلمى ليكونوا مهيئين وجديرين بالدخول إلى القرن الحادى والعشرين ؟ إن هذا ما سوف تكشف عنه السنوات القادمة.



وقبل أن نختم حديثنا عن الإسلام وتحديات القرن الحادى والعشرين نود أن نشير إلى أن تحديات القرن القادم أو غيرها من تحديات ليست فى حقيقة الأمر تحديات للإسلام كدين، وإنما هى تحديات لأفهام المسلمين. فإذا ارتفعت هذه الأفهام إلى مستوى الأحداث وأدركت مقتضيات العصر فستجد أن الإسلام من أشد أعوانها على التغلب على كل التحديات ؛ فالإسلام دين للحياة بكل معنى الكلمة، وهو صالح فى جوهره لكل زمان ومكان، ومتوائم مع طبيعة الإنسان.

أما إذا قصرت همم المسلمين وأفهامهم عن استيعاب تطورات العصر ومتغيرات الحياة فإنها ستكون أيضاً قاصرة عن فهم طبيعة التعاليم الإسلامية، وغير مدركة لما

تشتمل عليه من مرونة. وهذه الأفهام السقيمة هى التى تجمد الإسلام وتريد أن تشده إلى تخلفها الفكرى وتحجرها العقلى وجمودها الدينى. ومن ثم تكون أخطر على الإسلام من أية تحديات خارجية.

وينبغى على المسلمين أن يدركوا أنهم إذا أرادوا لأنفسهم الحياة فإنه ليس أمامهم - فى القرن الحادى والعشرين - خيار آخر غير خيار العلم والتقدم والحضارة، وأى طريق آخر سيستمر فى جذبهم إلى التخلف والجمود، وينتهى بهم إلى أن تتجاوزهم الأحداث وينساهم التاريخ. فالقضية - إذن - قضية مصير : إما أن يكونوا أو لا يكونوا.

ولكن الأمل معقود على أن رصيد المسلمين الحضارى وتاريخهم المجيد فى مضمار العلم والتقدم سيحفز هممهم ليستعيدوا أمجاد أسلافهم، ويكونوا جديرين بالانتساب إليهم، كما أشار إلى ذلك جمال الدين الأفغانى حينما قال : « إن الشرقيين كلما أرادوا الاعتذار عما هم فيه من الخمول الحاضر قالوا : أفلا ترون كيف كان آباؤنا ؟ نعم ، قد كان آباؤكم رجالاً ، ولكنكم أنتم أولاء كما أنتم. فلا يليق بكم أن تتذكروا مفاخر آبائكم إلا أن تفعلوا فعلهم »[1].



وخلاصة القول أن الإسلام بمبادئه السامية وتعاليمه الواضحة وقوته الذاتية قادر على تلبية متطلبات الحياة المعاصرة ومواجهة التحديات المستقبلية. ولم يكن الإسلام - ولن يكون - سبباً فى تعطيل مسيرة التقدم فى العالم الإسلامى على جميع المستويات.

ومن هنا يمكن القول بأن الإسلام مؤهل - بكل المقاييس - للدخول إلى القرن الحادى والعشرين ، ومؤهل للتعاون باستمرار مع كل القوى المحبة للسلام والتقدم فى العالم من أجل خير الإنسان وسعادته فى كل زمان ومكان.

---

(١) زعماء الإصلاح لأحمد أمين ص ١١٠ ، القاهرة ١٩٧١ م.

الفصل الثالث

الدين
فى مواجهة الإرهاب

ويتضمن هذا الفصل :

أ- دين تعمير لا تخريب.

ب - الاستنارة الدينية والتفكير العلمى.

أ- دين تعمير لا تخريب[1]

١ - شعب مسالم ومتدين :

لقد امتاز شعب مصر منذ آلاف السنين بميزات عديدة ومن أهمها : أنه شعب مسالم يميل إلى السلام والأمن والاستقرار. ويلمس ذلك كل من يزور مصر ويختلط بشعبها.

وقد عبر القرآن الكريم عن هذه الميزة على لسان سيدنا يوسف عليه السلام حينما استقبل أبويه على مشارف مصر قائلاً :

﴿ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾[2].

وفى ظل هذا الأمن والأمان والاستقرار استطاع شعب مصر أن يبنى حضارة قبل أن يعرف العالم الحضارة ومعناها، وقد امتاز هذا الشعب الذى بنى هذه الحضارة بميزة أخرى هى أنه منذ آلاف السنين شعب متدين. وما تركه لنا المصريون القدماء يدل على عمق الدين فى نفوسهم، فكل ما تركوه لنا من آثار يمثل رمزاً للدين بطريق مباشر أو غير مباشر.

وقد استقبل شعب مصر منذ آلاف السنين أنبياء الله، فقد تزوج سيدنا إبراهيم عليه السلام السيدة هاجر المصرية وأنجبت له إسماعيل عليه السلام جد العرب، واستقبلت مصر سيدنا يوسف عليه السلام الذى تولى منصب وزير الخزانة أو وزير التموين بالمعنى المعاصر، وتربى موسى عليه السلام فى أرض مصر، ثم لجأ سيدنا عيسى مع أمه مريم عليهما السلام إلى مصر، وتزوج سيدنا محمد ﷺ من

---

(١) ألقيت هذه الكلمة فى الندوة الدينية التى عقدت عقب صلاة الجمعة بمدينة الغردقة فى ١٩/١٢/١٩٩٧م.

(٢) سورة يوسف : آية ٩٩.

مارية القبطيـة المصرية؛ فالمصريون لهم صلات قديمة بالأنبـياء. وهم أول الشعوب التى عرفت عقيدة التوحيد.

وعندما جاء الإسلام إلى مصر تلاقت طبيعة هذا الشعب المصرى الآمن المسالم المحب للدين مع طبيعة الدين الإسلامى، دين الســلام والأمن والمحبة والاستقرار. وامتزجت هاتان الطبيعتان فى أعماق شعب مصر حتى يومنا هذا.

ومن هنا فإنه إذا حَدَثَ حادث إرهابى غادر مثـلما حدث فى الأقصر فى نهاية عام ١٩٩٧م فإن هذا يُعـد أمراً شاذاً وغريباً عن طبـيعة شعب مصر، وعن طبـيعة الإسلام ذاته الذى يرفض العنف ويرفض القـتل ويرفض التدمير والتـخريب، لأنه دين جاء مؤكداً لمهمة الإنسان فى هذه الحيـاة، وهى مهمة الإعمار والبناء : إعمار الكون كله ـ مادياً ومعنوياً ـ كما جاء ذلك فى القرآن الكريم :

﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [(١)] أى: طلب منكم عمارتها.

والعـمـارة لا تقوم إلا بالـعلم، والعلم فى حاجـة إلى الاستـقرار، وفى ظل الاستقرار تنشأ الحضارات.

وعندما بدأت مصر تبنى حضارتها الحديثة عز ذلك على كثير من أعدائها سواء فى الداخل أو الخارج فأرادوا أن يدمروا منجزات مصر ، وأن يزعزعوا اقتصادها ، وأن يعطلوا مسـيرتها التنموية؛ ولـكن هيهات أن يصلوا إلى ما يريدون ؛ فـشعب مصر الذى عرف الحضارة قبل أن تعرفها الدنيا قادر على أن يسير قدماً محطماً كل العقـبات، ومقتلعـاً جذور الإرهاب حتى يمكن له أن يوصل الحضـاره الجديدة إلى الأجيال القادمة.



(١) سورة هود : آية ٦١.

٢- الحقوق الأساسية للإنسان :

وإذا كان الإرهاب يرفع ـ زوراً وبهتاناً ـ شعارات إسلامية فإن ذلك لا يمكن أن يصدقه عاقل؛ فالإسلام قد حرم العدوان على الآخرين تحريماً قاطعاً فى قوله تعالى:

﴿ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (١) .

وحث على معاملتهم بالبر والعدل ما داموا لم يسيئوا إلى المسلمين ـ كما جاء فى قوله تعالى:

﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (٢) .

وفضلاً عن ذلك فإن الشريعة الإسلامية قد ضمنت لكل فرد حقوقه الأساسية التى تتمثل فى حفظ النفس، وحفظ العقل، وحفظ الدين ، وحفظ المال، وحفظ النسل. وأول هذه الحقوق الأساسية حق الحياة لكل إنسان.

وقد كرم الله الإنسان ـ مطلق إنسان ـ بصرف النظر عن جنسه، أو لونه، أو معتقده. ومن كرمه الله لا يجوز لأحد أياً كان أن يمتهن كرامته.

ولم يكتف الإسلام باحترام الإنسان فى حياته فقط، بل امتد هذا الاحترام للإنسان بعد مماته أيضاً. فقد ورد أن النبى ﷺ كان يجلس مع بعض صحابته حينما مرت بهم جنازة فقام ﷺ واقفاً احتراماً للميت. فقال الصحابة : إنها جنازة يهودى يا رسول الله. فرد ـ عليه السلام ـ بلهجة حاسمة : « **أليست نفساً؟** » (٣) .

---

(١) سورة البقرة : آية ١٩٠ .

(٢) سورة الممتحنة : آية ٨.

(٣) انظر البخارى ـ كتاب الجنائز.

فالإسلام يحترم النفس الإنسانية أياً كانت ما دامت هذه النفس لم تقدم شراً، أو إساءة للإسلام أو للمسلمين.

٣- الأخوة والتعاون :

وقد أراد الإسلام أن يرسخ فى أذهان الناس جميعاً معانى وقيماً تحملهم على البناء والتعمير، ليساعدهم بذلك على أداء مهمتهم فى هذه الحياة. وهذه المعانى والقيم تتمثل فى أمور عديدة نكتفى بإيراد معنيين منها، وهما الأخوة والتعاون.

أما الأخوة فقد حض عليها الإسلام وحرص عليها. وقد كان أول عمل قام به النبى ﷺ بعد هجرته إلى المدينة هو المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار. والواقع أن هناك أنواعاً متعددة من الأخوة : أخوة نسب، وأخوة فى العقيدة، وأخوة فى الإنسانية. ولكن الذى يتأمل فى أخوة النسب وأخوة العقيدة يجد أنهما يرجعان فى نهاية الأمر إلى الأخوة فى الإنسانية؛ فالله سبحانه وتعالى قد خلق الناس جميعاً من نفس واحدة ـ كما يقول القرآن الكريم ـ :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [1] ؛ فكلنا ننتسب إلى أصل واحد: « كلكم لآدم وآدم من تراب » .

وإذا كان الأمر كذلك فنحن جزء من كل، كل فرد منا جزء من كل. ومن أجل ذلك فإن أى إساءة تلحق بأى فرد من أفراد الإنسان تعد إساءة لكل الأفراد الآخرين، لأن الجسم الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى. وهذا أمر نعرفه جميعًا؛ ومن هنا فإن أى إساءة أو عدوان على أى فرد من أفراد الإنسانية يعد عدواناً على الإنسانية كلها. وفى ذلك يقول القرآن الكريم:

---

(١) سورة النساء : آية ١.

﴿مَن قَتَلَ نَفسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [1] .

وعندما نتأمل الآية الكريمة : .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ﴾[2] .

وننظر فى هذه العبارة القرآنية ﴿ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ ﴾[3] ، والسياق هنا يدل على أن هذه الإساءة للآخرين، نجد هنا درساً عظيماً يعلمنا أن إساءتنا للآخرين هى فى نفس الوقت إساءة إلينا أيضاً، فنحن جزء من كل لا يجوز لأى فرد فينا أن يسىء إلى الآخرين لأنه بذلك يسىء إلى نفسه أيضاً.

أما المعنى الثانى وهو التعاون فإنه يعد عصب الحياة؛ وعلى أساسه يتبادل الناس المنافع ويتعاونون فيما بينهم من أجل قيام مصالح الدين والدنيا معاً. وقد حض الإسلام على التعاون فى الخير ونهى عن التعاون فى الشر ـ كما جاء فى القرآن الكريم ـ :

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[4] .

وبهذا التعاون على البر والتقوى يستطيع الناس أن يبنوا وأن يعمروا : يبنوا السلام، ويصنعوا الحضارة. والحضارة أخلاق وقيم ومبادئ ومثل عليا كريمة يحض عليها الإسلام. وهذه الحضارة هى نتاج علم ونتاج عمل. والمسلمون مطالبون دائماً بالعلم وبالعمل حتى يعمروا ولا يخربوا.

---

(١) سورة المائدة : آية ٣٢.

(٢) ، (٣) سورة الحجرات : آية ١١.

(٤) سورة المائدة : آية ٢.

٤- خــــاتمة :

هذه هى مبادئ الإسلام الواضحة كل الوضوح والتى لا تحتاج إلى إعمال فكر حتى يستطيع الإنســان أن يدركها. قيم عليا : محـبة وتراحم وسلام وأمن وأخوة وتعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان.

أما تلـك الفئـة الباغـية التـى اخـتارت طريـق القـتـل والتدمير والتخريب فإنه لا يشك عاقل فى أن ما تقـترفه من إثم وبغى وعدوان يعتبـر جرائم ضد الدين ، وضد إرادة الله، وضد الأخلاق ، وضد الإنسانيـة، وضد كل القيم النبيلة، وضد كل شىء جميل فى حياتنا. والفـرق بين الطريقين واضح وضوح الشمس، فهؤلاء الذين استحلوا القتل والتدمير والتخريـب قد اختاروا لأنفسهم سبيل الشيطان الذى أغواهم وأعـمى أبصارهم وبـصائرهم،فراحـوا يدمرون ويقـتلون ويسفـكون دماء الأبرياء بلا تمييز بين صغـير وكبير وطفل وامرأة. أما الإسلام فـهو سبيل الله الذى وصفه فى القرآن الكريم بقوله :

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾[١].

والمسلمون يتجهون إلى ربهم فى صلواتهم الخمس اليومية بالدعاء قائلين:

﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧) ﴾[٢].

ومن ذلك يتضح أن ما يرفـعه المخربون من شعـارات زائفة لا يمكن أن يخدع أحداً؛ فـباطلهم ظـاهر لكل ذى عينين. وواجـبنا أن نحمى وطننا من شـرور هذه

---

(١) سورة الأنعام : آية ١٥٣.

(٢) فاتحة الكتاب : الآيتان ٦، ٧.

الفئة الضالة المضلة حتى تتفرغ البلاد للبناء والتعمير، وتجنى ثمار التنمية الشاملة التى تشهدها مصرنا العزيزة، وينعم المواطنون بالأمن والأمان والاستقرار. فالأمر جد لا هزل، إنه يتعلق بمصير أمة ومستقبل شعب ، ولا يجوز لنا أن نفرط فى مستقبل أمتنا، ومستقبل أولادنا، ومستقبل بلادنا. إنه قدرنا وعلينا أن نستجيب لنداء الواجب حماية للدين والوطن.



ب ـ الاستنارة الدينية والتفكير العلمى

١- تمهـــيـــد :

عندمـا نتـحدث فـى هذا الفصل الـذى يحمل عنـوان (الدين فى مـواجهـة الإرهاب) عن الاستنـارة الدينية والتفكيـر العلمى فنحن بذلك لا نبـعد كثـيراً عن جوهر موضوع هذا الفصل. فالإرهاب فى العادة يعتمد على فكر خاطئ ـ هذا إذا كان لـديه فكر أصلاً ـ ومن هنا فـإن إبراز الأفكار الإيجابيـة ـ بإلقاء الضـوء على موضوع الاستنارة الدينية والتفكير العلمى ـ فيه أبلغ رد ـ بطريق غير مباشر ـ على الأفكار الخاطئة والمفاهيم المغلوطة التى يروج لها المتطـرفون. فالتطرف يعتمد على إغلاق منافذ التفكير السليم لدى ضحاياه.

ونحن نريد هنا أن نفـتح هذه المنافذ على مصـراعيهـا لتطرد بإشعاعـها ظلام التطرف وتكشف بالـتالى عن الوجـه القـبـيح للإرهـاب. وفى ذلــك دعـوة إلى التفكير السليم. والإنسان الذى يستخـدم عـقله لا يستطيع فكر متطرف أن يخدعه أو يؤثر فيــه. وفى هذا الإطار نتناول بالبحث موضـوع الاستنارة الدينية والتـفكير العلمى.

من المعلـوم أن الطبيعـة الإنسانية طبيعـة مركبة، وهناك حاجات إنسانية فطرية لا بد من إشباعها تتعلق بالجسم والعقل والروح والوجدان. والشخصية السوية هى تلك التى يتم فيهـا التوازن فى تلبية مـتطلبات هذه الجوانب الأساسيـة. فإذا اختل هذا التوازن اختلت الشخصية الإنسانية.

وإذا كان الجسم فى حاجة إلى الغذاء فـإن غذاء العقل هو المعرفة وغذاء الروح هو الدين. وإذا كان الجسـم لا يستغـنى عن الغـذاء فإن الإنسان ـ بوصفه إنسانًا ـ لا يستغنى عن العقل والمعارف والعلوم، كما لا يستغنى عن الدين والسمو الروحى والقيم والمثاليات.

ومن هنا فإننا حين نتحدث عن الدين والعلم فنحن لسنا أمام خيارين إما الدين وإما العلم، وإنما نحن ـ كبشر ـ فى حاجة إليهما معاً. ويخدع الإنسان نفسه أحياناً حين يظن أنه يستطيع الاستغناء عن الدين. والواقع أنه عندما يفعل ذلك نجده يبحث لنفسه عن شيء آخر ـ يكون عوضاً عن الدين ـ يجعل منه معبوده البديل. وتاريخ البشرية القديم والحديث حافل بالأمثلة العديدة فى هذا الصدد.

٢- الاستنارة الدينية :

وإذا كان الأمر كذلك وهو أننا فى حاجة إلى الدين والعلم معاً فما المقصود ـ إذن ـ بالاستنارة الدينية؟ هل تعنى شيئاً آخر زائدًا على الدين ؟.

إن مصطلح الاستنارة والتنوير وما يتصل بهما يرجع فى العربية إلى أصل واحد هو النور. ومن المعروف أن العقل الإنسانى يعد نوراً لأنه يبدد ظلمات الجهل أمام الإنسان ، وينير له طريقه بالعلم والمعرفة ؛ ومن هنا وصفه حجة الإسلام الغزالى بأنه « **أنموذج من نور الله** ».

فمصطلح الاستنارة ـ إذن ـ يعنى ضرورة إعمال العقل والتمسك به والرجوع إليه، وتمكينه من أداء دوره كاملاً فى الحياة.

فإذا وصفنا الاستنارة بأنها دينية فمعنى ذلك أن نعمل العقل فى فهمنا للدين، وأن نقرأ الدين فى ضوء مقررات العقل السليم. وإذا كان الأمر كذلك فإن السؤال الذى يفرض نفسه هو : هل يتناقض الدين حقاً مع مفهوم الاستنارة الدينية بالمعنى الذى أشرنا إليه ؟.

إن الإجابة عن هذا السؤال ـ من وجهة النظر الإسلامية ـ هى النفى القاطع لوجود مثل هذا التناقض لسبب بسيط وهو أنه لا يمكن أن يكون هناك تناقض بين الدين والعقل فى الإسلام.

وقد أكد الشيخ محمد عبده على ذلك حين أشار إلى أن الدين إذا جاء بشيء يعلو على الفهم فلا يمكن أن يأتى بما يستحيل عند العقل، كما قرر أيضاً أن **«العقل يجب أن يحكم كما يحكم الدين. فالدين عُرِفَ بالعقل، ولا بد من اجتهاد يعتمد على الدين والعقل معاً حتى نستطيع أن نواجه المسائل الجديدة فى المدنية الجديدة»**.

وقد سبق أن عبر فلاسفة المسلمين عن الصلة الحميمة بين الدين والعقل بما لا يدع مجالاً لأى تناقض بينهما. وفى ذلك يقول حجة الإسلام الغزالى ـ المتوفى عام ١١١١م ـ : **« العقل كالأساس والشرع كالبناء، ولن يغنى أساس ما لم يكن بناء، ولن يثبت بناء ما لم يكن أساس. فالشرع عقل من خارج والعقل شرع من داخل، وهما متعاضدان بل متحدان »**.

ومن هذا المنطلق يقرر أنه إذا دل نظر العقل ودليله على بطلان ظاهر النص الدينى وجب تأويل النص بما يتفق مع العقل. ورأى ابن رشد فى هذا الصدد لا يخرج عن هذا الإطار.

ولتقريب الأمر إلى الأذهان حتى لا نظل فى عالم التجريدات نضرب مثالاً واحداً على ما نقول؛ فالقرآن الكريم عندما يقول: **﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾** [1] فإن العقل لا يتصور أن يكون لله يد. وهنا يلجأ العلماء إلى تفسير اليد بالقوة مثلاً. وهذا التفسير يفرضه العقل تأويلاً لظاهر النص.

وإذا كان الدين لا يتعارض مع العقل فإن الاستنارة الدينية ـ إذن ـ أمر مطلوب وضرورى لأنها تعنى استبعاد التفسيرات الخرافية واللاعقلية فى فهم الدين وظواهر الكون، ورفض كل ما يتعارض مع مقررات العقل السليم.

وكمثال على هذا الرفض نشير هنا إلى موقف حاسم فى هذا الصدد من مواقف النبى ﷺ : فعندما مات ابنه إبراهيم حزن عليه حزناً شديداً. وقد

---

(١) سورة الفتح : آية ١٠.

تصادف أن كسفت الشمس فى ذلك اليوم، فقال الصحابة ـ بحسن نية ـ: لقد كسفت الشمس مشاركة فى الحزن على موت إبراهيم. فرد النبى ﷺ عليهم قائلاً : « إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد من الناس ولكنهما آيتان من آيات الله » [1].

٣- التفكير العلمى :

وهذا المثال يوصلنا إلى الشق الثانى فى موضوعنا هنا وهو التفكير العلمى. فالرد النبوى ـ الذى أشرنا إليه ـ يشتمل على توجيه مهم فى هذا الصدد، وهو ضرورة إرجاع الأمور إلى أسبابها الحقيقية وليس المتوهمة. وهذا يتضمن رفضاً قاطعاً لكل تفكير غير علمي وغير عقلي. والتفكير ـ كما هو معروف ـ من وظائف العقل الإنسانى. فإذا وصفنا هذا التفكير بأنه تفكير علمى فإن هذا يعنى أنه تفكير جاد ومنظم يسير وفق منهج محدد ويهدف إلى غاية محددة وهى العلم والمعرفة.

وقد حث الإسلام على التفكير، وذلك عن طريق الاستخدام الأمثل للعقل البشرى، بل ذهب الإسلام إلى أبعد من ذلك بأن جعل العقل الإنسانى مسئولية سوف يُسأل عنها الإنسان يوم القيامة، كما يقول القرآن الكريم :

﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾ [2] .

كما جعل الإسلام عدم استخدام العقل ذنباً من الذنوب ينزل بالإنسان إلى مرتبة أقل من مرتبة الحيوان ، ويعبر القرآن عن ذلك بقوله :

﴿ أُولَٰئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ [3].

(١) رواه البخارى.

(٢) سورة الإسراء : آية ٣٦.

(٣) سورة الأعراف : آية ١٧٩.

﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ⑩ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ ﴾[1] .

وإذا كان ابن رشد فى السابق قد صور العلاقة بين الحكمة والدين بقوله : «الحكمة صاحبة الشريعة والأخت الرضيعة، وهما المصطحبتان بالطبع المتحابتان بالجوهر والغريزة » فإننا نستطيع اليوم أن نقول : إن الاستنارة الدينية هى السند المكين والنصير الحميم للتفكير العلمى .

ومن المعروف أن ابن رشد كان قاضى القضاة فى الأندلس، وفى الوقت نفسه كان فيلسوفاً عظيماً وطبيباً ماهراً؛ ويُعد ذلك من أبرز الأمثلة على مدى وثوق الصلة بين الاستنارة الدينية والتفكير العلمى فى شخص ابن رشد. وهناك العديد من النماذج المضيئة فى هذا الصدد فى تاريخ الحضارة الإسلامية.

فلا يوجد ـ إذن ـ تناقض بين الفهم العقلى للدين أو ما يسمى بالاستنارة الدينية وبين التفكير العلمى، ولا تصادم بينهما ، ولا يجوز أن يكون هناك مثل هذا التناقض على الإطلاق.

ويصف الغزالى حال من يعتقد أن هناك تناقضاً بين العلوم الدينية والعلوم العقلية بأن ذلك يعد « عمى فى عين البصيرة ».

فالدين من الله والعلم من الله أيضاً. إنه السلاح الذى أعطاه الله للإنسان قبل أن يهبط إلى الأرض ليتغلب به على كل ما يصادفه من عقبات. وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم فى قوله :

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ [2].

كما أن الدين الإسلامى كان أيضاً منذ البداية مؤسساً على هذا الجانب العلمى، كما يتضح ذلك من الآيات الأولى من الوحى الإلهى على محمد ﷺ :

---

(١) سورة الملك : الآيتان ١٠، ١١.

(٢) سورة البقرة : آية ٣١.

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤ ﴾ [1].

وطلب القراءة هنا طلب مزدوج يشمل قراءة الكتاب المسطور الموحى به وهو القرآن الكريم، وقراءة الكون المفتوح. وهذا جانب يقتضى العلم والدراسة والبحث والتنقيب لكى يكتشف الإنسان القوانين التى تحكم هذا الكون من أجل تحقيق الخير لكل البشر.

٤- خاتمة :

وبعد أن اتضحت لنا الصلة الوثيقة بين الاستنارة الدينية والتفكير العلمى يتحتم علينا أن نجيب عن السؤال التالى : ما الذى يمكن أن نستفيده اليوم من طرح هذا الموضوع؟ وما أهميته فى حياتنا المعاصرة؟.

إننا فى واقع الأمر فى أشد الحاجة إلى إدراك هذه المفاهيم إدراكاً جيداً والإحاطة بما تشتمل عليه من معان لكى نستطيع مواجهة التيارات الجامدة والمتطرفة على السواء، نواجهها بالفهم العقلى والإدراك الواعى للدين من جانب، وبضرورة التفكير العلمى السليم من جانب آخر.

وبهذين الجناحين نستطيع لا أن نسابق الآخرين عدواً، بل أن نطير بهما محلقين فى آفاق التقدم.

ونود أن نؤكد مرة أخرى على أن التقدم الحضارى والسباق فى ميدان العلم يُعد فريضة دينية. فالإنسان قد كلفه الله بعمارة الأرض، وهذا أمر لا يتأتى إلا بالعلم. ومعلوم أن العلم فى الإسلام فريضة لا تقل عن فريضة الصوم والزكاة والحج.

---

(١) سورة العلق : الآيات ١ - ٥.

والجمود الدينى - وهو نقيض الاستنارة الدينية - لا يتفق مع التفكير العلمى، ويتجه دائماً إلى التفكير اللاعقلى. وكلا الأمرين - الجمود الدينى ، والتفكير اللاعقلى - من شأنهما أن يشدا المجتمع إلى الوراء ويعطلا نموه وتقدمه، فهما يكرهان التقدم وينفران من كل جديد. وهذا ما لا يقره دين صحيح ولا عقل سليم.

ومن هنا تأتى أهمية التوعية الدينية المؤسسة على مقررات العقل السليم، والتوعية العلمية المبنية على المناهج العلمية الصحيحة، حتى يتبين للجميع أنه ليس هناك أساس للخصومة المصطنعة بين الدين والعلم. فهذه الخصومة ليست فى صالح الدين ولا فى صالح العلم ولا فى صالح المجتمع. وعلينا أن نربى أبناءنا وبناتنا على هذه الأسس التى تهيئهم للإسهام الجاد فى بناء المجتمع وتقدمه وازدهاره، وفى الوقت نفسه تعصمهم من الانحراف والتطرف أو الجمود والانغلاق.

وخير ما أختم به هذه الكلمة الموجزة آية قرآنية كريمة تبين أن مجال التفكير العلمى فى الإسلام يشمل الأرض والسماء وما بينهما .. تقول هذه الآية:

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1]. صدق الله العظيم.



(١) سورة الجاثية : آية ١٣.

الباب الثانى

دراسات فى ضوء القرآن والسنة

ويتضمن هذا الباب الفصول الآتية :

الفصل الأول

مفهوم وحدة الأمة الإسلامية

ويتضمن هذا الفصل:

القسم الأول « مقدمات عامة »:

١ ـ مفهوم الأمة الواحدة فى القرآن الكريم .

٢ ـ منشأ الاختلاف فى الأمة الواحدة .

٣ ـ الوحدة والخصائص المميزة .

٤ ـ الوحدة الكمية والوحدة النوعية .

القسم الثانى « الأبعاد المختلفة لوحدة الأمة الإسلامية »:

١ ـ البعد الدينى . ٢ ـ البعد الإنسانى . ٣ ـ البعد الاجتماعى .

٤ ـ البعد الجغرافى . ٥ ـ البعد الحضارى . ٦ ـ البعد المصيرى .

المخاطر التى تهدد وحدة الأمة الإسلامية:

١ ـ الفرقة والتنازع . ٢ ـ موالاة الأعداء .

خاتمة: واقع الأمة الإسلامية وآفاق المستقبل.

ينقسم بحثنا[1] حول « مفهوم وحدة الأمة الإسلامية من خلال القرآن والسنة » إلى قسمين، نتحدث فى القسم الأول منهما عن بعض النقاط التمهيدية والمقدمات العامة التى نمهد بها للقسم الثانى الذى نتناول فيه الأبعاد المختلفة لوحدة الأمة الإسلامية من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية، ثم نختم حديثنا بالإشارة إلى بعض المخاطر التى تهدد وحدة الأمة الإسلامية ، ونتناول فى هذا الصدد أيضاً واقع الأمة الإسلامية وآفاق المستقبل .

القسم الأول : مقدمات عامة

١ ـ مفهوم الأمة الواحدة فى القرآن :

إذا بحثنا عن كلمة « وحدة » فى المعاجم فسنجد أن الوحدة (بفتح الواو) تعنى الانفراد ، تقول: رأيته وحده، أى: منفرداً، ووحده توحيداً: جعله واحداً، ورجل متوحد أى: منفرد، ولابن باجة الفيلسوف كتاب بعنوان « تدبير المتوحد ». والتوحيد: الإيمان بالله وحده، والمسلمون موحدون لأنهم أفردوا الله بالعبادة دون غيره، وتوحَّد الله إنساناً بعصمته أى: عصمه ولم يكله إلى غيره [2].

والملاحظ أن كلمة الوحدة مضافة إلى الأمة ـ أى: وحدة الأمة ـ لم ترد فى القرآن الكريم، ولكن ورد وصف الأمة بأنها أمة واحدة. فالتركيز فى القرآن قد جاء ـ إذن ـ على مفهوم الأمة التى توصف بأنها أمة واحدة وليس على مفهوم الوحدة التى تضاف إلى الأمة. وهذا يعنى أن الأمة الواحدة هى الأصل،أما مسألة

---

(١) قدم هذا البحث إلى ملتقى الفكر الإسلامى الثانى والعشرين الذى عقد بالجزائر فى الفترة من : « ٣٠ / ٨ ـ ٥ / ٩ / ١٩٨٨م » .

(٢) راجع القاموس المحيط ومختار الصحاح .

توحيد الأمة ووحدتها فقد كانت متأخرة في الزمان بعد أن طرأ الاختلاف على الأمة مما استدعى القيام بجهود كبيرة لإعادتها إلى أصل نشأتها عن طريق الرسالات السماوية المتعاقبة.

فنحن نقرأ فى القرآن الكريم وصف الأمة بأنها واحدة فى موضعين : فى سورة الأنبياء (آية ٩٢) يقول الله تعالى :

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ .

وفى سورة المؤمنون (آية ٥٢) :

﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ .

وباستعراض كتب التفسير نجد أن السياق الذى وردت فيه هاتان الآيتان يدل على أن المراد بالأمة الواحدة أمة الأنبياء، فهى «أمة واحدة تدين بعقيدة واحدة وتنهج نهجاً واحداً هو الاتجاه إلى الله دون سواه، أمة واحدة فى الأرض، ورب واحد فى السماء لا إله غيره ولا معبود إلا إياه، أمة واحدة وفق سنة واحدة تشهد بالإرادة الواحدة فى الأرض والسماء» [1].

ويرى بعض المفسرين أن الإشارة بالأمة الواحدة فى سورة الأنبياء تنصرف إلى الأمة المحمدية، فهى ملتكم التى يجب أن تتمسكوا بها ولا تنحرفوا عنها .. هى ملة واحدة كما عرفتم من الأمم مع أنبيائهم، أى: ملة واحدة غير مختلفة فى الأصول والعقائد [2].

ويقول الزمخشرى فى تفسيره « الكشاف » : إن الأمة بمعنى الملة، والإشارة هنا بالأمة الواحدة فى هاتين الآيتين إلى ملة الإسلام. والمعنى : « إن ملة الإسلام هى ملتكم التى يجب أن تكونوا عليها لا تنحرفون عنها، يشار إليها بأنها ملة واحدة غير مختلفة » [3].

---

(١) فى ظلال القرآن لسيد قطب، طبعة دار الشروق مجلد ٤ ص ٢٣٩٥ وما بعدها ، وكذلك ص ٢٤٦٩.

(٢) راجع : التفسير الواضح للشيخ محمد محمود حجازى ج ١٧ ص ٣٤.

(٣) راجع : تفسير الكشاف للزمخشرى ص ١٠٥ ج ٣.

ولعل هذا التفسير يلتقى أيضاً مع تلك الدعوة التى دعا بها إبراهيم وإسماعيل ربهما وهما يرفعان القواعد من البيت الحرام :

﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [1].

وفى تفسير الفخر الرازى لآية سورة (المؤمنون) : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ ، يرد على اعتراض قد يرد على الأذهان يقول : كيف يكون دين الأنبياء واحداً (المعبر عنه هنا بالأمة الواحدة) مع أن شرائعهم مختلفة ؟

ويقول الفخر الرازى فى رده على هذا الاعتراض : « إن المراد من الدين ما لا يختلفون فيه من معرفة ذات الله تعالى وصفاته. وأما الشرائع فإن الاختلاف فيها لا يسمى اختلافاً فى الدين، فكما يقال فى الحائض والطاهر من النساء أن دينهن واحد وإن افترق تكليفهما فكذا هنا.

ويدل على ذلك قوله: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ فكأنه نبه بذلك على أن دين الجميع واحد فيما يتصل بمعرفة الله تعالى واتقاء معاصيه، فلا مدخل للشرائع وإن اختلفت فى ذلك » [2].

ومن ذلك يتضح أن الوحدة هنا تعنى وحدة المقاصد والغايات ولا يلزم بالضرورة أن تكون وحدة فى الشرائع أو الوسائل. ومما يدل أيضاً على التأكيد على وحدة الدين بصرف النظر عن اختلاف الشرائع قوله تعالى فى سورة الشورى (آية ١٣)":

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ .

---

(١) سورة البقرة : آية ١٢٨.

(٢) التفسير الكبير للفخر الرازى - مجلد ١٢ ج ٢٣ ص ١٠٥ - دار الفكر.

وذلك بجانب قوله تعالى فى آية أخرى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾[1].

٢ ـ منشأ الاختلاف فى الأمة الواحدة :

وإذا كانت هذه الآيات التى تتحدث عن وحدة الأمة فى الدين الذى جاءت به الرسل جميعاً فإن هناك أسباباً ذكرها القرآن الكريم للاختلاف فى داخل هذه الأمة الواحدة يتجاوز الاختلاف فى الشرائع، وهناك مفاهيم أخرى للأمة تتسع أو تضيق على حسب الأحوال. فالراغب الأصفهانى مثلاً يقول فى تعريفه للأمة: «الأمة كل جماعة يجمعهم أمر ما : إما دين واحد أو زمان واحد أو مكان واحد سواء أكان ذلك الأمر الجامع تسخيراً أم اختياراً »[2].

وقد كان الناس فى الأصل أمة واحدة على الحق ثم اختلفوا بسبب الحسد والبغى بدءًا من قتل قابيل لأخيه هابيل، والأمر ذاته ينطبق على من بقى فى السفينة بعد الطوفان، إذ كانوا جميعاً على الحق والدين الصحيح ثم اختلفوا بعد ذلك، ويدل على هذا قول الله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ﴾[3] .

وقوله تعالى :

﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾[4] .

أى: بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين بعد أن حدث الاختلاف كما تنص على ذلك الآية الأولى.

ولكن هذا الاختلاف بين البشر الذى نشأ بسبب الانحراف عن الدين ليس أمراً

---

(١) سورة المائدة : آية ٤٨ .

(٢) نقلاً عن أحمد محمد شاكر فى تعليقه على مادة «أمة» فى دائرة المعارف الإسلامية.

(٣) سورة يونس : آية ١٩ .

(٤) سورة البقرة : آية ٢١٣.

خارجاً عن المشيئة الإلهية، وإنما هو أمر يتفق مع سنة الله فى خلقه، فالله سبحانه كان يستطيع - لو شاء - أن يجعل الناس جميعاً أمة واحدة إلى قيام الساعة، ولكنه سبحانه أراد أن يختبر خلقه ليميز الخبيث من الطيب، وذلك مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ ولَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً ولَكِن لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾[1] .

وقوله تعالى :

﴿ ولَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ولَكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ ويَهْدِي مَن يَشَاءُ ولَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [2] .

فهو سبحانه يضل من يشاء ممن رأى فى سابق علمه أنه لو تُرك ونفسه لما فعل إلا الضلال والبهتان، ويهدى من يشاء ممن اطلع عليه فى سابق الأزل فرآه يميل إلى الخير ولو تُرك وشأنه لما فعل إلا الخير [3].

وهناك آيات أخرى فى نفس المعنى فى سورة هود (آية ١١٨) وفى سورة الشورى (آية ٨).

٣- الوحدة والخصائص المميزة :

وبعد هذا التمهيد الذى طال بعض الشىء نستطيع أن نتبين من خلاله فيما يخص الأمة الإسلامية بالمعنى التاريخى أن وحدة الأمة الإسلامية لا ينبغى أن يفهم منها نفى الخصائص المميزة لكل شعب من شعوب الأمة الإسلامية داخل هذه الوحدة. فالوحدة هى الإطار العام تنفى التناقض ولكنها لا تنفى الاختلاف فيما هو خارج نطاق الأصول العامة.

---

(١) سورة المائدة : آية ٤٨.

(٢) سورة النحل : آية ٩٣.

(٣) التفسير الواضح : ج ١٤ ص ٦٥، انظر أيضاً ج ١٢ ص ٦٠، ج ٢٥ ص ١١.

فوحدة الأسرة ليس معناها إذابة كل الفروق النفسية والعقلية بين أعضائها فكل ميسر لما خلق له. ووحدة المجتمع لا تعنى القضاء على اختلاف وجهات النظر فيما هو محل اجتهاد ولا تعنى طمس معالم ذاتية الأفراد واعتبارهم أدوات صماء أو نسخاً مكررة، فتلك وحدة لا يمكن أن تبنى مجتمعاً متماسكاً.

والشيء نفسه ينطبق على وحدة الأمة الإسلامية بصفة عامة، إذ ليس معنى هذه الوحدة طمس الخصائص التى تتميز بها شعوب الأمة الإسلامية وجعلها بلا لون؛ فقد خلق الله الناس شعوباً وقبائل لتتعارف وتتآلف لا لتذوب خصائصها كلية، وإلا لم يكن هناك داع فى الأساس لجعلهم شعوباً وقبائل.

وكمثال بسيط يعبر عن احترام الإسلام لما تتميز به كل طائفة أو قوم من خصائص ما دامت لا تتناقض مع مقررات الدين:

مما رواه الإمام البخارى عن عائشة رضى الله عنها: **«أنها زفّت جارية يتيمة كانت فى حجرها لرجل من الأنصار، فدخل رسول الله ولم يسمع الغناء. فقال: يا عائشة ألا بعثت معها من يغنى فإن الأنصار قوم يحبون الغناء أو يحبون الغزل. فلو بعثتم معها من يقول:**

أتيناكم أتيناكم فحيونا نحييكم

فلولا الذهب الأحمر ما حلّت بواديكم

ولولا الحنطة السمراء ما سمنت عذاريكم»[1].

فوحدة الأمة الإسلامية لا تصادم أية خصائص يتميز بها كل شعب من شعوب الأمة الإسلامية ما دامت فى الإطار المشروع، وما دام الجميع ملتزمين بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

ويؤكد جمال الدين الأفغانى على هذه النقطة قائلاً:

« لا ألتمس بقولى هذا ـ فى الدعوة إلى وحدة الأمة الإسلامية ـ أن يكون مالك الأمر فى الجميع شخصاً واحداً، فإن هذا ربما كان عسيراً، ولكنى أرجو أن

(١) رواه البخارى، وابن ماجه، والحاكم فى المستدرك.

يكون سلطان جميعهم القرآن ووجهة وحدتهم الدين، وكل ذى ملك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع فإن حياته بحياته وبقاءه ببقائه» [1].

٤ - الوحدة الكمية والوحدة النوعية :

والإسلام عندما يتحدث عن وحدة الأمة الإسلامية ويحث عليها ويدفع المؤمنين دفعاً إليها فإنه لا يركز بأية حال من الأحوال على مجرد الكثرة العددية. فالوحدة الكمية لا يمكن أن تكون هى الأساس المتين لبناء الأمة وقوتها.

فإذا انبنت مثل هذه الوحدة على أساس من الكثرة العددية فقط فسيكون البناء بناء هشاً لا قيمة له ولا قوام، وهذا ما يمكن أن نطلق عليه - بمصطلحات العصر - أنه وحدة شعارات خالية من المضمون.

وينطبق على مثل هذه الوحدة الهشة - التى تعد جسداً بلا روح - ما عبر عنه النبى ﷺ بغثاء السيل. فقد روى أبو دواد فى سننه والإمام أحمد فى مسنده أن رسول الله ﷺ قال :

« يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ ؟ قال : بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن الله فى قلوبكم الوهن. فقال قائل : يا رسول الله وما الوهن ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت » [2].

وعندما نظر المسلمون فى غزوة حنين إلى كثرة عددهم وأصابهم شىء من الغرور وقالوا: لن نُغلب اليوم عن قلة؛ دارت عليهم الدائرة، وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا

---

(١) د. محمد البهى : الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ص ٧٩ نقلاً عن مجموعة العروة الوثقى ص ١٩٣.

(٢) سنن أبى داود ، كتاب الملاحم ٥ / ج ٤ ص ٤٨٣ (طبعة اسطنبول للكتب الستة ، مجلد ١٠).

رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [(١)].

ومن أجل ذلك يركز الإسلام على الوحدة النوعية؛ فالنوعية المؤمنة القليلة العدد تستطيع - بوحدتها وتماسكها وقوة إيمانها وثقتها بنصر الله - أن تتغلب على الكثرة الكاثرة الخاوية من الإيمان.

وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [(٢)].

فبناء وحدة الأمة لا بد أن يقوم على أسس راسخة حتى يكون بناء متيناً شامخاً ولا بد أن تكون عناصر هذا البناء قوية متينة.

ومن هنا نجد النبى ﷺ يؤكد على أن المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وأن « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » [(٣)].



(١) سورة التوبة : آية ٢٥.

(٢) سورة البقرة : آية ٢٤٩.

(٣) رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى.

القسم الثانى : الأبعاد المختلفة لوحدة الأمة الإسلامية

١- البعد الدينى :

يمثل البعد الدينى أهم عناصر وحدة الأمة الإسلامية، فالدين هو الركيزة الأساسية التى تنبنى عليها بقية العناصر. فوحدة الأمة الإسلامية تمثل بناء متكاملاً له أساس ثابت فى الأرض هو الذى يحمل البناء كله، أو هى كالشجرة لها جذور ضاربة فى الأرض وبدونها لا يكون للشجرة كيان ولا حتى وجود، ومن هذه الجذور يمتد الساق والفروع والأغصان.

ويتمثل البعد الدينى فى العقيدة الواحدة بإله واحد ونبى واحد وكتاب واحد وعبادة واحدة؛ فالجميع يتجهون فى صلاتهم فى مواعيد محددة إلى الله نحو قبلة واحدة أياً كانوا فى أى مكان من العالم، ويجمع بينهم الصيام فى شهر معين، ويجمع الحج بينهم من كل الأجناس والأقطار طائفين حول كعبة واحدة فى حرم الله الآمن تنجذب إليها أفئدتهم من كل فج عميق :

﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ ﴾[1].

وهذا التجمع الكبير فى الحج يعد رمزاً حياً لوحدة الأمة الإسلامية كلها، فهؤلاء ممثلوها من كل مكان يجمعهم هدف واحد ويربط بين قلوبهم رباط واحد يجعل منهم جميعاً إخوة متحابين متآلفين بأمر الله.

ويعبر القرآن الكريم عن هذا البعد الدينى بقوله تعالى :

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا ﴾[2].

---

(١) سورة الحج : آية ٢٨.

(٢) سورة آل عمران : آية ١٠٣.

وهذه الوحدة الروحية من شأنها أن تقضى على كل ما يعكر صفو وحدة الأمة أو يعمل على تقطيع أوصالها؛ فما دام الرب واحدًا والدين واحداً والقرآن واحداً فلا مجال للتناقض فى أمور الدين.

والاعتصام بحبل الله ليس مجرد شعار يرفعه المسلمون وإنما له مقتضيات لا يتحقق بدونها ولا يقع عند الله موقع القبول إلا إذا تحققت وقام المعتصمون بتبعاتها على الوجه الذى رسمه الله فى كتابه طريقاً لكمال الإنسانية ورقيها، فهو يقضى بتنحية الشهوات والأهواء التى تثيرها العصبيات القبلية والجنسية والمذهبية، ويقضى بالنظر السريع فى تنقية العقائد والعبادات وسائر المشروعات الإلهية مما يشوبها ويكدر صفوها من صور الشرك والابتداع الذى هيأ لخصوم الإسلام أن يقولوا بتعددية الإسلام ويزعموا أن الإسلام ليس ديناً واحداً وإنما هو أديان متعددة تختلف باختلاف الأقاليم والمذاهب[1] :

﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلا كَذِبًا ﴾[2].

٢- البعد الإنسانى :

ويتضح البعد الإنسانى لوحدة الأمة الإسلامية جلياً فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة. فالله سبحانه وتعالى يلفت نظرنا إلى وحدة الأصل الإنسانى.

فالناس جميعاً قد خلقهم الله من نفس واحدة :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾[3].

ورسول الله ﷺ يؤكد هذا المعنى أيضاً فى قوله:

«يا أيها الناس ، ألا إن ربكم واحد وأباكم واحد، ألا لا فضل لعربى على

---

(١) من توجيهات الإسلام للشيخ محمود شلتوت ص ٥١٢ مطبوعات الإدارة العامة للثقافة الإسلامية بالأزهر ١٩٥٩م.

(٢) سورة الكهف : آية ٥.

(٣) سورة النساء : آية ١.

أعجمى، ولا لعـجمى علىٰ عربى، ولا لأحمر على أسود ولا أسـود على أحمر إلا بالتقوى» [١].

والإسلام لا يفصل هذا البـعد الإنسانى عن البعد الدينى الذى أشرنا إلـيه كما كانت تفـعل ـ وما تزال ـ بعض الأيديولوچيـات والفلسفات فى القـديم والحديث التى تصل بالإنسـان إلى حـد التـأليه وتجـعله صـاحب السلطان الأوحـد فى هذا الكون.

ويبين لنا القرآن الكريم أن الإنسان الذى ينكر أصله أو يجحد خالقه هو إنسان يعمـل ضد طبيعته وفطرته التى فطره الله عليهـا، فالله سبحانه قد أخذ عليه ميثاقاً لا يجوز له أن يتجاهله أو يغـفل عنه لأنه مركوز فى أصل فطرته. وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴾[٢].

ومن بين القلائل من فـلاسفة الغـرب الذين أكدوا هذا المعنى كان الفـيلسوف الفـرنسى ديكارت الذى قـال : « والحق أنه لا ينبـغى أن نعـجب من أن الله حين خلقنى غرس فىَّ هذه الفكرة (أى: فكرة وجـود الله) لكى تكون علامـة للصانع مطبوعة على صنعته » [٣].

وهذا الارتباط الوثيق بين كل من البعد الدينى والبعد الإنسانى فى وحدة الأمة الإسلامية له دلالة مهمة، إذ يعنى أن هذه الأمة التى أراد الله لها أن تكون خير أمة أخرجت للناس من شأنها أن تكون عنصر أمان واسـتقرار فى هذا العالم؛ فهى أمة

---

(١) مسند الإمام أحمد ج ٥ ص ٤١١ ـ المكتب الإسلامى للطباعـة والنشر، بيروت، وقد رواه الترمذى أيضاً فى سننه ج ٤ ص ٣٨٩ (مجلد ١٤ من طبعة اسطنبول للكتب الستة).

(٢) سورة الأعراف : آية ١٧٢.

(٣) التأملات لديكارت ترجمة د. عثمان أمين ص ١٥٥ ، القاهرة ١٩٥١م.

ترتبط بخالقها بعلاقة العبودية له سبحانه وترتبط بغيرها من بنى البشر بعلاقة الإنسانية التى لا تنسى عبوديتها لخالق الكون كله.

وهذه الصلة الوثيقة بالله إذا استقامت فإنها كفيلة بتصحيح مسار الأمة الإسلامية فى هذا الوجود؛ وبذلك تتحقق خيريتها .. إنها أمة تسع الإنسان أينما كان وأنى كان وتشمل برعايتها وأمنها كل من يعيش على أرضها .. أمة يرى خليفتها عمر بن الخطاب رضى الله عنه شيخاً يهودياً يتكفف الناس فى شوارع المدينة فيفرض له من بيت مال المسلمين ما يكفيه ذل السؤال .. أمة يفرض عليها دينها حقاً للجار غير المسلم على جاره المسلم، أمة يؤكد كتابها الكريم المعنى الإنسانى الشامل الذى يؤكد كرامة الإنسان وحُرْمته فى قوله تعالى :

﴿ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ (١).

٣ـ البعد الاجتماعى :

إذا كانت الأمة الإسلامية ترتبط فيما بينها بروابط العقيدة والإنسانية فإن محصلة هذين البعدين هى الأخوة التى هى أقوى من أخوة النسب. ومن هنا كان قول القرآن الكريم : **﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾** (٢).

وعندما أراد النبى ﷺ أن يؤسس قواعد المجتمع الإسلامى فى المدينة بعد الهجرة آخى بين أصحابه من المهاجرين والأنصار، فتآلفت قلوبهم بفضل الله. وقد امتن الله على المؤمنين بهذا التآلف فقال:

﴿ فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ (٣).

---

(١) سورة المائدة : آية ٣٢.

(٢) سورة الحجرات : آية ١٠ .

(٣) سورة آل عمران : آية ١٠٣.

وهذه الأخوة لها حقها فهى تتضمن بعداً عاطفياً يتمثل فى المشاركة الوجدانية. فكل فرد من أفراد الأمة الإسلامية يشعر بآلام وآمال أمته لأنه جزء منها يحس بإحساسها ويسعد لسعادتها ويتألم لألمها.

ومن هنا كان قول النبى ﷺ :

« مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » [(١)].

ولكن مجرد المشاركة الوجدانية ـ مع أهميتها ـ لا تكفى. ولا بد أن يترجم هذا الشعور الداخلي إلى عمل فعال يكون من شأنه النهوض بالأمة وبأفرادها.

ومن هنا كان مبدأ التكافل فى الإسلام بمثابة ترجمة عملية لذلك الشعور الباطنى لدى المسلم . وقد جعل الإسلام هذا المبدأ عبادة مفروضة يتعبد بها المسلم ويتقرب بها إلى ربه وهى فريضة الزكاة.

فالزكاة ـ إذن ـ ليست مجرد تبرع يجود به المسلم أو لا يجود وإنما هى حق المال، وهو حق إلزامى واجب الأداء من طيبات ما كسبنا، وهو حق لا يجوز التهاون فيه بأى حال من الأحوال. فالله سبحانه قد استخلف الإنسان فى المال الذى هو مال الله وأمره بالإنفاق منه. وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [(٢)].

ومن هنا نفهم لماذا حارب أبو بكر رضى الله عنه مانعى الزكاة لأنها ضرورة من ضرورات المجتمع الإسلامى فضلاً عن أنها أحد أركان الإسلام الأساسية. فالأمة الإسلامية أمة متكافلة ولا تتم وحدتها بدون هذا التكافل، ولا يتم إيمان المسلم بدونه. وفى ذلك يقول الرسول ﷺ :

---

(١) رواه مسلم والإمام أحمد (راجع فيض القدير للمناوى ج ٥ ص ٥١٤ ـ دار المعرفة ـ بيروت).

(٢) سورة الحديد : آية ٧.

« ما آمن بى من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم » [1].

وهذا أمر لا ينطبق فقط على محيط التجمعات السكنية الصغيرة أو القرى أو المدن أو محيط كل دولة إسلامية على حدة، وإنما هى مبادئ مقررة تلتزم بها الأمة الإسلامية كلها حتى لا يكون هناك فقير أو محتاج على مستوى الأمة الإسلامية. فهموم هذه الأمة ينبغى أن تشغل بال كل مسلم وكل حاكم فى العالم الإسلامى. وقد آن الأوان ليخرج المسلمون من دائرة المشاركة الوجدانية السلبية إلى المشاركة الإيجابية المؤثرة وذلك بوضع الخطط المفصلة لإقامة بنيان التكافل بين أبناء الأمة الإسلامية. وقد آن الأوان للأمم الإسلامية أن تنصهر فى بوتقة الوحدة الحقيقية للأمة الإسلامية بتحقيق مبدأ التكافل والخروج من سجن الفرديات المنعزلة والقوميات المنفصلة إلى محيط الجماعة الكبرى التى أرادها الله أن تكون خير أمة أُخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله وتقيم التعاون فيما بينها على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان.

٤- البعد الجغرافى :

لقد جعل الله للأمة الإسلامية من وضعها الجغرافى الذى تتميز به فى هذا العالم وحدة طبيعية جامعة تمتد فى رقعة مترامية الأطراف متلاحمة الأجزاء. وقد صور العالم الجليل الراحل الدكتور محمد عبد الله دراز هذه الوحدة الجغرافية تصويراً طريفاً معبراً نقتبسه هنا لأهميته فى إعطاء صورة واضحة المعالم لهذا البعد الجغرافى. يقول رحمه الله:

« إنها صورة جمل ضخم قد برك على الأرض بمؤخرته ولكنه أخذ يهم بالنهوض فنصب ساقيه الأماميتين ورفع رأسه ومد عنقه، وقد سحب إلى الأمام من مشفره بحبل وتدلى من عنقه حبل ثان، واجتذب إلى الوراء من منكبه بحبل

---

(١) رواه الطبرانى والبزار وإسناده حسن (راجع : الترغيب والترهيب للإمام الحافظ المنذرى ج ٣ ص ٣٥٨).

ثالث كأنه المقود فى يد الراكب. أما مبرك الجمل فهو الجزء الأعظم من القارة الأفريقية، أعنى كتلتها العظمى المحصورة بين المحيط والبحر الأبيض والبحر الأحمر، وأما ساقاه الأماميتان فهما الصومال وأوغندة، وأما صدره فهو جزيرة العرب وما يليها من الشمال، وأما عنقه ورأسه الممتدان فى قلب القارة الآسيوية فهى بلاد إيران وأفغانستان وباكستان وما فوقهن، وأما الحبلان الممدودان من مشفره ومن عنقه فهما سلسلتان من الأقاليم الآسيوية تمتد إحداهما إلى أقصى الشرق على المحيط الهادى أمام الجزر اليابانية، وتمتد الأخرى إلى الجنوب حتى تعبر القارة الآسيوية عند ملتقى المحيطين الهادى والهندى، وهناك تؤلف مجموعة الجزر الإندونيسية. وأما المقود الذى يجذبه من منكبه إلى الوراء فهو سلسلة من الأقاليم الأوربية تبتدئ من الأقطار التركية وتسير فى اتجاه شمالى غربى حتى تصل إلى بحر البلطيق ».

وهذه الوحدة الجغرافية التى تتضح لنا من خلال هذه الصورة الملموسة من شأنها أن تمحو بين أقطار العالم الإسلامى تلك الحواجز الإقليمية المصطنعة فى شئون الاقتصاد والإنتاج. ومن شأن الوحدة الجغرافية أيضاً أن تيسر توزيع ثروتها المادية بينها توزيعاً ينشر فيها الرخاء ويحقق لها الاكتفاء الذاتى والاستغناء عما سواها »[١].

ولا ينبغى أن يفهم من هذا التصوير للبعد الجغرافى محدودية الإسلام وانحصاره فى تلك البقاع. فالغرض كان فقط إعطاء صورة تقريبية لتلاحم مناطق العالم الإسلامى فى عالمنا المعاصر. ولسنا فى حاجة إلى أن نؤكد على عالمية الرسالة الإسلامية ومسئولية المسلمين فى توصيلها إلى كل مكان فى العالم بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن. فهذا أمر يعد من البديهيات الإسلامية.

---

(١) فى الدين والأخلاق والقومية للدكتور محمد عبد الله دراز ص ١٤٨ وما بعدها ، القاهرة ١٩٦٧م.

٥- البعد الحضارى :

الإسلام ليس دين طقوس تعبدية جامدة، إنه دين للحياة بكل أبعادها والأمة الإسلامية أمة أراد الله لها أن تكون صاحبة رسالة دينية وحضارية فى هذا العالم، ومن هنا كان وصفها بأنها خير أمة أخرجت للناس.

وقد رسم القرآن الكريم للإنسان الإطار العام فى كل أموره الدينية والدنيوية واستخلف الله الإنسان فى الأرض وكلفه بعمارتها وصنع الحضارة فيها، ووعد المؤمنين العاملين بالتمكين لهم فى الأرض وكتب لهم العزة والنصر. وتحقيق ذلك كله أمر منوط بالإنسان وبتأييد من الله.

وقد أدرك المسلمون الأوائل ذلك كله وعملوا على تحقيقه، وقد تحقق لهم بالفعل ما أرادوا وما أراده الله منهم. وبذلك أقاموا صرحاً شامخاً لحضارة كانت من أطول الحضارات عمراً فى التاريخ. وقد اشترك علماء الأمة الإسلامية من كل جنس ولون فى إقامة هذا الصرح الحضارى بدافع من الإسلام الذى رفع من شأن العلم والعلماء واعتبر مداد العلماء مساوياً لدماء الشهداء، وجعل العلماء أخشى الناس لله.

وسارت جهود علماء المسلمين فى مجالات العلوم الدينية والدنيوية جنباً إلى جنب فى تكامل رائع، فقد أدركوا أن الحضارة تعنى تقدماً مادياً وروحياً وأخلاقياً، وبذلك قدموا للإنسانية خدمة كبرى فى الوقت الذى كان فيه العالم غير الإسلامى ما يزال يعيش فى جهالة جهلاء. وترك لنا الأسلاف تراثاً ضخماً يعد أغنى تراث فى العالم يعبر عن وحدة جهود علماء الأمة الإسلامية بصورة رائعة. ويشترك المسلمون اليوم فى كل مكان فى العالم الإسلامى فى الاعتزاز بهذا التراث.

وقد آن الأوان للأمة الإسلامية أن تتوحد جهودها مرة أخرى فى سبيل النهوض بالأمة والارتقاء بها حضارياً بما يؤكد شخصيتها المتميزة ويحافظ على ذاتيتها مسترشدين فى ذلك بتعاليم الإسلام الشاملة وبالجوانب الإيجابية المشرقة فى تراثنا. فلا يليق بالأمة الإسلامية أن تظل فى عالمنا المعاصر قابعة فى مقاعد

المتفرجين الذين لا يشاركون فى صنع الحضارة، ويكتفون بدور المستهلك لما تنتجه الحضارة التى يصنعها غيرنا فى الوقت الذى لا تعرف البشرية فيه ديناً آخر غير الإسلام يشتمل على كل المقومات والأسس التى تحقق للبشرية أفضل المستويات الحضارية مادياً وروحياً وأخلاقياً.

والرسالة الدينية الحضارية المنوطة بالأمة الإسلامية لا يمكن تأديتها والقيام بحقها إلا إذا توحدت جهود الأمة الإسلامية دينياً وفكرياً وحضارياً ـ وواجبها يفرض عليها فى هذا الصدد أن تقدم للعالم هذه الرسالة الدينية الحضارية فى صورة أنموذج متحقق فى عالم الواقع. فليس بالأقوال تؤدى الرسالات الكبرى ولكن بترجمة الأقوال إلى برامج عمل. ومن هنا كان اللوم والمقت للمؤمنين الذين يقولون ما لايفعلون :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ۝٣ ﴾ (1).

٦- البعد المصيرى :

وإذا كانت الأمة الإسلامية ترتبط فيما بينها برباط دينى واحد وتجمعها وحدة جغرافية طبيعية ولها رسالة نورانية حضارية فى هذا الوجود فإن ذلك يعنى غايات واحدة وأهدافاً مشتركة ويعنى فى النهاية مصيراً واحداً.

ومن أجل حماية هذا المصير الواحد وصوناً للمبادئ السامية والمثل العليا التى تقوم بها ومن أجلها الأمة الإسلامية فلا بد من إعداد القوة اللازمة لدرء الأخطار التى تحيط بها سواء أكانت هذه الأخطار قائمة بالفعل أو محتملة الوقوع، أى: سواء أكانت منظورة أو غير منظورة، فالقوة فى كلا الحالين ضرورية.

وفى هذا الصدد يقول القرآن الكريم :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ

---

(1) سورة الصف : الآيتان ٢ ، ٣.

﴿وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾[1].

والهدف الذى من أجله يدعو القرآن الكريم إلى هذا الاستعداد الحربى بكل ما أوتينا من قوة لا يرمى إلى التخريب والتدمير أو الاستعباد والاستعمار أو سلب الآخرين أموالهم وأوطانهم وأمنهم، وإنما يرمى إلى دفع شر الأعداء وتخليص المستضعفين من أيدى الظالمين المعتدين وإفساح الطريق أمام دعوة الخير الذى يريده الله لعباده.

وقيام هذه القوة يعد من أقوى وسائل السلم الذى أمر الله به. ومن هنا كان التأكيد فى الآية على قوله تعالى: ﴿ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ فهى قوة تحمى السلم والأمان والاستقرار.

ومثل هذه القوة لا تتأتى إلا بوحدة الأمة الإسلامية. فهذه الوحدة هى السد المنيع والحصن الحصين فى وجه كل الأطماع التى تستهدف إضعاف الأمة الإسلامية وإثارة الفتن والخصومات بين أبنائها.

وعلى الأمة الإسلامية صاحبة المصير المشترك أن تعيد النظر فى قائمة الأولويات للقضايا والهموم التى تحيط بها فى عالمنا المعاصر فتشغل نفسها لا بالقضايا الهامشية بل بالقضايا المصيرية وعلى رأسها قضية التخلف التى تمثل الهم الأكبر للأمة الإسلامية اليوم. والتخلف الذى أعنيه يشمل المجالات الروحية والمادية والأخلاقية والعلمية والحضارية بصفة عامة. وتلك قضية مصيرية لا يجوز التهاون فيها أو التفريط فى معالجتها بما تستحقه من اهتمام وعناية.

المخاطر التى تهدد وحدة الأمة الإسلامية

بعد أن ألقينا نظرة سريعة على أهم الأبعاد التى تشتمل عليها وحدة الأمة

(1) سورة الأنفال: آية ٦٠.

الإسلامية لا بد لنا من التنبيه إلى المخاطر التى تهدد صرح هذه الوحدة. وقد حذر الإسلام من الوقوع فى شراكها. وتتلخص هذه المخاطر فى عنصرين أساسيين يمكن أن ترد إليهما جميع الأسباب الفرعية الأخرى التى تستهدف إضعاف الأمة الإسلامية وكسر شوكتها.

وأول هذه العناصر يتمثل فى الفرقة والتنازع والصراعات المدمرة التى تعد مدخلاً خطيراً لانهيار وحدة الأمة الإسلامية، سواء أكان هذا التنازع والتفرق فى أمور الدين أو السياسة والملك أو بسبب الفوارق الطبقية الصارخة أو بسبب الصراعات القبلية أو العرقية التى تحيى ما كان قائماً فى الجاهلية، وقد جاء التحذير الإلهى من ذلك حاسماً قاطعاً فى عبارة قصيرة تبدأ بالحث علي التمسك بالوحدة وتحذر فى الوقت نفسه من التفرق، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا** ﴾ (١) وفى آية أخرى يأتى التنبيه إلى نتيجة التفرق والتنازع وذلك فى قوله تعالى : ﴿ **وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ** ﴾ (٢). وهكذا تؤدى الفرقة والتنازع والتناحر إلى الفشل الذى تكون نتيجته النهائية هى ذهاب قوة المسلمين وضياع عزتهم ومنعتهم؛ وبذلك يكونون لقمة سائغة فى يد أعدائهم تداعى عليهم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها.

أما العنصر الآخر الذى يحذر الإسلام منه فيتمثل فى موالاة الأعداء. وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾ (٣).

---

(١) سورة آل عمران : آية ١٠٣.

(٢) سورة الأنفال : آية ٤٦.

(٣) سورة آل عمران : آية ١١٨.

وختام الآية أمر فى غاية الأهمية لمن يتأمل. فالله قد وضح لنا الطريق وكشف لنا عن مخاطره وعثراته وعلينا أن نتدبر أمرنا بعـقولنا التى منحها الله لنا لنميز بها الخبيث من الطيب ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

وفى آية أخرى يقول القرآن الكريم :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾[1].

ولا يخفى على أحد أن هناك كثيراً من الممالك الإسلامية فى القديم والحديث قد ضاعت بسبب موالاة الأعداء والركـون إليهم والوثوق بهم والاستعانة بهم على حرب المسلمين بعضـهم بعضاً، ولم يكن ذلك السلوك إلا كالمستجـير من الرمضاء بالنار.



(١) سورة الممتحنة : آية ١.

خاتمة : واقع الأمة الإسلامية وآفاق المستقبل

إن الواقع الذى تعيشه الأمة الإسلامية اليوم يعد واقعاً مؤلماً كما يجب أن نعترف بذلك جميعاً، وهو واقع يسير فى اتجاه مضاد لكل مثاليات وحدة الأمة الإسلامية. فالنزاعات القائمة اليوم بين أبناء الأمة الإسلامية أكثر منها فى أى مكان آخر فى العالم، ومؤسسات العمل المشترك فى العالم الإسلامى ليست أكثر من واجهة تحمل شعارات طنانة لا تعنى شيئاً، وأمور المسلمين المصيرية يقررها غيرهم. وأقرب مثل على ذلك كان الاتفاق الذى تم بشأن أفغانستان منذ بضعة أشهر فقد تم توقيع هذا الاتفاق لا من جانب أصحاب الشأن وأصحاب القضية وهم المسلمون ولكن من جانب الدولتين العظميين.

وهذا الواقع المؤلم يدفع إلى طرح تساؤلات عديدة :

هل يجهل أبناء الأمة الإسلامية فى عالم اليوم الأبعاد الحقيقية لوحدة الأمة الإسلامية ومن هنا يعملون فى اتجاه معاكس لها أم أنهم يدركون تماماً كل ما تعنيه هذه المقومات بالنسبة لحاضر الأمة الإسلامية ومستقبلها ومع ذلك فهم لا يصنعون شيئاً ؟

إنه إذا كانت الأولى فتلك مصيبة وإن كانت الثانية فإن المصيبة أعظم.

ما لنا نرى هذا البون الشاسع بين النموذج والواقع ؟

وما لنا نرى الأمة الإسلامية قد تفرقت السبل بأبنائها ؟

أين الخلل ؟ هل هو فى المشروع الحضارى الإسلامى أم هو فى الواقع المحير والمشحون بالتناقضات الحادة والذى يعيشه أبناء الأمة الإسلامية؟

أم أن الخلل فى الفهم السقيم والمعوج لقيم وتعاليم الإسلام؟

ما سبب هذا التبلد الذى أصاب الأمة الإسلامية فى عالمنا المعاصر؟

أين ذلك كله من تلك الأمة التى وصفها القرآن الكريم بأنها خير أمة أخرجت للناس ؟

لسنا نريد الدخول فى تفاصيل ذلك كله الآن؛ لأن موضوعنا ينصب فقط على توضيح مفهوم وحدة الأمة الإسلامية، ولعل موضوعات هذا الملتقى المبارك تغطى هذه الجوانب كلها أو معظمها، ولكننا نستطيع أن نقول باختصار ـ كما قال الراحل مالك بن نبى أيضاً ـ : « إن التخلف الذي تعانى منه الأمة الإسلامية اليوم يعد عقوبة مستحقة من الإسلام على المسلمين لتخليهم عنه لا لتمسكهم به كما يظن بعض الجاهلين ».

ومن ناحية أخرى فإن صلاح حال الأمة الإسلامية لن يتم إلا بإرادة أبنائها ولن ينزل علينا من السماء. فإذا صحت إرادة الأمة وصدقت العزائم وخلصت النيات فلا شك أن الله سبحانه وتعالى سيكون مع هذه الأمة بالتأييد والنصر. وهذا قانون قرآنى ثابت تعبر عنه الآية الكريمة :

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1].

وعلى الرغم من كل السحب الكثيفة السوداء التى تغطى سماء الأمة الإسلامية فنحن لسنا يائسين فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون.

ولا زلنا نأمل فى تيقظ وعى الأمة وصحوة ضميرها وتجديد شباب عقيدتها ونقاء فكرها حتى تأخذ مكانها اللائق بها بين الأمم فى عصر التكتلات الدولية.

فلا يليق بكرامة هذه الأمة أن تعتمد فى غذائها بنسبة سبعين فى المائة على غيرها من دول العالم، ومن المعلوم أن من لا يملك غذاءه لا يملك قراره. لا زلنا نأمل أن تعود هذه الأمة صاحبة قرارها ومقررة مصيرها، وأن تسهم إسهاماً حقيقياً فى تقرير مصير هذا العالم.

---

(١) سورة الرعد : آية ١١.

لا زلنا نأمل فى غد مشرق للأمة الإسلامية، تتوحد فيه جهودها وتتفق ـ على الأقل ـ على قضاياها المصيرية. ونرجو أن تتحول هذه الآمال ـ عن قريب ـ إلى برامج عمل لمصلحة هذه الأمة حتى تحقق ما أراده الله لها: أن تكون خير أمة أخرجت للناس قولاً وفعلاً.

والله يقول الحق وهو يهدى السبيل.



الفصل الثانى

القرآن الكريم
وخصائص المجتمع الإسلامى

ويتضمن هذا الفصل :

تحديد المفاهيم :

١ـ وحدة العقيدة والمبادئ. ٢- الأخوة.

٣- المساواة. ٤- التكافل.

٥- التعاون والتراحم والمحبة.

٦- الشورى. ٧- العزة والمنعة.

٨- التسامح والروح الإنسانية الشاملة.

خاتمة .

تحـــديد المفـــاهيم :

قبل أن نبـدأ حديثنا حول هذا الموضوع نود أولاً أن نحـدد بعض المفاهيم التى وردت فى عنوان هذه الندوة [1]. وقد لا يرى الكثيرون حـاجة إلى ذلك لوضوح هذه المفاهيم فـى الأذهان، ولكن من باب التذكرة فـقط لا من باب افتـراض عدم العلم نشير إلى ما نود التأكيد عليه من هذه المفاهيم. ونقتصر فى هذا التحديد على مجرد الإشارة التى تغنى عن التفصيلات الكثيرة.

أما القرآن الكريم فغنى عن البيان ما يعنيه بالنسبة للمسلمين. ولكن الذى نود أن نبرزه فى هذا الصـدد هو أن هذا القرآن الذى هو وحى الله هو كتـاب للإنسان ومن أجل الإنسان. « فالقرآن كله إما حديث إلى الإنسان أو حديث عن الإنسان ». وقد تكررت كلمـة « الإنسان » فى القرآن ثـلاثاً وستين مرة، وجـاء الحديث بلفظ «بنى آدم» ست مرات وبلفظ « الناس » مائتين وأربعين مرة.

وإذا تدبرنا أول ما نزل من الوحى القرآنى على رسول الله ﷺ فسيتضح لنا التركيـز على العناية بشأن الإنسان بصـفة خاصة. ويتجلى ذلـك بوضوح من ذكر لفظ « الإنسان » مرتين فى الآيات الخمس الأولى من الوحى[2] :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ① خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ③ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤ ﴾ [3].

ولا غرابة فى ذلك ، فالإنسان قد جعله الله خليفة فى الأرض، وكرمه وفضله

---

(١) ألقيت هذه المحاضرة فى ندوة بمقـر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية حـول « القرآن الكريم وخصائص المجتمع الإسلامى » فى ١٦ رمضان ١٤٠٨ هـ الموافق ٢ مايو ١٩٨٨م.

(٢) الخصائص العامة للإسلام للدكتور يوسف القرضاوى ص ٦١ مكتبة وهبة ١٩٧٧م.

(٣) سورة العلق: الآيات ١ ـ ٥ .

على سائر المخلوقات، وميزه بالعقل والإدراك، وحمَّله أمانة عمارة الأرض وصنع الحضارة فيها. وقد تضمن القرآن دستوراً ينظم للإنسان شئون حياته وأمور معاشه وعلاقاته بنفسه وبغيره من أناس وحيوان ونبات وجماد.

هذا عن القرآن الكريم، أما خصائص المجتمع الإسلامى فإن المقصود بالخصائص تلك الصفات التى لا تنفك عن الشىء وتميزه عن غيره. ووصف المجتمع بأنه إسلامى يعنى أنه مطبوع بالطابع الإسلامى خاضع لتعاليمه ملتزم بمبادئه وتشريعاته. أما المجتمع فمعناه مجموعة أفراد تربطهم علاقات منظمة وخدمات متبادلة وتسودهم روح عامة وتقاليد مشتركة يخضعون لها جميعاً. فللمجتمع سلطان على أفراده كالأسرة والأمة.

فالمجتمع - إذن - ليس مجرد اجتماع أفراد فى مكان وزمان معينين، ولكنه يعنى تفاعل الأفراد في مجتمع من المجتمعات تفاعلاً يراعى فيه كل مكونات هذا المجتمع وحركته فى الزمان وآماله وتطلعاته فى المستقبل.

فالتركيب الاجتماعى ليس تركيباً حسابياً ولكنه أشبه بالتركيب الكيماوى الذى تتفاعل فيه العناصر التى شكلته.

وهناك فيما يتعلق بتحديد الصلة بين الفرد والمجتمع وجهات نظر فلسفية متناقضة جعلت من الفرد والمجتمع خصمين متصارعين. فالفلسفات والنظم الجماعية تقرر الغلبة للمجتمع وتتجه هذه النظم إلى إنكار ذاتية الفرد وإلغاء شخصية الإنسان مقابل المجتمع الذى ينظم كل شىء.

وأما الفلسفات والنظم الفردية فإنها على العكس من ذلك تقرر أن الغلبة للفرد ولذلك ترفض تقييد حريته فى اختيار طريقه فى حياته الخاصة أو العامة.

ولكن الإسلام لا يقر هذا الصراع بين الفرد والمجتمع. فالنزعة الفردية والنزعة الاجتماعية أصيلتان فى فطرة الإنسان. وإذا كان الإسلام قد قرر المسئولية الفردية فى صراحة ووضوح فإنه قد قرر فى الوقت نفسه على الفرد واجبات مخصوصة

نحو الجماعة ودمجه فى مسئولية مشتركة عن المجتمع، كما أشرك المجتمع فى مسئوليته عن الفرد [1].

وهناك آيات كثيرة فى القرآن الكريم تؤكد على المسئولية الفردية. ومن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى :

﴿ بَلِ الإنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾[2]، ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ ﴾[3].

كما أن هناك آيات أخرى وأحاديث نبوية تحض على التعاون والعمل المشترك وتبرز المسئولية المشتركة، ومن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى:

﴿ وَالْعَصْرِ ① إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ② إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ③ ﴾[4] وقوله تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾[5] .

وأما عن المسئولية المشتركة فإن النبى ﷺ يصورها لنا أبلغ تصوير فى قوله :

« مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا : لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً»[6].

وقد قضت الحكمة الإلهية من خلق الإنسان تحقيق الاجتماع الإنسانى على

---

(١) معالم الثقافة الإسلامية للدكتور عبد الكريم العثمان ص ٢٧٧ وما بعدها. بيروت ١٩٧٢م. وراجع : مدخل إلى الفكر الفلسفى لبوخينسكى ، من ترجمتنا ص ١٤٣ ـ ١٥٤. مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٠م.

(٢) سورة القيامة : آية ١٤.

(٣) سورة النجم : آية ٣٩.

(٤) سورة العصر.

(٥) سورة المائدة : آية ٢.

(٦) رواه البخارى ج١ ص ٦٩ (الكتب الستة طبعة اسطنبول مجلد ٤).

أساس من القيم الإنسانية. فالقرآن الكريم عندما يتحدث عن خلق الإنسان وخلق ما يعينه على المعيشة فى الحياة الدنيا من حيوان ونبات يتحدث عن «الزوجية» فى الذكورة والأنوثة فى الإنسان والحيوان والنبات فيجعل لهذه الأنواع الثلاثة هدفاً مشتركاً يتمثل فى الكثرة والزيادة العددية فيها، بينما يضيف فى جانب الإنسان وحده إلى هذا الهدف المشترك هدفاً آخر خاصاً به هو هدف قيام المجتمع البشرى وتحقيق أغراضه [1]. فيقول فى شأن هذا الهدف الخاص بالإنسان :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[2].

وهكذا نجد أن القرآن ينظر إلى قيام المجتمع الإنسانى على أساس من القيم الإنسانية الرفيعة التى عبر عنها فى الآية الكريمة بالسكن أى : الاستقرار والمودة والرحمة وهى تلك الروابط الإنسانية التى تبنى مجتمع الحضارة الإنسانية.

تلك نظرة القرآن إلى أساس بناء المجتمع الإنسانى السليم. وهذا إجمال يحتاج إلى شىء من التفصيل.

وتأسيساً على ذلك يمكننا أن نقول إن المجتمع الإسلامى يقوم على عدة عناصر رئيسية تميزه عن غيره من المجتمعات ومن أهمها ما يلى :

١ - وحدة العقيدة والمبادئ :

يقوم المجتمع الإسلامى على أساس الإيمان بالله الواحد الذى خلق هذا الكون بما فيه ومن فيه والذى أرسل الرسل الذين كان خاتمهم محمد ﷺ ، وعلى أساس من هذه العقيدة تتفرع مبادئ ومفاهيم وأفكار وعواطف وتتولد عنها نتائج مهمة كان لها ولا يزال أثرها البالغ فى مجرى تاريخ الشعوب. وتتجلى هذه

---

(١) القرآن والمجتمع للدكتور محمد البهى ص ٣ وما بعدها، مكتبة وهبة ١٩٧٦ م.

(٢) سورة الروم : آية ٢١.

العقيدة وتلك المبادئ فى العديد من المظاهر الحياتية للمجتمع الإسلامى أبسطها السلام والتحية.

وهذا الإيمان قوة غامرة وطاقة جبارة تفعل فعلها فى النفوس، وإذا كان الإيمان صادقاً خالصاً مخلصاً انقلب إلى عمل صالح، ومن هنا كان التأكيد فى القرآن الكريم على ارتباط الإيمان بالعمل الصالح حيث ورد ذلك فى سبع وخمسين آية، فالمجتمع الإسلامى مجتمع المؤمنين العاملين لا مجتمع المتبطلين العاطلين.

والإيمان ـ كما ورد فى الأثر ـ ليس بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل وإن قوماً غرتهم الأمانى وقالوا: نحسن الظن بالله، وكذبوا، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل [1].

ومن هنا نستطيع أن نقول إن المجتمع الإسلامى يقوم على أساس فكرى واحد. فالمسلمون جميعاً لهم مفاهيم متماثلة وإن اختلفوا فى مستوى فهمها [2]. ويقوم البناء الأخلاقى على هذا الأساس العقدى؛ فقد لخص النبى ﷺ رسالته كلها فى عبارة جامعة حين قال : « **إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق** » [3].

ويشكل الإيمان القاعدة الأساسية للبناء الأخلاقى كله. وهذا ما يؤخذ من قول النبى ﷺ : « **الإيمان بضع وسبعون شعبة أفضلها لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان** » [4].

ومن هنا يتبين أن المجتمع الإسلامى لا يقوم على أساس عرقى أو طبقى وإنما يبنى على عقيدة معينة وضابط خلقى بعينه.

---

(١) رواه الديلمى فى مسند الفردوس عن أنس على أنه حديث شريف. وقد جاء فى (فيض القدير شرح الجامع الصغير) للعلامة المناوى ـ ج ٥ ص ٣٥٦ ـ أنه حديث ضعيف وقال : « وقد روى معناه بسند جيد عن الحسن من قوله وهو الصحيح ». وسواء أكان حديثاً أم قولاً مأثوراً عن الحسن فإن المعنى المقصود صحيح ولا غبار عليه.

(٢) محمد المبارك : المجتمع الإسلامى المعاصر ص ٢٨ وما بعدها، دار الفكر ـ بيروت ١٩٧١ م.

(٣) رواه البخارى فى كتاب الأدب المفرد.

(٤) رواه الإمام مسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه عن أبى هريرة كما رواه البخارى والترمذى مختصراً (فيض القدير ج ٣ ص ١٨٥ ، ١٨٦).

٢- الأخوة :

فالمؤمنون تربط بينهم رابطة الأخوة فى الله وفى العقيدة قبل أن تكون أخوة نسب. وفى ذلك يقول القرآن الكريم : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[١] وعندما أراد النبى ﷺ أن يبنى المجتمع الإسلامى فى المدينة بعد الهجرة آخى بين أصحابه من المهاجرين والأنصار فتآلفت قلوبهم بفضل الله. وقد امتن الله على المؤمنين بهذا التآلف فقال : ﴿ فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾[٢]، وفى آية أخرى : ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [٣]، وكل من يلتزم بأمر الله يستطيع أن يدخل فى دائرة هذه الأخوة : ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ [٤].

وكل من آمن بالله رباً ومالكاً ورضى بما جاءت به الرسل من الهدى ودين الحق منهجاً عملياً لحياته فقد أصبح من أجزاء هذا المجتمع وجزءاً من أفراده. وهكذا فإن المجتمع الإسلامى مجتمع مفتوح لكل من يؤمن بعقيدة واحدة [٥].

فالمجتمع الإسلامى ـ إذن ـ مجتمع الأخوة وتلك خاصية ملازمة له فى كل زمان ومكان.

٣- المساواة :

وهذه الأخوة تعنى الندية . . تعنى المساواة فى الاعتبار البشرى :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ

---

(١) سورة الحجرات : آية ١٠.

(٢) سورة آل عمران : آية ١٠٣.

(٣) سورة الأنفال : آية ٦٣.

(٤) سورة التوبة : آية ١١.

(٥) معالم الثقافة الإسلامية : ص ٢٨٠.

﴿مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً﴾[1].

وقد أصَّل القـرآن الكريم فى هذه الآية « المساواة » فى الإنسانية علـى مبدأ أن الكثرة التى خلقت من البـشر مردها جمـيعها فى الخلق إلى « نفـس واحدة » فهم حتماً مـتساوون فى خصائص الإنسانيـة. ولا يغير من المساواة فى القيمـة البشرية لجميع الأفراد ما جدَّ فى حياة الناس من غنى أو فقر وضعف أو قوة وعلم أو جهل إلى غيـر ذلك مـن فروق. فالاعتبار الوحيد فى التمايز والتفاضل هو التقوى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [2].

وإذا كانت التقوى هى معيار التفاضل فلا يجوز لأحد أن يسخر من غيره فلعله يكون عند الله خيراً منه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ﴾[3].

٤- التكافل :

يترتب على الأخوة خاصية أخرى ترتبط بـها ارتباطاً تاماً، وتلك الخاصية هى التكافل. فالإسـلام يجعل الرعـاية الاجتمـاعية من أنواع العـبادة التى يتقـرب بها الإنسان إلى الله. وأداؤها مترتب على الإيمان بالله وبالوحى.. يقول الله تعالى :

﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [4].

---

(١) سورة النساء : آية ١.

(٢) سورة الحجرات : آية ١٣ . انظر أيضاً : د. البهى (طبقية المجتمع ص ٣٩ وما بعدها).

(٣) سورة الحجرات : آية ١١.

(٤) سورة البقرة : آية ٢٦٥.

والعبادة التى فرضها الإسلام وجعل غايتها الرعاية الاجتماعية فى المجتمع هى الزكاة. وأداء هذه الزكاة يكفل الرعاية الاجتماعية فى المجتمع الإسلامى ضماناً لإبعاد شبح الحاجة من المجتمع.

وليست الزكاة تبرعاً مرهوناً بمشيئة الإنسان، بل هى حق المال، وهو حق واجب الأداء؛ فالمال ملكيته خاصة ولكن منفعته عامة وله وظيفة اجتماعية، وهو مال الله الذى استخلف الإنسان فيه، كما يقول القرآن الكريم :

﴿ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾[1].

والزكاة عماد التكافل فى المجتمع الإسلامى، ويهدف نظام الزكاة إلى الوقاية من مذلة حاجة الأكل والشرب والتمكين من تحقيق الاعتبار البشرى للإنسان وحماية القيم العليا فى المجتمع من التدهور أو اللامبالاة بها.

ويتضح ذلك من التأمل فى تحديد مصارف الزكاة الواجبة على نحو ما جاء فى القرآن الكريم :

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[2].

٥- التعاون والتراحم والمحبة :

وفى ذلك آيات عديدة فى القرآن الكريم وأحاديث كثيرة فى السنة النبوية. فالله تعالى يقول: **﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾**[3] .

---

(١) سورة الحديد : آية ٧.

(٢) سورة التوبة : آية ٦٠.

(٣) سورة المائدة : آية ٢.

والرسول ﷺ يقول : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً ».

وقد وصف الله المؤمنين بأنهم ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[1]، ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[2].

ويقول الرسول ﷺ : «لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[3].

ولم تكن هذه التعاليم الإسلامية مجرد شعارات لا مجال لها فى التطبيق، أو مثاليات لا مكان لها إلا فى رءوس أصحابها. فقد تجسدت هذه القيم الإسلامية فى عالم الواقع، وكانت بالفعل هى التى تحكم علاقات المسلمين فى المجتمع الإسلامى، ولا تزال هى السبيل القويم لنهضة المجتمعات الإسلامية فى كل زمان ومكان.

٦- من الصفات الملازمة للمجتمعات الإسلامية خاصية الشورى :

وقد جاء الأمر بها فى القرآن الكريم صريحاً واضحاً لا لبس فيه : ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾[4]، وقد كان النبى ﷺ يستشير أصحابه فى العديد من الأمور المهمة فى السلم وفى الحرب. وكان ينزل على رأى أصحابه حتى وإن كان غير مقتنع بصواب رأيهم كما حدث فى الخروج إلى غزوة أحد. وكان فى كل ذلك معلماً لأمته مبيناً لها طريق صلاحها وسبيل خلاصها.

وكانت عائشة رضى الله عنها تقول : «ما رأيت رجلاً أكثر استشارة للرجال

---

(١) سورة الفتح : آية ٢٩.

(٢) سورة الحشر : آية ٩

(٣) رواه الإمام مسلم فى صحيحه.

(٤) سورة آل عمران : آية ١٥٩.

من رسول الله ﷺ ». وروى الإمام أحمد بن حنبل أن رسول الله ﷺ قال لأبى بكر وعمر رضى الله عنهما : « **لو اجتمعتما فى مشورة ما خالفتكما** ».

وقد ورد عن الحسن رضى الله عنه قوله : « الناس ثلاثة : رجل رجل ، ورجل نصف رجل ، ورجل لا رجل. فالرجل الرجل من له رأى ومشورة، والرجل نصف الرجل من له رأى ولا مشورة له، والثالث من لا رأى له ولا مشورة » (١).

ومن ذلك يتضح أن الشورى بالنسبة لمجتمع المسلمين ليست مجرد رأى استشارى يؤخذ به أو لا يؤخذ وإنما هى ملزمة لولى الأمر بما يتفق ومصالح المسلمين. فقد وصف الله سبحانه المؤمنين بعدة أوصاف من بينها التزامهم بالشورى وقرن ذلك بإقامة الصلاة والإنفاق مما آتاهم الله من فضله وذلك فى قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (٢) .

٧- من خصائص المجتمع الإسلامى أنه مجتمع القوة والعزة والمنعة:

فالمجتمع الإسلامى بما يمثله من قيم إيمانية وأخلاقية وإنسانية فى حاجة إلى قوة تحميه من أعداء الإيمان وأعداء الأخلاق وأعداء الإنسانية، ومن هنا كان الأمر القرآنى باتخاذ الأسباب لبناء قوة تحمى كل هذه القيم وترهب العدو حتى لا يجرؤ على الاعتداء على المجتمع الإسلامى.

وفى ذلك يقول القرآن :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾(٣) .

---

(١) راجع: الشيخ محمد الغزالى : مائة سؤال عن الإسلام ـ الجزء الثانى ص ١٨ ـ القاهرة ١٩٨٤م.

(٢) سورة الشورى : آية ٣٨.

(٣) سورة الأنفال : آية ٦٠.

وهذا من شأنه أن يرفع الروح المعنوية للأمة ويجعلها عزيزة الجانب. ومن هنا كتب الله العزة للمؤمنين، وهى عـزة مرتبطة بالعزة التى كتبها لنفسه ولرسوله كما يقول القرآن الكريم : ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1] فهى من الله يمنحها ويمن بها على من استجاب لندائه وسار على سنة رسوله، يبدلهم من بعد خوفهم أمناً ومن بعد ضعف قوة ومن بعد ذلة عزاً :

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ⑤ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ﴾[2].

وإذا تم للمؤمنين هذا التمكين فى الأرض لا ينبغى لهم أن ينسوا أن ذلك من فضل الله وأنهم مطالبون بأن يؤدوا ضريبة هذا التمكين الإلهى كما قال تعالى :

﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ﴾[3].

٨- التسامح والروح الإنسانية الشاملة :

ويتضح ذلك من العديد من الأمثلة : فالمشركون عندما كانوا مشتبكين فى قتال مع الرسول والمسلمين لم يمنع ذلك الرسول ﷺ من أن يوصى بأسراهم خيراً.

واليهود يعدون من أشد الحاقدين على الإسلام ولكن عمر رضى الله عنه حين يرى الشيخ اليهودى يتكفف الناس يفرض له من بيت مال المسلمين.

وتتجلى تلك الروح الإنسانية الشاملة فى قوله تعالى :

﴿ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا

---

(١) سورة المنافقون : آية ٨.

(٢) سورة القصص : الآيتان ٥ ، ٦.

(٣) سورة الحج : آية ٤١.

﴿فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾[1].

تلك كانت أهم الخصائص العامة التى يتميز بها المجتمع الإسلامى. ولم يكن هدفنا من هذا العرض فى هذه المحاضرة هو الاستقصاء أو التفصيل، وإنما أردنا فقط إبراز بعض الأمثلة، وإلا فهناك خصائص أخرى لا تقل أهمية ولا أولوية عن بعض الأمثلة التى ذكرناها. ومن ذلك ـ على سبيل المثال ـ ما تتميز به الأمة الإسلامية من الوسطية [2]، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والإيمان بالله. وكلها أمور تؤهلها لتكون خير أمة أخرجت للناس، كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم فى قوله تعالى:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[3].

ويندرج تحت هذا الإطار العام الذى عرضناه حول موضوع خصائص المجتمع الإسلامى تفريعات كثيرة ومسائل جزئية عديدة تكفلت الشريعة الإسلامية ببيانها وتوضيحها من جميع جوانبها.



(١) سورة المائدة : آية ٣٢.

(٢) مصداقاً لقوله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾. سورة البقرة : آية ١٤٣.

(٣) سورة آل عمران : آية ١١٠.

خاتمة

وفى نهاية حديثنا عن خصائص المجتمع الإسلامى نود أن نشير فى هذا الصدد إلى نقطتين مهمتين :

أولاً : قد يقول قائل إن النظم الاجتماعية المعاصرة تعرف بعض هذه المبادئ أو كلها وبالتالى فما ميزة المجتمع الإسلامى عندما يأخذ بهذه المبادئ ؟

وللإجابة عن ذلك نقول : إنه لا يوجد نظام فى العالم يحرص على إقامة هذا التوازن وبناء المجتمع على أساس القيم الدينية والإنسانية غير المجتمع الإسلامى الذى شرع له الله ما شرع من مبادئ تحكم مسيرته وهو سبحانه أعلم بمن خلق وهو اللطيف الخبير.

ومن ناحية أخرى فإن ما تشرعه النظم المختلفة من قوانين وتسنه من نظم لتنظيم أمور المجتمع وإقامة العدل بين الناس لا تهتم إلا بالأعمال الظاهرة وليس له علاقة بباطن الإنسان وتقوم على حراسته سلطة خارجية.

أما النظام الإسلامى فإنه ينبنى على العقيدة ويقوم على القيم الإنسانية المتفرعة من هذه العقيدة، ومن هنا فإن الدافع إلى تنفيذ أحكامها وتطبيق تعاليمها ينبع من داخل الإنسان وبرقابة باطنية من ضميره. فالالتزام من أعماق الذات لا من سوط القانون وسلطة الشرطة. فالتوجه حينئذ مجرد من كل غرض إلا وجه الله كما تعبر عن ذلك الآية الكريمة ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴾[١] وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[٢].

ثانياً : أما النقطة الثانية فإنها تتعلق بالصلة بين النموذج والواقع. فقد يتساءل

---

(١) سورة الإنسان : آية ٩.

(٢) سورة الأنعام : آية ١٦٢.

البعض - وبحق -: إذا كـان النظام الإسلامى فى إقامة المجـتمع بهذا السمـو وبهذه المثالية فما بالنا نرى المجتمع الإسلامى فى عصرنا الحاضر مجتمعاً متخلفاً يسير فى مؤخرة الركب ؟ ومـا بال تلك الفجوة الكبيرة بـين النموذج والواقع ؟ وإذا كانت مبادئ الإسلام فى تنظيم أمور المجتمع سليمة وكفيلة بضمان السعادة للبشر فما بال المسلمين فى حال لا يسر صديقاً ولا عدواً ؟

وتلك أسئلة لهـا ما يبررها ولكن يجب التـمييز بين الواقع المتـدنى للمسلمين وبين تعاليم الإسلام، فالتـخلف القائم فى المجتمع الإسلامى يعد عقوبة مـستحقة على المسلمين من الإسلام لتخليهم عنه لا لتمسكهم به كما يظن بعض الجاهلين.

ومن ناحية أخرى فإن صلاح حال المسلمين بأيديهم ولن ينزل عليهم ذلك من السماء فلا بد أن يغيروا أولاً من أحوالهم حتى يمكن أن يأتيهم مدد السماء :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾[1].



(١) سورة الرعد : آية ١١.

الفصل الثالث

رؤية إسلامية
للمسئولية العالمية المعاصرة

ويتضمن هذا الفصل :

أولاً : مدخل : المسئولية المعاصرة.

ثانياً : المسئولية المعاصرة عن العالم فى نظر الإسلام:

١ ـ المسئولية فى نظر الإسلام.

٢ـ الإنسان خليفة الله فى الأرض.

٣ـ الصورة القرآنية للعالم :

(أ) العقيدة.ووحدة البشرية : الوحدة فى العقيدة.

(ب) حرية الإنسان ومصيره.

(ج) الإيمان والمسئولية.

(د) دوائر المسئولية.

رؤية إسلامية للمسئولية العالمية المعاصرة[1] :

أولاً – مدخل : المسئولية المعاصرة :

إذا تأملنا فى عالمنا المحيط بنا فإننا نلاحظ الكثير من التغيرات الأساسية التى طرأت عليه؛ ويرجع السبب فى ذلك إلى إننا نحن البشر قد تغيرنا، فبعد أن كانت كل أمة تعيش فى ظل حضارة واحدة خاصة بها ومحاطة بحمايتها ومستقرة تحت لوائها نجد أننا نعيش اليوم فى عالم متداخل الثقافات متشابك الحضارات.

وقد اهتزت القواعد القديمة للجماعات بصورة حادة وأصبح لزاماً على الجميع فى كل مكان فى عالم اليوم أن يوطنوا أنفسهم على التعايش مع أناس مختلفين فى حضارتهم وأديانهم اختلافاً عظيماً. فالجماعات التى كان ينظر إليها أيضاً فى السابق على أنها جماعات غريبة ، أو ما يزال ينظر إليها أيضًا حتى اليوم فى مناطق كثيرة من العالم على أنها جماعات غير منتمية أو حتى معادية ـ كما تؤكد ذلك الأحكام المسبقة التى ما تزال شائعة ـ لم يعد فى الإمكان رفض هذه الجماعات بصفة عامة، بل أصبح لزاماً على المرء أن يبذل جهده فى فهمها وتقبلها على الأقل بدرجة معينة. وقد أصبح فعل ذلك أمراً ضرورياً حتى يمكن تفادى الانهيار القاتل لسفينة هذا العالم.

والسؤال الذى يمكن أن يفرض نفسه فى هذا الصدد هو :

هل المطلوب ـ إذن ـ أن نكون فى مستوى «فوق الحضارة» ـ إذا صح هذا التعبير ـ أى: فى مستوى يرتفع فوق الحضارات الخاصة، أم أن المطلوب هو أن نزداد تأصلاً ورسوخاً فى حضارتنا الخاصة التى يمثل الدين نواتها فى كل الأحوال ؟

---

(١) أصل هذا البحث قدم باللغة الألمانية للملتقى الأديان فى سانت ميرجن ـ فرايبورج بألمانيا الغربية فى نوفمبر ١٩٨٦م وقامت بنشره فى نهاية عام ١٩٨٧م دار نشر هردر Herder الألمانية المعروفة تحت عنوان: "Heutige Weltverantwortung in islamischer Sicht" وذلك ضمن كتاب ضم بحوث الملتقى المذكور.

ألسنا سوف نتبين في الحالة الأخيرة أيضاً أننا جميعاً في نهاية المطاف نضرب بجذورنا في ذات الأرض ويرتفع نمونا عالياً تحت سقف سماء واحدة ؟

لقد تمت زحزحة الفرد فى العالم المعاصر إلى مستوى السطحية والعزلة عن طريق الصورة الآلية الميكانيكية والمادية للعالم بشكل لم يسبق له مثيل، ويحاول الفرد الذى يعيش فى ظل هذه الظروف أن يعود مرة أخرى إلى جذوره فى حضارته الخاصة أو البحث عن إجابات عن الأسئلة التى تقلقه لدى الحضارات الأخرى.

ولكننا فى نهاية الأمر لن نستطيع العثور على ما ننشده من إجابات إلا إذا نهضنا لتحمل عبء المسئولية الملقاة على عاتقنا. وهنا يبرز سؤال مهم هو :

أمام من ومن أجل من نحن مسئولون ؟ وكيف أتوصل إلى مسئوليتى تلك ؟

إن الإنسان المعاصر ـ الذى بات قلقاً على مصيره ـ أصبح ينقض فى ليلة ما قام بنسجه من أفكار فى نهاره ﴿ **كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا** ﴾(١) أو كما كانت تفعل بنيلوبىPenelope فى الأسطورة اليونانية المعروفة (٢)، ويتمسك هذا الإنسان المعاصر ـ من ناحية ـ بحريته، ولكنه ـ من ناحية أخرى ـ لا يستطيع أن يظفر بهذه الحرية إلا إذا تم ربطها بأصلها، أى: بخالقها وهو الله.

---

(١) سورة النحل : آية ٩٢.

(٢) يلاحظ أن هذا البحث قد أعد فى الأصل ليخاطب الأوروبيين، ومن هنا يأتى الاستشهاد أيضاً بما هو معروف فى ثقافتهم.

وبنيلوبى المشار إليها كانت ـ كما ورد فى ملحمة هوميروس الشهيرة المسماة بالأوديسة ـ ملكة وزوجة لأودوسيوس Odysseus ملك إيتاكا Ithaka. وكان هذا الملك قد خرج لمحاربة أعدائه فى طروادة وطالت غيبته حتى ظن أنه قد مات. وفى أثناء غيابه الطويل تقدم إلى زوجته بنيلوبى كثير من العشاق يطلبون الزواج منها قائلين أن زوجها لن يعود مرة ثانية. ولكنها وفاء منها لزوجها كانت تمنى كلاً منهم بموافقتها بعد الانتهاء من نسج بساط كانت قد بدأت فى صنعه. وكانت فى الليل تقوم باستمرار بنقض كل ما نسجته فى النهار حتى تظل وفية لزوجها تنتظر عودته. وقد عاد أودوسيوس بعد ذلك وانتقم من كل العشاق الذين ضايقوا زوجته أثناء غيابه.

وينبغي أن يكون واضحاً تمام الوضوح لكل إنسان عاقل أنه يجب علينا جميعاً أن نسلك سلوكاً مسئولاً، لأن السلوك غير المسئول يرتد إلينا في النهاية فى أية صورة من الصور. فالعمل غير المسئول يترتب عليه فى عالمنا المعاصر كوارث مفزعة لا يمكن تفادى أخطارها، نظراً لأنه قد أضحى عالماً صغيراً اختصرت فيه المسافات وتطورت فيه وسائل الاتصال إلى درجة مذهلة.

أجل ، إن الأمر قد يعنى فى بعض الأحوال انحلال العالم وانهياره؛ ومن هنا يدخل العالم أيضاً ـ بمعنى من المعانى ـ فى دوائر مسئولياتنا الكثيرة.

والأمل الذى كان يحلم به المثاليون فى كل العصور ـ والذى يتمثل فى تحقيق الأخوة لكل البشر وتحقيق السلام للجميع ـ هذا الأمل قد أصبح اليوم يمثل بصفة عامة ضرورة تحظى بالاعتراف والتأييد بصورة لم تكن قائمة من قبل.

ولكن هل يعنى ذلك أننا قد اقتربنا حقاً من تحقيق هذا الأمل أيضاً ؟

وكيف يمكن للفرد أن يسهم بنصيب فى هذا الصدد ؟

إننا جميعاً، بوصفنا أعضاء فى المجتمع الكبير الذى هو العالم، يعتمد بعضنا على بعض ـ كما هو واضح للجميع ـ ومن أجل ذلك فنحن مطالبون ـ كل فى موقعه ـ بأن نتحمل مسئولياتنا عن عالمنا الذى نعيش فيه.

ولكن كيف نفى بهذا المطلب ؟ وأين هى الصورة الكلية للعالم التى يمكن أن تشبع تطلعات العقل الحديث الذى ينقض باستمرار نسيج أفكاره. تلك الصورة التى من شأنها أن توجه كل فرد إلى مسئوليته بشكل محدد تمام التحديد ؟

وما معنى المسئولية عن العالم فى حقيقة الأمر ؟ وكيف يمكن أن يسهم الفرد بنصيب في تحمل المسئولية عن العالم كله وهو الذى يتحمل بالفعل بدرجة كافية مسئوليته عن نفسه وعن أعماله أيضاً ؟

إننا إذا نظرنا من منطلق مراقب خارجى إلى مسألة الربط بين المسئولية الذاتية والمسئولية العالمية، فإنه يمكن الإجابة عنها ببساطة على النحو التالى :

إن كلاً من هاتين المسئوليتين مرتبط بالآخر، فكل منهما متضمن فى الآخر. ونظراً إلى أن كل فرد منا عندما يتصرف حتى فى أخص خصوصيات أفعاله فإن تصرفه يكون فى داخل هذا العالم ولا يتم إطلاقاً فى فراغ، بمعنى أنه لا يتم فى مكان غير مرتبط بالعالم. ونظراً إلى أننا نعيش اليوم فى عالم مفتوح وفى مجتمعات تخضع لتأثيرات عالمية فإن المسئولية الذاتية تعد إذن - بمعنى معين - مسئولية عالمية. فكل تصرف فردى يجر وراءه دوائره الأخرى، كما أن رفض التصرف يعد أيضاً تصرفاً وله نتائجه التى تترتب عليه.

ولكن هل الشعور المستمر بضرورة المسئولية العالمية يكفى وحده لإنتاج هذه المسئولية ؟

إن من الواضح أن الإجابة عن ذلك ستكون بالنفى، وإلا فكيف يمكن أن يحدث فى عصرنا الراهن اقتراف أبشع أنواع الجرائم وأشد أعمال العنف منافاة للمسئولية والإنسانية على السواء باسم المسئولية عن العالم وباسم الأخوة بين البشر؟

هل يوجد هناك اليوم طريق مستقيم - ليس فقط على المستوى النظرى بل على المستوى العملى أيضاً - لسلوك مسئول مسئولية عالمية ؟

وعلى هذا النحو يمكن صياغة مشكلة المسئولية العالمية من منظور مراقب خارجى يرصد الأحداث. ولكننا لسنا مراقبين خارجيين لأننا نحن أنفسنا نقف فى وسط الأحداث.

فكيف يكون الوضع - إذن - من الداخل من خلال موقف فكرى، أى : من موقف كل فرد منا ؟

إن كل فرد منا عليه أن يوجه إلى نفسه هذا السؤال. ومن الواضح أن هذا أمر يتطلب الصبر وطول النفس.

والإجابة عن هذا السؤال - بالنسبة لنا نحن المسلمين - تنبثق بطبيعة الحال من

منظور إسلامى. ولكن ذلك لا يعنى منظوراً محدوداً أو صالحاً فـقط لجماعة معينة وإنما يعنى منظوراً كلياً شاملاً. وهذا ما سنحاول توضيحه فى السطور التالية :

ثانياً ـ المسئولية المعاصرة عن العالم فى نظر الإسلام:

١ - المسئولية فى نظر الإسلام :

لعلنا نستطيع أن نـقترب من الإجابة عن السـؤال المطروح حول المسئـولية عن العالم إذا تأملنا ـ عن قرب ـ كلمة مسئولية التى يدور الأمر هنا حولها.

إن الفعل «سأل» يعنى التوجه إلى طرف آخر بطلب أو مناشدة أو نداء يتطلب جواباً، ولهذا يقال ـ كما فى القاموس المحيط ـ : « أسأله سؤله ومسألته: قضى له حاجته ».

والله سبحانه وتعالى يقول فى القرآن الكريم للنبى ﷺ :

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[1].

وقد يكون النداء منبعثاً من داخل الإنسـان لا من خارجه. ومن الفعل «سأل» اشتـقت كلمة «المسئـولية». وتحمل المسـئولية ـ على هذا ـ يعـنى إعطاء رد إيجابى على النداء الذى يتضمنه السؤال. والتحلـل من المسئولية فى المقابل يعنى إعطاء رد سلبى على هذا النداء.

والمسئولية من الصفات التى تلازم صاحبـها من قبل أن يبدأ الفعل إلى ما بعد انتهائه فى مراحل متدرجة على النحو التالى :

(أ) مرحلة ما قـبل الفعل : وهى مرحلة نداء الواجب للشخـص ومطالبته له بالعمل. والمسئولية هنا تنظر إلى المستقبل فهى مسئولية تكليف ومطالبة.

(ب) مرحلة الإجابة لهذا النداء بالإيجاب أو السلب.

(ج) مرحلة المحـاسبة والتـقدير لقيـمة هذه الإجابة. وتأتـى هذه المرحلة بعد الفعل. والمسئولية هنا تلتفت إلى الماضى فهى مسئولية استجواب ومحاسبة.

---

(١) سورة البقرة : آية ١٨٦.

والإلزام الأدبى الذى ينطوى عليه نداء الواجب للشخص ومطالبته له بالعمل يعنى أن ذلك الشخص الذى يوجه إليه النداء له شخصيته المستقلة وله حريته فى القبول أو الرفض وله قدرته على تنفيذ ما استقرت عليه إرادته. والمسئولية ـ بهذا المعنى ـ صفة تشريف لأنها مرادفة لمعانى الحرية والاستقلال والكرامة والقوة (١).

وإذا كان مفهوم المسئولية يتضمن ـ كما رأينا ـ الإجابة على النداء إيجاباً أو سلباً فإن هناك العديد من الأسئلة التى تفرض نفسها عندئذ والتى تتمثل فيما يلى:

لمن أقدم هذه الإجابة ؟ ومن هو الذى ينادينى لأجيب نداءه ؟ وكيف أتوصل إلى تحديد مصيرى بنوع الإجابة ؟ وكيف أجيب ؟ وكيف ينبغى علىَّ أو كيف أستطيع أن أعرف فى حقيقة الأمر أنى أسلك بالفعل حال الإجابة سلوكاً مسئولاً ؟

إننى إذا نظرت إلى هذا العالم بوصفه الحقيقة النهائية وليس بوصفه مجرد مرحلة أو مقدمة لعالم آخر بعد هذا العالم فإنى لا أستطيع أن أجيب فى حقيقة الأمر عن هذه الأسئلة.

فهذه الأسئلة تعد أسئلة غير قابلة للحل بالنسبة لهؤلاء الذين ليس لديهم وعى دينى متفتح، كما أنها تعد بالنسبة للكثيرين أيضاً أسئلة لا مبرر لها وليس لها وجود حقيقى. وتتحول المسئولية الذاتية لديهم إلى مصلحة ذاتية وقتية أو إلى مصلحة الجماعة على أفضل تقدير. والمسئولية عن العالم بالنسبة لهم هى أيضاً ـ على أفضل الفروض ـ مصلحة عالمية ـ ونظراً لأنهم محصورون فى نطاق الصورة المادية للعالم فإنهم لا يستطيعون أيضاً أن يستمروا فى طرح الأسئلة خارج هذا النطاق. وبذلك ينتمون إلى تلك الفئة التى وصفها القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾(٢).

---

(١) راجع : دراسات إسلامية للدكتور محمد عبد الله دراز، ص ٥٢ وما بعدها ـ دار القلم بالكويت ١٩٨٠م، وانظر أيضاً كتابنا : مقدمة فى علم الأخلاق ص ٣٩ ـ دار القلم بالكويت ١٩٨٣م.

(٢) سورة الأعراف : آية ١٧٩.

صحيح أن هناك كثيرين فى عالم اليوم على وعى بضرورة المسئولية العالمية المشار إليها، تلك المسئولية التى يصادفونها يومياً فى حياتهم، ولكنهم لا يثقون فى أية جهود لحل هذه المشكلة حلاً جذرياً بطريقة معقولة وبدلاً من ذلك ينادون بتصرف أو سلوك « عملى » ولكن دون ميل إلى البحث عن بواعثه عن قرب. تلك البواعث التى قد تكون مثاراً للشكوك.

وعلى العكس من الحيوانات فإننا نحن البشر لا نسير وفقاً لغرائزنا، فنحن كائنات عاقلة. وهذا يعنى أننا نتصرف بحرية بناء على تفكير ونسير طبقاً لما تمليه علينا عقولنا. وهذه الكائنات العاقلة لا تتبع أى قائد بلا وعى كما هو الحال مثلاً مع القطيع من الأغنام الذى يسير خلف قائد القطيع بلا وعى ويحذو حذوه حتى فى الوقوع فى الهاوية.

ونحن بأعمالنا نصنع مصيرنا. وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [(١)].

ونحن أحرار فى أن نسلك سلوكاً عاقلاً أو سلوكاً غير عاقل. وإذا أعملنا عقلنا الواعى وقلبنا الفاهم فإنه ينفتح أمامنا عالم جديد. ولكن إذا اعتبرنا عالم المادة هو الحقيقة النهائية ولم نحاول أن نحكم عقلنا وننظر إلى أبعد من ذلك فإننا سنظل حبيسين فيه أيضاً وسيكون مصيرنا فى النهاية هو الضياع فيه.

ولكن هذا العالم المادى ليس هو الحقيقة النهائية بالنسبة للإنسان المؤمن. ومن هنا فإن الإجابة التى نبحث عنها تعد بالنسبة له أمراً ميسوراً واضحاً تمام الوضوح. فالمسلم الثابت على عقيدته الراسخ فى إيمانه الذى لا يسلم زمام أمره لهذا العالم وإنما يسلم أمره لله وحده لأنه هو الذى يهديه إلى سبيل الرشاد، ومن أجل ذلك

---

(١) سورة الإسراء : آيات ١٣ – ١٥.

فهو سبحانه محل ثقته المطلقة - هذا المسلم يدرك بذلك أنه بسلوكه وأعماله كلها - سواء أكانت أعمال القلب أو أعمال الجوارح - لا يقدم إجابته (التى تتضمن مسئوليته الشاملة) لهذا العالم المادى وإنما يقدمها لله وحده - وهذا ما تعبر عنه الآية الكريمة :

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ ﴾[1].

فالله وحده هو الحقيق بالتوجه إليه والاعتماد عليه وتفويض الأمر كله إليه، فالمرجع والمصير إليه لأنه رب كل شىء :

﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾[2].

وهكذا فإن المطالبة بالمسئولية - فى نظر الإسلام - تعد مطالبة بتقديم إجابة بطريقة حرة. فكل إنسان فى موقعه وفى اللحظة المناسبة عليه أن يصوغ إجابته (مسئولياته) فى حرية. وهنا تكمن الصعوبة أيضاً فى تقديم إجابات جاهزة للآخرين. فالصلة بين الإنسان الفرد والله صلة شخصية مباشرة لا تحتاج إلى واسطة. ومن هنا فإن النموذج المثالى يرفض التقليد إلا إذا كان مبنياً على اقتناع.

والإسلام يحث على الاستقلال فى الفعل، ويؤكد النبى ﷺ هذا المعنى حينما ينهى عن التقليد فى قوله :

« لا تكونوا إمعة : تقولون إن أحسن الناس أحسنا وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا فلا تظلموا » [3].

فكل فرد عليه أن يبحث بنفسه عن الإجابات المناسبة بسلوكه المسئول. ولكن

---

(١) سورة الأنعام : الآيتان ١٦٢، ١٦٣.

(٢) سورة الأنعام : آية ١٦٤.

(٣) رواه الترمذى.

مشكلة الإنسان المعاصر تكمن فى توقفه قبل الأوان عن طرح الأسئلة وفى اعتقاده أنه يملك بالفعل الإجابات التى يبحث عنها.

ونعيد مرة أخرى طرح السؤال الملح من جديد : كيف يقدم الإنسان الإجابة الأصيلة بالسلوك المسئول ولمن يقدمها ؟

إن كل امرئ يتأمل فى موقفه الإنسانى متحرراً من كل الأحكام المسبقة سيتضح له فى النهاية ببصيرة واعية كيف يسلك سلوكاً مسئولاً إذا لم يظل واقفاً عند الإجابات الجاهزة المعطاة سلفاً. فالإنسان قد جيء به إلى هذا العالم من قوة خارجة عنه، وهذه القوة هى التى تحفظه حياً وهى التى تخرجه مرة أخرى من هذا العالم إلى عالم آخر فى وقت مجهول لديه - وقد جاء القرآن الكريم للإنذار والتبشير :

﴿ لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ (١٢) إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) ﴾ (١).

ويوجه القرآن الكريم السؤال للكافرين قائلاً : **﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ﴾** (٢).

إن هناك نداء موجهاً إلى الإنسان - الذى يشعر فى ذاته بأنه مركز عالمه. والموقف الدينى فى هذا الصدد يطلعنا على أن الجهة التى يصدر عنها هذا النداء هى فى الوقت نفسه تلك الجهة التى تجعل للسلوك الإنسانى معنى. فما الذى نعرفه عن هذه الجهة ؟

إننى إذا رأيت صورة من الصور المرسومة أدرك أن شخصاً ما قد قام برسمها، فإذا تأملت العالم من حولى تأملاً واعياً فإنى أرى فيه أثر الخالق. ولكن هذا أمر

---

(١) سورة الأحقاف : الآيتان ١٢، ١٣.

(٢) سورة فاطر : آية ٤٠.

يحتاج إلى قلب فاهم وعقل واع. والإسلام لا يعرف مؤسسات وسيطة بين الله والإنسان. فهناك - فقط - الوحى القرآنى الذى جاءنا عن طريق النبى محمد ﷺ. والقرآن الكريم يقول لهؤلاء الذين يبحثون عن الهداية :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(١).

٢- الإنسان خليفة الله فى الأرض :

وإذا كنا نتحدث عن المسئولية الشاملة فى نظر الإسلام فإن هذا يتطلب معرفة موقف الإسلام من قضية الحرب والسلام بصفة عامة، ويقتضى معرفة دور الإنسان نفسه فى هذا الكون حتى تتضح أمامنا معالم الصورة التى يرسمها الإسلام لتلك المسئولية الكلية.

إننا إذا تأملنا كلمة «إسلام» ذاتها فسنجد أنها مشتقة من الأصل ذاته الذى اشتق منه لفظ «السلام». والإسلام فى جوهره دين جاء لينشر السلام فى العالم. وإذا كان قد شرع الحرب فإن ذلك يأتى فقط فى حدود خدمة هذا السلام وترسيخ قواعده. ومن هنا فإن الإسلام لم يشرع الحرب إلا لصد العدوان.

فالقتال فى سبيل الله - الذى كتبه الله على المؤمنين - لا يجوز أن يوجه إلا ضد هؤلاء الذين يعتدون على المؤمنين ويعكرون عليهم صفو السلام ولا يجوز للمسلمين أن يبدأوا القتال. وفى ذلك يقول القرآن الكريم فى صراحة ووضوح :

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾(٢).

والمسلمون ملزمون بوقف القتال ضد العدو إذا أبدى ميلاً إلى السلام، وذلك استجابة للأمر الإلهى فى قوله تعالى : **﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى**

---

(١) سورة الحديد : آية ٢٨.

(٢) سورة البقرة : آية ١٩٠.

اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[1].

والإسلام لا يكتفى بمنع العدوان ولكنه فى الوقت نفسه يطالب بالعمل الجاد لإقامة السلام والعدل، فليس هناك طريق وسط بين الخير والشر. ومن ليس مع الله فهو فى الجانب المضاد لله. ومن أجل ذلك يقول القرآن الكريم : ﴿ وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ [2] أى : وفى سبيل المستضعفين من الرجال والنساء والولدان.

إن الحياة فى هذا العالم سريعة الزوال والشىء الذى يبقى هو العمل الصالح. ويصور لنا القرآن الكريم أمر هذه الحياة أبلغ تصوير فى قوله تعالى :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (٤٥) الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً (٤٦)﴾[3].

ويقول القرآن فى سورة لقمان :

﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾[4].

فإذا أحببنا هذا العالم فينبغى أن نفعل ذلك ونحن على ذكر من أن كل الخيرات والطيبات التى نتمتع بها فى هذا العالم تأتينا من عند الله، كما يشير إلى ذلك القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ

---

(١) سورة الأنفال : آية ٦١.

(٢) سورة النساء : آية ٧٥.

(٣) سورة الكهف : الآيتان ٤٥ ، ٤٦.

(٤) سورة لقمان : آية ٢٢.

عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾[1].

وفضلاً عن ذلك فإن الله سبحانه وتعالى قد سخر للإنسان كل شىء فى السموات والأرض لعل ذلك يكون داعياً له إلى التفكير فى هذه النعم التى لا تحصى ولا تعد. وفى ذلك يقول القرآن الكريم : ﴿ **وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾[2].

ومن الأمور البديهية فى هذا الصدد أن هذه النعم الإلهية التى أنعم الله بها على الإنسان ترتبط بمطالبة الإنسان ألا يهمل خلق الله المسخر له، بل يجب عليه أن يتحمل مسئوليته فى الاهتمام به والعناية بشأنه. ولهذا فإن مسئولية الإنسان عن هذا العالم تشمل الخلق كله ولا تنصبّ فقط على البشر، بل تشمل أيضاً الحيوان والنبات والأرض كلها. ومسئولية الإنسان إزاء هذا العالم وإزاء الخلق كله - الذى يعتمد عليه الإنسان أيضاً - هذه المسئولية لا ينبغى أن تعرف حدوداً تقف عندها. ولذلك يقول الرسول الكريم ﷺ :

« إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليفعل »[3].

ألا يعنى هذا أننا ما دمنا عاملين على هذا النحو والأمل يحدونا من أجل عالمنا أننا نسلك سلوكاً مسئولاً على مستوى المسئولية العالمية؟

إن الإسلام إذ يطلب من المسلم التوجه إلى الله والخضوع لأمره فإن ذلك لا يعنى على الإطلاق الاعتزال عن هذا العالم أو الانسحاب منه، بل على العكس من ذلك يقتضى هذا الطلب أن يأخذ الإنسان المسلم هذا العالم بوصفه مجالاً لأداء مهمته فى هذه الحياة وبذلك يكون سلوكه على مستوى المسئولية العالمية.

---

(١) سورة الإسراء : آية ٧٠.

(٢) سورة الجاثية : آية ١٣.

(٣) مسند أحمد بن حنبل ج ٣ ص ١٩١ (انظر طبعة اسطنبول : الكتب الستة مجلد ٢٢).

فالإنسان ـ كما يشير القرآن الكريم [1] ـ خليفة الله فى الأرض. وقد أعطى الله العقل للإنسان ليمكنه من أداء المهمة التى أنيطت به فى هذا العالم. والله الذى جعل الإنسان خليفة له فى الأرض هو رب هذا الإنسان ومن أجل ذلك فله حق الطاعة المطلقة على الإنسان. وهذه الطاعة لله هى التى تحدد مصير الإنسان.

والقرآن الكريم يشير إلى أن الإنسان عندما أضله الشيطان وأغراه وعصى آدم أمر ربه كان مصيره الخروج من الجنة، وإحلال العداوة بين بنى البشر محل السلام والسعادة، وفى ذلك يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ **فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ** ﴾[2].

ثم اتجهت عناية الله مرة أخرى للإنسان الذى طرد من الجنة فغفر له وبيَّن له طريق الهداية ووعد السائرين فى هذا الطريق بأحسن العواقب :

﴿ **فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ [3].

إن المؤمن الحق يقف بكليته فى الحاضر لا يخشى المستقبل ولا يحزن على الماضى، وسلوكه سلوك هادف ومسئول وفعال. والمسئولية العالمية أمر لا ينفصل عن تكوين الإنسان وهى التى تميزه تمييزاً جوهرياً عن بقية المخلوقات الأخرى، فقد أبت هذه المخلوقات جميعها أن تتحمل أمانة التكليف والمسئولية بكل ما تحمل من معنى. فقد عرض الله سبحانه على جميع المخلوقات هذه الأمانة وتلك المسئولية ـ عرضها على السموات والأرض والجبال :

﴿ **فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ** ﴾ [4].

وقد عقب القرآن على ذلك مباشرة بقوله عن الإنسان فى هذا الموقف :

---

(١) انظر سورة البقرة : آية ٣١.

(٢) سورة البقرة : آية ٣٦.

(٣) سورة البقرة : آية ٣٨.

(٤) سورة الأحزاب : آية ٧٢.

﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾. وقد تعجَّب الملائكة حين أخبرهم الحق تبارك وتعالى بإرادته التى قضت بجعل الإنسان خليفة فى الأرض فقالوا : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ [1] ، وقد أجابهم الله سبحانه بقوله : ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ [2] فقد علَّم آدم الأسماء كلها[3] ومنحه عقلاً يعرف به طبيعة الأشياء.

٣- الصورة القرآنية للعالم :

(أ) العقيدة ووحدة البشرية : الوحدة فى العقيدة :

نحن جميعاً ندرك مدى ما يعانيه الإنسان من التمزق أو الانشقاق الداخلى ويرجع السبب فى هذه المعاناة إلى أن الإنسان ـ من ناحية ـ قد أبى إلا أن يتحمل المسئولية التى أشفقت من حملها السموات والأرض بما يترتب عليها من تبعات ضخام فى إقامة العدل وإقرار الحق والالتزام التام لأمر الله، ومن ناحية أخرى نجده واقعاً تحت ضغوط عديدة من الشهوات والميول والنزعات وقصور العلم وقصر العمر وحواجز الزمان والمكان، والتى تحول جميعها دون المعرفة الكاملة ورؤية ما وراء الحواجز والآماد. ومن هنا كان الإنسان ظلوماً لنفسه، جهولاً لطاقته [4] فكيف السبيل إلى حل هذا الإشكال ؟

يقول القرآن الكريم فى هذا الصدد :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [5].

فالله سبحانه وتعالى ـ الذى يعلم كل صغيرة وكبيرة فى هذا الوجود ويعلم خطرات النفس وما تخفى الصدور ـ لن يخفف عن الإنسان ضغط هذه المعاناة إلا

---

(١) ، (٢) سورة البقرة آية : ٣٠.

(٣) انظر سورة البقرة : آية ٣١.

(٤) راجع : فى ظلال القرآن لسيد قطب ج ٥ ص ٢٨٨٤ وما بعدها ـ طبعة دار الشروق.

(٥) سورة الرعد : آية ١١.

إذا اتجه إليه الناس فى كل سلوكهم وفكرهم وأعمالهم وعادوا مرة أخرى مقرين بربوبيته وحده سبحانه . . ذلك الإقرار الذى هو مغروس أصلاً فى فطرتهم، كما يعبر القرآن الكريم عن ذلك فى قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ [١].

والصورة القرآنية للعالم تشتمل على المؤمنين فى جانب، والكافرين والمنافقين فى الجانب الآخر. يقول الله تعالى : **﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾** [٢].

ولكن هاتين الجماعتين من المؤمنين والكافرين ليستا منفصلتين انفصالاً تاماً عن بعضهما البعض؛ فالطريق إلى الإيمان مفتوح باستمرار أمام الجميع لأن الله غفور رحيم . . وطريق الإيمان مفتوح لكل الناس لأن هناك وحدة أساسية قائمة بين الناس جميعاً. ويشير القرآن الكريم إلى هذه الوحدة فى كثير من الآيات، ففى سورة النساء مثلاً نقرأ قول الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ [٣].

ونظراً لأن الله قد خلق الناس جميعاً من نفس واحدة فإن المؤمن بطبيعته منفتح ـ بصفة أساسية ـ على العالم وعلى غيره من الناس الذين يشكلون الأجزاء الكثيرة الأخرى لذاته هو ـ إن صح التعبير.

وهكذا يمكن القول بأن السلوك المسئول للإنسان يعنى خطوة متقدمة على طريق وحدة البشر وذلك بتحقيق معرفة هذه الوحدة فالجميع أبناء آدم.

---

(١) سورة الأعراف : آية ١٧٢.

(٢) سورة البقرة : آية ٢١٢.

(٣) سورة النساء : آية ١.

ومعـرفة الوحدة النهائيـة لكل البشر تسـير ـ جنباً إلى جنب ـ مع تحـقيق هذه الوحدة فى ترابط ووئام وحب مـتبادل مع إخـواننا فى الإنسانية ويتـمثل ذلك فى سلوكنا المسئول.

وبمعرفتى للوحدة الأساسيـة مع كل الناس ـ عن طريق ارتباط نفسى بنفوسهم وعن طريق انفتاح وعيى الدينى ـ يتـحول بذلك سلوكى إلى سلوك مسئول، أى : سلوك واع بمسئوليته مدرك لواجباتها.

والإنسان المتدين تتحقق معرفته لوحدته مع كل البشر باستعادة معرفة ذاته فيهم واعتبارهم صنـواً له، وبالسعى المستمر ـ عن طريق السلوك المسئـول ـ إلى التسامح والود وفهم الآخـرين وفهم مـعاناتهم، والصـبر ـ الذى لا يكل ـ مع نفـسه ومع الآخرين.

والمسئولية الذاتية ـ إذا فُهمت فهماً سليـماً ـ تعد دائماً مسئولية ذاتية أمام الله، وبهذا المعنى تعـد أيضاً مسـئولية عالمـية فقد خلق الله الخـلائق الكثيرة والشـعوب العديدة لكى « يعرف » بعضهم بعضاً. وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ (١).

ولو أراد الله سبحانه أن يجعل الناس جمـيعاً أمة واحدة لفعل، ولكنه أراد أن يختبر الخلق بهذه التعددية القائمة :

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ﴾(٢).

وعلى الرغم من كل الاخـتلافات الكثـيرة بين الناس فإنهم فى حـقيقـة الأمر متساوون، وهم جـميعاً أمام الله سواسية كـأسنان المشط، وهم يتفاضلون فقط فى درجة التقوى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (٣).

---

(١) سورة الحجرات : آية ١٣.

(٢) سورة المائدة : آية ٤٨.

(٣) سورة الحجرات : آية ١٣.

وفى الحديث الشريف يقول الرسول ﷺ :

« يا أيها الناس : ألا إن ربكم واحد، وأباكم واحد، ألا لا فضل لعربى على أعجمى، ولا لعجمى على عربى، ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى »[1].

والإسلام يطلب منا أن نحقق وحدة الإنسانية وأن نخرجها من حيز الإمكان إلى حيز الوجود الفعلى، وأن نتوصل إلى السلام، بالأخوة فى العقيدة.

ومسئوليتنا التعبدية فى الإسلام ـ المنبثقة من الهدف الكلى للخلق المتمثل فى العبادة كما تشير إلى ذلك الآية الكريمة :

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ﴾[2] .

هذه المسئولية التعبدية تعد أيضاً مسئولية عالمية تشمل كل المخلوقات، والبشر منهم على وجه الخصوص بوصفهم خلفاء لله فى الأرض مثلنا، وهم بذلك أخوة لنا.

(ب) حرية الإنسان ومصيره :

يشير القرآن الكريم إلى أننا لا نستطيع أن نجبر أحداً من الناس على الإيمان بالله، فقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يترك ذلك لإرادتهم الحرة.

وفى ذلك يقول القرآن الكريم : **﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾[3].**

وفى موضع آخر يقول القرآن الكريم :

---

(١) انظر مسند الإمام أحمد ج ٥ ص ٤١١ (المكتب الإسلامى للطباعة والنشر ـ بيروت) انظر أيضاً سنن الترمذى ج ٤ ص ٣٨٩ ـ طبعة اسطنبول للكتب الستة مجلد ١٤.

(٢) سورة الذاريات : آية ٥٦.

(٣) سورة يونس : آية ٩٩.

﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾(١).

ولكن حرية الإنسان ليست حرية مطلقة؛ فالإنسان يستطيع أن يختار بين الخضوع لإرادة الله الذى خلقه أو البحث لنفسه عن أرباب آخرين. وفى هذه الحالة الأخيرة يكون مصيره الضياع والخسران. أما كون حرية الإنسان ليست بالحرية المطلقة فإن ذلك يرجع إلى أنها محددة عن طريق إرادة الله، ولكن هذا التحديد لا يعنى إلغاءها، فإرادة الله ذاتها هى التى جعلتها حرة.

حقاً يقول القرآن الكريم : ﴿كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (٥٤) فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ (٥٥) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ (٢). ولكن هناك بعض الإشارات التى تدلنا على كيفية فهم ذلك فهو سبحانه ـ كما تقول تكملة الآية السابقة ـ :

﴿ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴾.

فالله يطلب منا أن نخشاه ونتقيه وأن نمتثل لإرادته، ولكنه فى الوقت نفسه هو الغفور الرحيم الذى بيده غفران الذنوب جميعاً ما عدا الشرك :

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾(٣).

ومن ذلك يتضح لنا أن الله سيتجه بغفرانه وعفوه إلى كل من يتجه إليه ويلجأ إليه : ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (٤) ، ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (٥).

أما من يتجه بكليته إلى هذا العالم المادى ويسلم قياده إليه ويُعرض عن التوجه إلى الله فإنه ـ بعمله هذا ـ يكون قد حدد مصيره بنفسه:

---

(١) سورة الكهف : آية ٢٩.

(٢) سورة المدثر : آيات ٥٤ ـ ٥٦.

(٣) سورة النساء : الآيتان ٤٨ ، ١١٦.

(٤) سورة غافر : آية : ٦٠.

(٥) سورة البقرة : آية ١٨٦.

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (١٢٦) ﴾ [١].

وإذا كان هذا هو مصير من اتجه إلى غير الله فإن للمؤمن مصيراً مختلفاً، لأنه يدرك بنور إيمانه وبصيرته ما لا يدركه الجاحد. فالمؤمن يدرك أن أصله الحقيقى لا يكمن فى تجميع تصادفى أو عشوائى لأية خلايا، فهذه الخلايا ذاتها لا تستطيع بذاتها أن تخلق ذاتها فضلاً عن أن تقوم بمثل هذا العمل التجميعى.

والله وحده هو الذى خلقنا وخلق كل شىء وقدَّره تقديراً، وهو الذى يحفظ حياة كل شىء، إنه سبحانه ذو القدرة المطلقة التى يخضع لها كل شىء فى السموات والأرض، والتى يتجه إليها الإنسان عندما تحيط به النوائب، ومن أجل ذلك فلا بد أن يكون مسئولاً أمامها عن كل أعماله.

ويدرك المؤمن كذلك أن عالم المادة ـ الذى يمكن إرجاعه أيضاً إلى الطاقة طبقاً لأحدث النتائج التى توصل إليها علماء الطبيعة ـ لا يشكل الواقع الحقيقى. ومن أجل ذلك يدرك المؤمن أيضاً أن الصراع من أجل أشياء هذا العالم المادى ـ هذا الصراع الذى يؤلب الناس ضد بعضهم بعضاً ويجعلهم متعادين ـ يعد صراعاً انتحارياً. فنحن ندمر أنفسنا إذا أخذنا أشياء هذا العالم المادى على أنها الهدف الأخير.

وبدلاً من أن نخسر ذاتنا فى هذا العالم ونبيع له أنفسنا لنصبح مستبعدين لأشيائه ينبغى علينا ـ على العكس من ذلك ـ أن نبيع هذا العالم الأرضى فى سبيل العالم الآخر، وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ﴾ [٢].

---

(١) سورة طه : الآيات ١٢٤ ـ ١٢٦.

(٢) سورة النساء : آية ٧٤.

وهكذا نرى أن الجهاد في سبيل الله هو فقط لهؤلاء الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة. فهناك - إذن - طريقان فحسب أمام الإنسان: طريق الخير وطريق الشر. فإذا لم نجاهد في سبيل الله فنحن نجاهد في سبيل الشر. وهذا ما تعبر عنه الآية الكريمة في وضوح تام في قول الله تعالى:

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾[1].

ولكن إذا قلنا إن هذا العالم لا ينطوى على شيء يمكن اعتباره هدفاً نهائياً فليس معنى ذلك أن الإسلام يحتقر هذا العالم. فالأمر على العكس من ذلك تماماً. فهذا العالم الذى خلقه الله وأنعم به علينا هو مجال التزاماتنا وهو مسئوليتنا، فطريقنا إلى الله يمر عبر هذا العالم.

أما الصياغة الإسلامية للمسئولية الذاتية وللمصير الذاتى للإنسان فتعبر عنها الآية الكريمة: **﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلا نَفْسَكَ﴾**[2].

فالإنسان مطلوب منه أن يجاهد في سبيل الله، وهو في ذلك لا يتحمل إلا مسئولية عمله. ويدخل ضمن هذه المسئولية الذاتية وهذا المصير الذاتى للإنسان اعتبار الآخر صنواً لنا نحب له ما نحب لأنفسنا ونكره له ما نكرهه لأنفسنا ما دام هذا الآخر مشاركاً لنا في الجهاد في سبيل الله ومن أجل خير هذا العالم. ولهذا يقول النبى ﷺ:

«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[3].

(ج) الإيمان والمسئولية:

إن المؤمن الذى يبحث لنفسه عن السبيل إلى ترسيخ عقيدته وتعميقها والحفاظ

(١) سورة النساء: آية ٧٦.

(٢) سورة النساء: آية ٨٤.

(٣) رواه مسلم في صحيحه ج ١ ص ٦٧ (انظر الكتب الستة مجلد ٤ طبعة اسطنبول).

عليه باستمرار ينبغى عليه أن يفعل الشىء ذاته بالنسبة لإخوانه فى العقيدة. ومن هنا تتضح مسئولية الذين وهبهم الله العلم والمعرفة فى تبصير غيرهم وتنوير طريقهم. والإسلام من أجل ذلك يقارن جهود العلماء بدماء الشهداء، فقد ورد فى حديث شريف :

« يوزن يوم القيامة مداد العلماء ودم الشهداء فيرجح مداد العلماء على دم الشهداء »[1].

وهذا الموقف الذى يتخذه الإسلام إزاء العمل العلمى لا يفهم إلا إذا أدرك المرء أن العلم فى الإسلام يجب أن يكون مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً ـ باستمرار ـ بالاستعداد الحقيقى لتحمل مسئولياته.

والملاحظ فى عالم اليوم الذى وصل فيه التقدم العلمى إلى درجة مذهلة ـ أن غياب المسئولية الأخلاقية فى مجالات العلوم والتكنولوچيا، وفى التقدم بصفة عامة يؤدى إلى أخطار عظيمة تهدد البشرية كلها بالدمار.

وفى تاريخ حياة العلماء المسلمين ـ سواء أكانوا علماء فى الدين أو فى الفلسفة أو فى الرياضيات أو فى الطب أو فى أى مجال آخر من مجالات العلوم ـ يرى المرء أنهم كانوا دائماً حريصين على التوقف عن أعمالهم عندما يحين وقت الصلاة ليقوموا بأدائها حتى يظلوا فى صلة دائمة مع الله تذكرهم بمسئولياتهم الملقاة على عاتقهم، فالعلم ينبغى أن يكون مرتبطاً على الدوام بالأخلاق. والعقيدة والأخلاق متلازمتان لا انفصام بينهما وتشكلان وجهين لعملة واحدة.

وقد لخص النبى ﷺ رسالته كلها فى عبارة جامعة حين قال :

« إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[2].

---

(١) راجع : جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ص ٣٧ ـ المكتبة السلفية بالمدينة المنورة (١٩٦٨م). وقد رواه ابن الجوزى فى كتاب العلل (راجع فيض القدير مجلد ٦ ص ٤٦٦ ـ دار المعرفة ـ بيروت ١٩٧٢م).

(٢) رواه البخارى فى كتاب الأدب المفرد.

ومن هذا المنطلق يعـد الموقف اللا أخـلاقى أو الإلحادى لـبعض العلمـاء فى العصر الحـديث والذى أنتج عالماً يسوده الرعب والفزع ـ يعـد موقفاً مـرفوضاً من العالِم المسلم. والمطلوب من العالِم المسلم ـ على عكس الموقف المشار إليه ـ هو أن يوجه جهوده العلمية نحو السعى فى نشر السلام فى العالم باعتبار ذلك غاية نهائية لهذه الجهود العلمية، ويتحقق ذلك بالجـهاد فى سبيل الله ضد نفسه وضد الظلم، وبعبارة أخرى: يتحقق ذلك بالجهادين الأصغر والأكبر.

ومن ذلك يتـضح لنا أن الإسلام لا يعنى رفـضاً لهـذا العالم أو تخليـاً عنه. فالاتجاه المطلق إلى الله والتـسبيح المستمر والتقـديس الدائم من الأمور التى تختص بها الملائكة. أمـا الإنسان فإنه مطلوب منه أن يسلـم نفسه لله، ومن ناحيـة أخرى مطلوب منه أيضاً أن يمارس وظيفته فى هذا العـالم بوصفه خليفة الله فى الأرض. ومن أجل ذلك أصبح متفوقاً على الملائكة الذين طُلب منهم ـ لذلك ـ أن يسجدوا لآدم [١].

والناس جميعاً ـ بالنسبة للمسلم الملتزم بعقيدته - يعدون إخوة بصفة أساسية، غير أن المنافقين والكافـرين قد عزلوا أنفسهم بأنفسـهم من هذه الأخوة. فقد خلق الله الناس شعـوباً وقبائل ليتـعارفوا، أى : لكى يحاول كل منهم أن يفـهم الآخر ويحترمه، والفرق الوحيد الذى له اعتباره فى هذا الصدد يتمثل فى درجة التقوى. فأفضل الناس لدى الله هو أكثرهم عدلاً وأكثرهم صلاحاً، أى : أتقاهم [٢].

والإيمان الشكلى لا يدخل صاحبه فى عداد المؤمنين الحـقيقيين. ومن هنا يقول القرآن الكريم فى شأن هؤلاء الشكليين : ﴿ **قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ** ﴾[٣].

فعلامات الإيمان الحق هى تلك التى وردت فى سورة البقرة فى قوله تعالى :

---

(١) انظر سورة البقرة : آية ٣٤.

(٢) انظر سورة الحجرات : آية ١٣.

(٣) سورة الحجرات : آية ١٤.

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (١).

وأعمال الإنسان لا تذهب سدى ، فالله سبحانه يعلم كل شىء، وكل أعمال الإنسان مسجلة له أو عليه، ونتيجة هذه الأعمال تعود على صاحبها فى نهاية الأمر - إن خيراً فخير وإن شراً فشر - :

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ (٢).

والسؤال فى هذا المقام هو : كيف يجد المؤمن طريقه فى عالمنا المعاصر، وكيف يتحمل مسئوليته العالمية المعاصرة فى عالم توجه إليه فيه من شتى الجوانب مطالب والتزامات مختلفة أشد الاختلاف.

لقد جاء القرآن الكريم ليبين للمؤمنين الطريق المستقيم ويوجههم إلى سبيل الهدى والرشاد، فهو رحمة وشفاء، كما جاء فى قوله تعالى :

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣).

وقد سبق أن أشرنا إلى أن معيار التفاضل بين الناس يتمثل فى درجة التقوى. وتتمثل هذه التقوى فى أن يتجه المؤمن إلى عبادة الله الذى خلقه، وأن يرجو غفرانه ورحمته، وأن يتجه إليه بالتوبة، وأن يدعوه ويلجأ إليه فى كل وقت فالله دائماً على استعداد لأن يجيب دعاء من يدعوه.

وفى هذا الصدد يقول القرآن الكريم على لسان صالح عليه السلام :

﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ (٤).

---

(١) سورة البقرة : آية ٢٨٥.

(٢) سورة الجاثية : آية ١٥ (انظر أيضاً سورة الإسراء : الآيات ١٣ - ١٥ ، وسورة فصلت : آية ٤٦).

(٣) سورة الإسراء : آية ٨٢.

(٤) سورة هود : آية ٦١.

وحياة المؤمن كلها ينبغى أن تكون عبادة متواصلة وذكراً مستمراً لله فذلك هو طريق الفلاح : ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (١).

ومن هنا يعطى الإسلام للممارسة العملية للعقيدة فى حياة الناس ومعاملاتهم اليومية نفس الأهمية التى يعطيها للأسس الخمسة التى يقوم عليها الإسلام وهى الشهادة وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان والحج إلى بيت الله الحرام.

ويؤكد القرآن الكريم ذلك فى قوله تعالى :

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢).

وهكذا لا يجوز قصر مفهوم العبادة فى الإسلام على المعنى الضيق الذى يعنى أداء الشعائر الدينية المعروفة. فكل عمل يقوم به المسلم فى حياته اليومية ـ دينياً كان هذا العمل أم دنيوياً ـ يعد عبادة ما دام قد قصد به وجه الله تعالى والقيام بحق الناس استجابة لطلب الله تعالى بإصلاح الأرض ومنع الفساد.

ومن هذا المنطلق نجد الإسلام يحث المسلم على الانتشار فى الأرض والعمل ابتغاء وجه الله حتى فى يوم الجمعة، تقديراً من الإسلام لقيمة العمل الذى لا تقوى الحياة إلا به.

يقول القرآن الكريم فى ذلك :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾ (٣).

وقد روى أن النبى ﷺ رأى رجلاً يتحامل على الناس فسأل عنه فقيل : هذا عابدنا. فقال عليه السلام : « ومن يؤكله ؟ »، قالوا : كلنا يؤكله. فقال عليه السلام : «كلكم خير منه» (٤).

---

(١) سورة الجمعة : آية ١٠.

(٢) سورة الأنعام : آية ١٦٢.

(٣) سورة الجمعة : آية ١٠.

(٤) راجع : معالم الثقافة الإسلامية للدكتور عبد الكريم العثمان، ص ١٤٩ مؤسسة الرسالة ١٩٧٢م.

(د) دوائر المسئولية :

ومن خلال موقف التقوى هذا يتـجه المؤمن إلى هذا العالم، ويحاول كل فرد فى موقعه ـ بوصـفه خليفة الله فى الأرض ـ أن يسلك سلوكاً مسئولاً مـعتمداً فى ذلك على ثقته الكاملة فى الهداية الإلهية الرحيمة.

وما يمكن أن يطلق عليه الدائرة المركزية للمسئولية ـ أو المحور الذى تدور عليه المسئولية ـ يتمثل فى المسئولية الذاتية.

ولكن الإسلام لا يطلب من المسلم ما هو فوق طاقـته. وفى ذلك يقول القرآن الكريم : ﴿ **لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إلا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ** ﴾ (١).

وفى حديث شريف يتحدث النبى ﷺ عن مسـئوليتنا عن كل ما نملكه مادياً وأدبياً، فقد روى الترمذى أن النبى ﷺ قال :

« لا تزول قدم ابن آدم يوم القـيامة من عند ربه حـتى يُسأل عن خمس : عن عـمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وماله من أين اكتسبه وفيم أنفـقه، وماذا عمل فيما علم » (٢).

والإنسان لا يستطيع تحمل مسئوليتـه تجاه الآخرين وتجاه العالم بصفة عامة إلا إذا تحمل مسئوليته الذاتية بطريقة سليـمة. والتزامات الإنسان تجاه المجتمع الإنسانى ليست التزامات مفروضة عليـه من الخارج وإنما هى التزامات مرتبطة أشد الارتباط بوجوده الإنسانى.

وكل إنسان سليـم العقل يشعـر بأنه لو لم يتحمل مسئوليتـه تجاه الآخرين فإنه لا يجوز له أن ينتظر من الآخرين أن يتحملوا بالنسبة له أية مسئولية. فلو لم أعدل فى حق الآخرين فـإنه لا يجوز لى أن أنتظر منهم أن يعدلوا فى حـقى. والإنسان الذى يتنكر لالتـزاماته الخلقيـة تجاه الآخـرين هو إنسان يعزل نفـسه عن المشـاركة

---

(١) سورة البقرة : آية ٢٨٦.

(٢) انظر سنن الترمذى ج ٤ ص ٦١٢ (الكتب الستة طبعة اسطنبول مجلد ١٤).

الإنسانيـة. ونظراً إلى أن الإنسان بطبـيعتـه كائن اجتـماعى مـحتاج إلى المجـتمع الإنسانى فإن هذه الحـالة بالنسبة له تعد أمراً مميتـاً؛ ولهذا يبدو أمراً غريبـاً وموقفاً متناقضاً عندما يتنكر المرء لهذه المسئولية ويحاول التهرب منها [١].

وهكذا لا يجوز ـ بأى حال من الأحوال ـ أن يتجـاهل المرء أو يتجاوز حقوق الآخـرين وما لهم عليـه من التزامـات. وفى بعض المواقف يتـوجب على المرء أن يشهد على نفسه لصالح غيـره حتى يكون عادلاً أمام الله. ويعبر القرآن الكريم عن ذلك بقوله : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ**﴾ [٢].

وقد تحدث النبى ﷺ عن دوائر المسئولية فقال :

« كلكم راع وكلكم مـسئـول عن رعيته : الإمـام راع ومسـئول عن رعـيتـه، والرجل راع فى أهله وهو مسئول عن رعيته، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ، والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته » [٣].

والقرآن الكريم يربط ربطاً واضحـاً ـ لا لبس فيه ولا غموض ـ بين المسـئولية الذاتية والمسـئولية العالمية فى قـوله تعالى : ﴿**مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا**﴾[٤].

وهنا تتساوى القيمة المطلقة لأى إنسان مع قيمة البشرية كلها، لأن الإنسان من حيث هو إنسان بالنسـبة للمؤمن يعد خليفـة لله. فالله قد نفخ فيه من روحـه كما يقول القرآن الكريم : ﴿ **فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ**﴾ [٥].

---

(١) انظر كتابنا : مقدمة فى علم الأخلاق ص ٤٠.

(٢) سورة النساء : آية ١٣٥.

(٣) صحيح البخارى ج ١ ص ٢١٥ (الكتب الستة طبعة اسطنبول مجلد ١).

(٤) سورة المائدة : آية ٣٢.

(٥) سورة الحجر : آية ٢٩.

وإذا لم أعرف ذاتي في نفسي على حقيقتها ـ والتي لا تمثل بأي حال من الأحوال في الجانب المادي ـ فإنني لن أستطيع أن أعرف الذات في الآخرين، بل سيكونون بالنسبة لي وجوداً مادياً. وفي ظل هذه الظروف يكون المرء في صراعه مع الآخرين حول ماديات الحياة مستعداً لإزاحتهم من طريقه بتدمير حياتهم.

أما إذا سلك المرء سلوكاً مسئولاً مسئولية ذاتية فإنه سيسلك في الوقت ذاته سلوكاً مسئولاً مسئولية عالمية؛ فكلاهما مرتبط بالآخر وكلاهما مكمل للآخر.

ومن ذلك يتضح أن موقف المؤمن لا يتفق مع المواقف السلبية. فليس يكفي أن يعمل الإنسان الخير أو أن يمتنع عن فعل الشر، بل يجب أن يكون له موقف إيجابي تجاه الظلم. فلا يجوز لنا أن نسكت عندما نرى الظلم يقع على إنسان أو حيوان أو نبات أو جماد، بل يجب علينا أن نساعد المضطهدين والمظلومين ـ وما أكثرهم في عالم اليوم ـ وذلك بقدر ما نستطيع وأن نحاول إنقاذ من وقعوا في محنة أو من حلَّت بهم كارثة. ومن أجل ذلك يقول النبي ﷺ:

« من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان »[1].

ويقول ﷺ أيضاً: **« انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، قيل: كيف أنصره ظالماً ؟ قال: تحجزه عن الظلم ، فإن ذلك نصره »**[2].

والمطلوب منا ـ إذا أردنا ألا نكون من الخاسرين ـ هو أن نتحلى بالإيمان والسلوك القويم وأن نتواصى جميعاً بالحق والصبر. وفي ذلك جاءت سورة العصر تضع أمامنا هذه الحقائق لتكون دستور حياتنا ودليل سلوكنا :

﴿ وَالْعَصْرِ ① إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ② إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ③ ﴾[3].

وقد كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقيا لم يفترقا إلا أن

---

(١) رواه مسلم في صحيحه ج ١ ص ٦٩ (الكتب الستة ـ اسطنبول مجلد ٤).

(٢) رواه البخاري والترمذي وأحمد (انظر فيض القدير ج ٣ ص ٥٨ دار المعرفة بيروت ١٩٧٢م).

(٣) سورة العصر .

يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر إلى آخرها ثم يسلم أحدهما على الآخر.

وقد ورد عن الإمام الشافعى قوله : لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم [(1)].

فما هو هذا الحق وما هو هذا الصبر ؟ لقد تكفلت آيات القرآن بتوضيح المقصود من ذلك فى مواضع كثيرة نكتفى منها هنا بموضعين اثنين فقط كمثال لما نود الإشارة إليه:

فقد جاء فى سورة الكهف ـ بصدد الحق ـ قوله تعالى :

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [(2)].

وجاء فى سورة النحل ـ بصدد الصبر ـ قوله تعالى :

﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ (١٢٨) ﴾ [(3)].

ويمكن فهم السلوك العالمى المسئول على خير وجه إذا نظرنا إلى الناس جميعاً فى عالم اليوم بوصفهم جماعة واحدة تستقل سفينة واحدة تمخر بهم عباب البحر. فمصيرهم مشترك.

ومن أجل ذلك يجب عليهم أن يتفادوا أى خلل يمكن أن يتسبب فى إعطاب السفينة وإغراقها. وقد صور النبى ﷺ مثل هذه الحالة تصويراً رائعاً حين قال :

« مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا : لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً» [(4)].

---

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ٤ ص ٥٤٧ ـ دار المعرفة بيروت ١٩٦٩م.

(٢) سورة الكهف : آية ٢٩.

(٣) سورة النحل : الآيتان ١٢٧ ، ١٢٨.

(٤) صحيح البخارى ج ١ ص ٦٩ (الكتب الستة ـ اسطنبول مجلد ٤).



الإسلام
وتيارات الفكر الغربى

ويتضمن هذا الباب الفصول الآتية :

الفصل الأول : الإسلام والاستشراق.

الفصل الثانى : دور مؤسسات الدعوة حيال الغزو الفكري.

الفصل الثالث : مستقبل الإسلام في الغرب .

الفصل الأول

الإسـلام والاستشـراق

ويتضمن هذا الفصل:

١ـ تمهيـد.

٢- تاريخ الاستشراق وتطوره.

٣- مواقف المستشرقـين:

(أ) الجوانب الإيجابية.

(ب) الجوانب السلبية.

٤- موقفنا من الاستشراق.

الإسلام والاستشراق [1]

١ - تمهيد :

إن مما لا جدال فيه أن الاستشراق له أثر كبير فى العالم الغربى وفى العالم الإسلامى على السواء وإن اختلفت ردود الأفعال على كلا الجانبين. ولا يكاد المرء فى عالمنا العربى المعاصر يجد مجلة أو صحيفة أو كتاباً إلا وفيها ذكر أو إشارة إلى شىء عن الاستشراق أو يمت إليه بصلة قريبة أو بعيدة. وهذا أمر ليس بمستغرب وذلك لأن الاستشراق فى حقيقة الأمر كان وما يزال جزءاً لا يتجزأ من قضية الصراع الحضارى بين العالم الإسلامى والعالم الغربى، بل يمكن أن نذهب إلى أبعد من ذلك ونقول إن الاستشراق يمثل الخلفية الفكرية لهذا الصراع، ولهذا فلا يجوز التقليل من شأنه بالنظر إليه على أنه قضية منفصلة عن باقى دوائر هذا الصراع الحضارى. فقد كان للاستشراق - من غير شك - أكبر الأثر فى صياغة التصورات الأوروبية عن الإسلام وفى تشكيل مواقف الغرب إزاء الإسلام على مدى قرون عديدة.

والاستشراق قضية تتناقض حولها الآراء فى عالمنا العربى الإسلامى، فهناك من يؤيده ويتحمس له إلى أقصى حد وهناك من يرفضه جملة وتفصيلاً ويلعن كل مشتغل به بوصفه عدواً لدوداً للإسلام والمسلمين.

والواقع الذى لا يمكن إنكاره هو أن الاستشراق له تأثيراته القوية فى الفكر الإسلامى الحديث إيجاباً أو سلباً أردنا أم لم نرد. ولهذا فإننا لا نستطيع أن نتجاهله أو نكتفى بمجرد رفضه وكأننا بذلك قد قمنا بحل المشكلة، إننا لو فعلنا ذلك لكنا كالنعامة التى تدفن رأسها فى الرمال.

---

(١) محاضرة ألقيت ضمن محاضرات الموسم الثقافى للمحاكم الشرعية والشئون الدينية بدولة قطر فى ١٤٠٣/٣/٤ هـ الموافق ١٩٨٢/١٢/١٩م.

ولهذا فإنه ليس هناك بديل عن مواجهة المشكلة وطرحها على بساط البحث ودراستها واستخلاص النتائج وطرح الحلول واقتراح البدائل.

ومن أجل ذلك أردت أن أحدثكم اليوم عن الاستشراق وأبعاده فى موضوعية هادئة أو فى هدوء موضوعى. ولن نستطيع بطبيعة الحال فى محاضرة كهذه أن نوفى هذا الموضوع حقه من البحث ونستوفى الحديث عن كل جوانبه، ولكن حسبنا أن نلقى بعض الضوء على بعض النقاط المهمة، لعل ذلك يكون حافزاً لنا على التفكير والتأمل فى هذا الموضوع، ونبدأ أولاً بإلقاء نظرة تاريخية على الحركة الاستشراقية وتطورها. وقد تبدو مثل هذه النظرة التاريخية لأول وهلة شيئاً معاداً ومكرراً، ولكن لا بد لنا ـ على الرغم من ذلك ـ من الإمساك بشتى الخيوط التى تساعدنا على الإلمام بجوانب الموضوع، فضلاً عن أننا من خلال هذه النظرة سنتعرف عن قرب على تطور الدراسات الإسلامية لدى المستشرقين.

٢- تاريخ الاستشراق وتطوره:

ترجع البدايات الأولى للاستشراق لدى بعض الباحثين إلى مطلع القرن الحادى عشر. ويرى المستشرق الألمانى المعاصر رودى بارت أن بداية الدراسات العربية والإسلامية فى أوروبا تعود إلى القرن الثانى عشر. وقد جعل نجيب العقيقى كتابه عن المستشرقين فى أجزائه الثلاثة سجلاً للاستشراق على مدى ألف عام.

وعلى أية حال فإن الدافع لهذه البدايات المبكرة للاستشراق كان يتمثل فى ذلك الصراع الذى دار بين العالمين الإسلامى والمسيحى فى الأندلس وصقلية، كما دفعت الحروب الصليبية بصفة خاصة إلى اشتغال الأوروبيين بتعاليم الإسلام وعاداته. وقد نشط اللاهوتيون المسيحيون فى ذلك الوقت ضد الإسلام وزعموا ـ فيما زعموا ـ أن الإسلام قوة خبيثة شريرة وأن محمداً ليس إلا صنماً أو إله قبيلة

أو شيطاناً، وغذت الأساطير الشعبية والخرافات خيال الكتاب اللاتينيين. ولم يكن الهدف بطبيعة الحال هو عرض صورة موضوعية عن الإسلام، فقد كان هذا أبعد ما يكون عن أذهان المؤلفين فى ذلك الزمان. وقد اعترف أحد ممثليهم وهو «جيبير دو نوجينت » Guibert de Nogent بأنه لا يعتمد فى كتاباته عن الإسلام على أية مصادر مكتوبة، وأشار فقط إلى آراء العامة وأنه لا يوجد لديه أية وسيلة للتمييز بين الخطأ والصواب، ثم قال مبرراً كتاباته غير العلمية : « لا جناح على المرء إذا ذكر بالسوء من يفوق خبثه كل سوء يمكن أن يتصوره المرء » وقد أطلق «ساذرن»Southern على هذه الفترة فى كتابه « نظرة الغرب إلى الإسلام فى القرون الوسطى» عنوان : عصر الجهالة.

وفى مقابل تلك الصورة البغيضة للإسلام كانت هناك جهود أخرى للوصول إلى قدر من الموضوعية فى مجال العلوم العربية مثل الفلسفة والطب والعلوم الطبيعية. يقول « مكسيم رودنسون » عن تلك الفترة : « ولا يصادف المرء موقفاً موضوعياً إلا فى مجال مختلف تماماً لا يمت إلى الدين الإسلامى إلا بصلة بعيدة وأعنى العلم بأوسع معانيه ».

وقد أخطأ « رودنسون » هنا فى جعله العلم لا يمت إلى الإسلام إلا بصلة بعيدة. فقد كان الإسلام فى واقع الأمر وراء كل إنجاز علمى حققه المسلمون فى مختلف المجالات.

وبدءاً من عام ١١٣٠م كان العلماء المسيحيون فى أوروبا يعملون جاهدين على ترجمة الكتب العربية فى الفلسفة والعلوم، وكان لرئيس أساقفة طليطلة الفضل فى إخراج ترجمات مبكرة لبعض الكتب العلمية العربية بعد الاقتناع بأن العرب يملكون مفاتيح قدر عظيم من تراث العالم الكلاسيكى. وكانت هناك فى القرن الثانى عشر أيضاً بعض المحاولات للتعرف على الإسلام بقدر من الموضوعية ولكن مع الهدف الواضح والمعلن وهو محاربة هذه التعاليم الإسلامية الإلحادية. ومن أجل ذلك قام بطرس الموقر « ت ١١٥٦م » رئيس رهبان كلونى بتشكيل جماعة

من المترجمين فى إسبانيا يعملون كفريق واحد من أجل الحصول على معرفة علمية موضوعيـة عن الدين الإسلامى. وفى تلك الفترة ظهرت أول ترجـمة للقرآن عام ١١٤٣م قام بها الإنجليزى « روبرت أوف كيتون » Robert of Ketton.

وهكذا نجد أنه قد كان هناك فى هذه الفترة المبكرة للاستشراق اتجاهان مختلفان فيـما يتعلق بالأهـداف والمواقف إزاء الإسلام. أما الاتجـاه الأول فقد كـان اتجاهاً لاهوتياً متطرفـاً فى جدله العقيم. ناظراً إلى الإسلام من خلال ضـباب كثيف من الخرافات والأساطير الشـعبية. أما الاتجاه الثانى فقد كان نسـبياً بالمقارنة إلى الاتجاه الأول أقرب إلى الموضـوعيـة والعلميـة، ونظر إلى الإسلام بوصـفه مهـد العلوم الطبيعية والطب والفلسفة. ولكن الاتجاه الخـرافى ظل حياً حتى القرن السابع عشر وما بعـده، وما يزال هذا الاتجاه ـ للأسف ـ حـياً فى العصـر الحاضر فى كـتابات بعض المستشرقين عن الإسلام ونبيه.

وأحد المسيحيين المستنيرين القلائل الذين كانوا يتبنون إزاء الإسلام موقفاً أقرب إلى الاعتدال كان فريدريك الثانى حاكم صـقلية الذى أصبح امبراطوراً حوالى عام ١٢٢٠ م وكان يعـرف العربيـة ويتشبـه بالعرب فى لباسـهم وعاداتهم ويتـحمس للفلسـفـة والعلوم العـربيـة. وقـد كان نصـيب هذا الامـبـراطور أن طرده البـابا «جريجورى التاسع» Gregory IX من الكنيسـة عام ١٢٣٩م. وقد كـانت إحدى التهم التى وجهت إليه هى ما يبديه من مظاهر الود تجاه الإسلام.

والأمـر المهم بالنسبـة لتطور الاسـتشـراق كان الاقـتناع بضرورة تعلم لغـات المسلمين إذا أريد لمحاولات تنصـير المسلمين أن تؤتى ثمـارها بنجاح. ومن بين من تبنى هذا الرأى الذى فـرض نفسـه بالتـدريج ـ « روجـر بيكون» Roger Bacon «ورايموند لل» Raimund Lull وقد صادق مجـمع فيينا الكنسى عام ١٣١٢م على أفكار بيكون ولل بـشأن تعـلم اللغـات الإسلامـيـة واللغـة العـربيـة على وجـه الخصوص. وقد تم تنفيذ ذلك فى جامعات باريس وبولونيا وأكسفورد وسلمنكا.

وقد ساعـد على تقدم الدراسات الاستشـراقية فى نهاية العـصر الوسيط تلك

الصلات السياسية والدبلوماسية مع الدولة العثمانية التى اتسعت رقعتها حينذاك. وقد كان للروابط الاقتصادية لكل من إسبانيا وإيطاليا مع كل من تركيا وسوريا ومصر أثر كبير فى دفع حركة الدراسات الاستشراقية.

وفى القرن السادس عشر وما بعده أدت النزعة الإنسانية فى عصر النهضة الأوربية إلى دراسات أكثر موضوعية من ذى قبل، ومن ناحية أخرى ساندت البابوية الرومانية دراسة لغات الشرق من أجل مصلحة التبشير. وفى عام ١٥٣٩م تم إنشاء أول كرسى للغة العربية فى « الكوليج دى فرانس » فى باريس. وشغل هذا الكرسى « جيوم بوستل Guillaume Postel » (ت ١٥٨١م) الذى يعد أول المستشرقين الحقيقيين. وقد أسهم كثيراً فى إثراء دراسة اللغات والشعوب الشرقية فى أوربا، وجمع فى الوقت نفسه ـ وهو فى الشرق ـ مجموعة مهمة من المخطوطات، وقد سار على نهجه تلميذه « جوزيف اسكاليجر Joseph Scaliger » (ت ١٦٠٩م) وفى عام ١٥٨٦م استفادت اللغة العربية فى أوربا من المطابع ـ التى أسسها الكاردينال دوق تسكانيا ـ الكثير.

وفى القرن السابع عشر بدأ المستشرقون فى جمع المخطوطات الإسلامية، وأنشئت كراسى للغة العربية فى أماكن مختلفة ، ومما هو جدير بالذكر أن قرار إنشاء كرسى اللغة العربية فى جامعة كمبردج عام ١٦٣٦م قد نص صراحة على خدمة هدفين أحدهما تجارى والآخر تبشيرى. فقد جاء فى خطاب للمراجع الأكاديمية المسئولة فى جامعة كمبردج بتاريخ ٩ مايو ١٦٣٦م إلى مؤسسى هذا الكرسى ما يأتى : « ونحن ندرك أننا لا نهدف من هذا العمل إلا الاقتراب من الأدب الجيد بتعريض جانب كبير من المعرفة للنور بدلاً من احتباسه فى نطاق هذه اللغة التى نسعى لتعليمها، ولكنا نهدف أيضاً إلى تقديم خدمة نافعة إلى الملك والدولة عن طريق تجارتنا مع الأقطار الشرقية، وإلى تمجيد الله بتوسيع حدود الكنيسة والدعوة إلى الديانة المسيحية بين هؤلاء الذين يعيشون الآن فى الظلمات».

وفى القرن السابع عشر أيضاً ظهرت مؤلفات عامة عن الإسلام والحضارة

الإسـلامية والأدب الإسـلامى. وبـدلاً مـن الآراء التى تبنـاها اللاهوتيون حـتى ذلك الوقت عن محمد بوصفه بأنه شيطان، وعـن القـرآن بـوصفه بأنـه مزيـج مـن اللغـو الباطل ظهـرت آراء أخرى أقل عنفـاً، وذلك على سبـيل المثال لدى «بيـير بايل» Pierre Bayle فى قاموسـه التاريخى والنقدى « روتردام ١٦٩٧م »، أو لدى «سـيمـون أوكلى» ١٦٧٨ ـ ١٧٢٠م فى كـتابه «تاريخ الـسراسنة » أى : العـرب المسلمين. فالسرد التاريخى فى هـذا الكتاب يعد نسبياً غير مـتحيز، ولكن وصف المؤلف للنبى ﷺ بأنه « رجل خبيث جداً وماكـر، وأن ما كان يبديه من شمائل طيبة مـجرد أمر ظاهرى يخفى حقيـقة نفسه التى كان يحكمـها الطموح والطمع » هذا الوصف أسقط المؤلف مرة ثانية فى بؤرة المواقف اللاهوتية السابقة.

وقد كانت أول مـحاولة علمية جادة للتـعرف على الإسلام على يد « هادريان ريلاند » Hadrian Reland أستاذ اللغات الشرقية فى جـامعة أوترشت بهولندا. فقد صدر له كتاب باللغة اللاتينيـة عن الإسلام عام ١٧٠٥م بعنوان « الديانة المحمدية» فى جزءين عـرض فى أولهما العـقيدة الإسـلامية مـعتمـداً على مصادر بالعـربية واللاتينية. وفى الجزء الثـانى قام بتصحيح الآراء الغريبة التـى كانت سائدة حينذاك عن تعـاليم الإسلام. وقـد أثار الكتـاب اهتـمامـاً عظيـمًا لدرجـة أدت إلى إثارة الشبهات حـول المؤلف باتهامه بأنه يريد القيام بعـمل دعائى للإسلام، فى حين أنه لم يكن يقصـد إلا إلى الوصول إلى فـهم الدين الإسلامى فهـمًا صـحيحـاً ممهداً السبيل إلى محاربته من جانب المسيحية بطريقة أفضل من ذى قبل.

ولكن الكنيسة الـكاثوليكية أدرجت الكتاب فى قائمـة الكتب المحرم تداولها. وعلى الرغم من ذلك تُرجم الكتـاب إلى اللغات الانجـليزية والفـرنسية والألمـانية والهولندية والإسـبانية. ويشـير ريلاند فى مقدمـة الكتاب إلى ما تتـعرض له كل الأديان باستمرار من جانب خصومها، إما بعـدم فهمها أو برميها بكل سوء بطريقة تنبئ عن قصـد خبيث. وقـد تعرض الإسلام إلى مـثل ذلك من جانب خصـومه مثلما تعرضت الأديان الأخرى. ويقول ريلاند : « إن المرء يصح له حقاً أن يبحث عن الحقيقة حيثما كانت » . ولهذا يريد أن يعرض الإسلام لا كما يظهر من خلال

ضباب الجهل وخبث الناس، وإنما كما يدرس حقيقة فى مساجد المسلمين ومدارسهم. فلم يحدث أن تعرض دين من الأديان فى هذا العالم فى أى عصر من العصور إلى مثل ما تعرض له الإسلام من جانب خصومه من الاحتقار والتشويه والوصف بكل أوصاف السوء. وقد وصل الأمر إلى حد أن من يريد أن يصف نظرية من النظريات بوصف مشين يصفها بأنها نظرية محمدية كما لو كان الأمر أنه لا يوجد فى تعاليم محمد شىء صحيح وأن كل ما فيها فاسد، وإذا أبدى أحد رغبة صادقة فى التعرف على الإسلام لا تقدم له إلا الكتب المضادة الخبيثة والمليئة بالضلالات. ويضيف « ريلاند » قائلاً : ينبغى على المرء بدلاً من ذلك أن يتعلم اللغة العربية وأن يسمع محمداً نفسه وهو يتحدث فى لغته، كما ينبغى على المرء أن يقتنى الكتب العربية وأن يرى بعينه هو وليس بعيون الآخرين، وحينئذ سيتضح له أن المسلمين ليسوا مجانين كما نظن فقد أعطى الله العقل لكل الناس، وقد كان فى رأيى دائماً أن ذلك الدين الذى انتشر انتشاراً بعيداً فى آسيا وإفريقيا، وفى أوربا أيضاً ليس ديناً ماجناً أو ديناً سخيفاً كما يتخيل كثير من المسيحيين.

وبعد ذلك يقول ريلاند : صحيح أن الدين الإسلامى دين سيِّىء جداً وضار بالمسيحية إلى حد بعيد. ولكن أليس من حق المرء لهذا السبب أن يبحثه؟ ألا ينبغى للمرء أن يكتشف أعماق الشيطان وحيله ؟ إن الأحرى هو أن يسعى المرء للتعرف عليه حقيقة لكى يحاربه بطريقة أكثر أماناً وأشد قوة.

وقد تكون عبارات « ريلاند » الأخيرة هذه مجرد ذر للرماد فى العيون حماية لنفسه من بطش الكنيسة التى لم تقتنع بهذه المبررات فحرمت تداول الكتاب لأنها لم تكن تريد للحقيقة أن ترى النور حتى لا يطلع عليها جمهور الناس.

وفى نهاية القرن الثامن عشر وبالتحديد فى عام ١٧٩٥م أنشئت فى باريس مدرسة اللغات الشرقية الحية وبدأت حركة الاستشراق فى فرنسا تتخذ طابعاً علمياً على يد « سلفستر دوساسى Silvestre de Sacy » (ت ١٨٣٨م) الذى أصبح إمام المستشرقين الأوربيين فى عصره.

وفى عام ١٧٧٩م ظهر فى انجلترا مفهوم « مستشرق » Orientalist وسرعان ما ظهر بعد ذلك فى فرنسا عام ١٧٩٩م. وأدرج مفهوم «الاستشراق»Orientalism فى قاموس الأكاديمية الفرنسية عام ١٨٣٨م.

وهناك كثير من المستشرقين ـ وبوجه خاص فى ألمانيا والنمسا ـ بدأوا طريقهم فى مجال الاستشراق مترجمين أو قناصل لدولهم فى الشرق الأوسط : مثل «جوزيف فون هامر بزجشتال» (ت ١٨٥٦م) مؤسس أول مجلة استشراقية متخصصة فى أوربا وهى مجلة (ينابيع الشرق) التى صدرت فى «فيينا» من عام ١٨٠٩م إلى عام ١٨١٨م. وفى ذلك الوقت بدأ المستشرقون فى مختلف بلدان أوربا وأمريكا بإنشاء جمعيات لمتابعة الدراسات الاستشراقية. فقد تأسست أولاً الجمعية الآسيوية فى باريس عام ١٨٢٢م ، ثم الجمعية الملكية الآسيوية فى بريطانيا وأيرلندا عام ١٨٢٣م، والجمعية الشرقية الأمريكية عام ١٨٤٢م، والجمعية الشرقية الألمانية عام ١٨٤٥م.

وسرعان ما نشطت هذه الجمعيات فى إصدار المجلات والمطبوعات المختلفة. وفى نهاية القرن التاسع عشر أصبحت الدراسات الإسلامية تخصصاً قائماً برأسه داخل الحركة الاستشراقية العامة. وقد كان كثير من علماء الإسلاميات والعربية فى ذلك الوقت ـ مثل نولدكه وجولد تسيهر وفلهاوزن ـ مشهورين فى الوقت نفسه بوصفهم علماء فى الساميات على وجه العموم أو متخصصين فى الدراسات العبرية أو فى دراسة الكتاب المقدس.

وفى عام ١٨٩٥م ظهرت فى باريس مجلة تمنح اهتمامها بصفة خاصة للعالم الإسلامى وهى مجلة الإسلام، وقد خلفتها فى عام ١٩٠٦م مجلة العالم الإسلامى التى صدرت عن البعثة العلمية الفرنسية فى المغرب، وقد تحولت بعد ذلك إلى مجلة الدراسات الإسلامية.

وفى عام ١٩١٠م ظهرت مجلة « الإسلام » Der Islam الألمانية، وفى «بطرسبرج» بروسيا ظهرت مجلة « عالم الإسلام » Mir Islama عام ١٩١٢م

ولكنها لم تعمر إلا وقتاً قصيراً. وفى بريطانيا ظهرت مجلة « العالم الإسلامى » عام ١٩١١م على يد صمويل زويمر (ت ١٩٥٢م) الذى كان رئيس المبشرين فى الشرق الأوسط.

وقد كان للمد الاستعمارى فى العالم الإسلامى دوره فى استخدام فئة من المستشرقين للمساعدة على تحقيق الأهداف الاستعمارية فى بلاد المسلمين عن طريق دراساتهم الموجهة إلى خدمة الاستعمار. وسنعود إلى الحديث عن هذه النقطة مرة أخرى إن شاء الله.

وقد بقيت هنا فى الحديث عن تاريخ الاستشراق وتطوره نقطة أخرى تتعلق بدور المستشرقين اليهود فى إطار الحركة الاستشراقية والأسباب التى دفعتهم إلى الاستشراق.

إن من الصعب الحصول على إجابة صريحة عن هذه النقطة؛ فقد أغفلت المراجع التى تتحدث عن الاستشراق وتطوره ـ أغفلت الحديث عن هذا الجانب. ونعتقد أن السبب فى ذلك يرجع إلى أن المستشرقين اليهود قد استطاعوا أن يكيفوا أنفسهم ليصبحوا عنصراً أساسياً فى إطار الحركة الاستشراقية الأوربية المسيحية. فقد دخلوا الميدان بوصفهم الأوربى لا بوصفهم اليهودى . وقد استطاع جولد تسيهر فى عصره ـ وهو يهودى مجرى ـ أن يصبح زعيم الإسلاميات فى أوربا، وما زالت كتبه حتى اليوم تحظى بالتقدير العظيم والاحترام الفائق من كافة فئات المستشرقين.

وهكذا لم يرد اليهود أن يعملوا داخل الحركة الاستشراقية بوصفهم مستشرقين يهود حتى لا يعزلوا أنفسهم وبالتالى يقل تأثيرهم. ولهذا عملوا بوصفهم مستشرقين أوربيين وبذلك كسبوا مرتين : كسبوا أولاً فرض أنفسهم على الحركة الاستشراقية كلها، وكسبوا ثانياً تحقيق أهدافهم فى النيل من الإسلام، وهى أهداف تلتقى مع أهداف غالبية المستشرقين المسيحيين.

ويشير المرحوم الأستاذ الدكتور محمد البهى فى كتابه « الفكر الإسلامى

الحديث » (ص ٥٣٤) إلى ملاحظة لبعض الباحثين حول تفسير أسباب إقبال اليهود على الاستشراق.

وتتلخص هذه الملاحظة فى أنهم أقبلوا على الاستشراق لأسباب دينية تتمثل فى محاولة إضعاف الإسلام والتشكيك فى قيمه بإثبات فضل اليهودية عليه بادعاء أن اليهودية فى نظرهم هى مصدر الإسلام الأول. ولأسباب سياسية تتصل بخدمة الصهيونية فكرة أولاً ثم دولة ثانية. ويرى الدكتور البهى أن وجهة النظر هذه على الرغم من أنها لا تعتمد على مصدر مكتوب يؤيدها، فإن الظروف العامة والظواهر المترادفة فى كتابات هؤلاء المستشرقين تعزز وجهة النظر هذه وتضفى عليها بعض خصائص الاستنتاج العلمى.

ونحن فى الواقع لسنا فى حاجة إلى دليل لإثبات كراهية اليهود للإسلام، وذلك لأن هذه الكراهية قد ظهرت واضحة كالشمس منذ ظهور الإسلام. وقد أكد القرآن ذلك فى قوله تعالى :

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ [1].

وقد ظل اليهود طوال تاريخهم يتحينون كل فرصة متاحة ليكيدوا للإسلام والمسلمين. وقد وجدوا فى مجال الاستشراق باباً ينفثون منه سمومهم ضد الإسلام والمسلمين، فدخلوا هذا المجال مستخفين تحت رداء العلم ، كما وجدوا فى الصهيونية باباً آخر يفرضون منه سيطرتهم على العرب المسلمين.



٣- مواقف المستشرقين :

وبعد هذه النظرة السريعة على تاريخ الاستشراق وتطوره نـنتقل إلى الحديث

(١) سورة المائدة : آية ٨٢.

عن نقطة أخرى وهى مواقف المستشرقين. وهذا الموضوع يعد موضوعاً حساساً للغاية، إذ إن المواقف الاستشراقية تشتمل ـ من غير شك ـ على بعض الجوانب الإيجابية التى يجب أن تذكر لهم، كما تتمثل فى المواقف الاستشراقية طائفة أخرى من الجوانب السلبية التى يجب أن تسجل عليهم. وحتى نكون موضوعيين فإنه لا بد لنا من الإشارة إلى ما لهم من إيجابيات والتنبيه على ما لديهم من سلبيات. ولا ضير على المرء إذا اعترف بما لعدوه من مزايا، إذ إن ذلك ربما يكون حافزاً لنا على النهوض والاستعداد من جديد، وقبول التحدى الذى تفرضه علينا ـ نحن المسلمين ـ ظروف العصر.

أما هذه الإيجابيات التى سنذكر طرفاً منها هنا فأود أن أنبه إلى أن بعضها يعد أموراً تخص المستشرقين وتتصل بأسلوب عملهم ومدى ترابطهم، والقصد من ذكرها هو مجرد الاعتبار بها فقط، وبعضها الآخر أمور تتصل بإنتاجهم العلمى الذى يعود بعضه بالفائدة على الدارسين العرب، وإن كان المستشرقون قد قصدوا به فى المقام الأول خدمة أنفسهم، ولكنهم مع ذلك لم يحجبوه عن غيرهم.

(أ) الجوانب الإيجابية :

وتتمثل الجوانب الإيجابية للمستشرقين فى الأمور التالية :

١ـ يخدم المستشرقون أهدافهم التى وضعوها لأنفسهم بإخلاص تام لهذه الأهداف وتفان إلى أقصى حد وبكل الوسائل. وعندما أراد المستشرق الهولندى سنوك هورجرونيه أن يكتب كتاباً عن مكة لم يثنه عن عزمه لدراسة مكة على الطبيعة أنه مسيحى لا يجوز له أن يدخل مكة ، فانتحل اسماً إسلامياً هو عبد الغفار ، وزار مكة عام ١٨٨٤م وأقام هناك مدة خمسة أشهر، وكان يجيد العربية كأحد أبنائها. وبعد هذه الرحلة كتب عن مكة كتابين أولهما : الحج إلى مكة، وثانيهما : مكة وجغرافيتها فى القرن التاسع عشر ـ فى جزءين ـ وصف فيه مكة وصفاً دقيقاً شاملاً مع خرائط عديدة. والمستشرقون بصفة عامة لديهم صبر عجيب ونادر فى البحث والدرس وإحاطة تامة بالعديد من اللغات القديمة

والحديثة. وقد أشار الشيخ مصطفى عبد الرازق إلى « الإعجاب بصبرهم ونشاطهم وسعة اطلاعهم وحسن طريقتهم ».

وقال الشيخ أمين الخولى بعد حضوره مؤتمر المستشرقين الدولى الخامس والعشرين: « لقد قدمت السيدة كراتشكوفسكى بحثاً عن نوادر مخطوطات القرآن فى القرن السادس عشر الميلادى. وإنى أشك فى أن الكثيرين من أئمة المسلمين يعرفون شيئاً عن هذه المخطوطات. وأظن أن هذه مسألة لا يمكن التساهل فى تقديرها ».

٢ـ هناك ترابط بين جماعات المستشرقين فى مختلف البلدان وتنسيق مستمر وتعاون وتكامل فى مجالات الدراسات العربية والإسلامية. فقنوات الاتصال بينهم قائمة ومستمرة عن طريق المؤتمرات المنتظمة والدوريات والحوليات والمجلات والنشرات والمطبوعات المختلفة. وقد بلغ عدد المؤتمرات الدولية للمستشرقين منذ عام ١٨٧٣م حتى عام ١٩٦٨م ثلاثين مؤتمراً. وهذا عدا المؤتمرات والندوات واللقاءات الإقليمية. وتضم المؤتمرات الدولية مئات العلماء ، فمثلاً مؤتمر «أكسفورد » كان يضم ٩٠٠ عالم من ٢٥ دولة و ٨٥ جامعة و ٦٩ جمعية علمية. ومجموعات العمل فى كل مؤتمر تبلغ أربع عشرة مجموعة تختص كل منها ببحث قطاع معين من الدراسات الاستشراقية.

٣ ـ التوفر على موضوع معين من الدراسات العربية والإسلامية وقضاء العمر كله فى البحث والاستقصاء لاستيفاء شتى جوانبه. ولهذا نجد أن لديهم معرفة جيدة بكل ما ينشر عن الدراسات الإسلامية والعربية فى بلادنا العربية. وكتاباتهم الخاصة والعامة عامرة بشتى المراجع العربية والإسلامية قديمها وحديثها. وهناك حقيقة يعرفها كل من خالط المستشرقين وهى أن المستشرق المتمكن لا تأخذه العزة بالإثم إذا ما نبهته إلى خطأ وقع فيه نتيجة لعدم فهمه لروح اللغة العربية.

٤ـ دائرة المعارف الإسلامية ـ على ما لنا نحن المسلمين عليها من مآخذ ـ وتعد هذه الدائرة ثمرة من ثمار التعاون العلمى الدولى بين المستشرقين. وقد تم إصدارها

فى طبعتـها الأولى بالانجليزية والفـرنسية والألمانية فى الفـترة من عام ١٩١٣م إلى عام ١٩٣٨م وقد ترجمت إلى العـربية حتى حرف العين. وقد أصدر المسـتشرقون طبعة جديـدة أعـيدت فيها كتابـة المقالات بنـاء على مـا صـدر من بحوث حديثة وما نشر أو اكتشف من مخطوطات. وقد بدأ ظهور هذه الطبعة الجديدة اعتباراً من عام ١٩٥٤م وقد صدر منها حتى الآن خمسة مجلدات بالانجليزية والفرنسية.

٥ـ تاريخ الأدب العـربى لبـروكلمـان (ت ١٩٥٦م) وهو كتـاب أسـاسى فى الدراسات العربيـة لا يستغنى عنه باحث فى الدراسات العربيـة والإسلامية. وهذا الكتاب لا يقـتصر على الأدب العربى وفقـه اللغة، بل يشمل كل ما كـتب باللغة العربيـة من المدونات الإسلاميـة. فهو سجل للمـصنفات العربيـة المخطوط منها، والمطبوع، ويكتمل بمعـلومات عن حياة المؤلفين. وقد صـدر أولاً فى مجلدين عام ١٨٩٨م وعام ١٩٠٢م ثم أتبعه المؤلف بثلاث مجلدات تكميلية كبيرة فى الفترة من ١٩٣٧م إلى ١٩٤٢م ثم أعـاد نشـر المجلدين الأسـاسيين فـى عام ١٩٤٣م وعـام ١٩٤٩م فى طبعة أخرى معدلة ليتناسب تعـديلهما مع المجلدات الثلاثة التكميلية. وقد وافق المؤلف على طلب الجـامعة العـربية ترجمـة الكتاب إلى اللغة العـربية. ولكن المشروع ما زال للأسف يتعثر حتى الآن. ويقوم الباحث التركى المسلم «فؤاد سيـزكين»، تلمـيذ المسـتشـرق الألمانى «هلموت ريتـر» - بعد اكـتشـاف آلاف المخطوطات - يقوم بإكمال عمل «بروكلمـان» وذلك فى كتابه «التراث العربى» بالألمانية الذى ترجم بعضـه إلى العربية، ومنح عليه جائـزة الملك فيصل منذ بضع سنوات. والحق يقال أنه لولا كتاب بروكلمان لما كان كتاب «فؤاد سيزكين».

٦ـ جـمع المخطوطات العـربية من كل مكـان وبشتى السـبل، والعـمل على حفظها وصيانتها من التلف والعناية بها عناية فائقة، وفهرستها فهرسة نافعة تصف المخطوط وصفـاً دقيقـاً، وبذلك وضعت تحت تصرف البـاحثين الراغبين فى مـقر وجـودها أو طلب تصـويرها بلا روتـين أو إجـراءات مـعـقـدة. وقد قـام مثـلاً «ألوارد» Ahlwardt بوضع فهـرس للمخطوطات العربية فى مكتـبة «برلين» فى عشـرة مجلدات بلغ فيـه الغاية فنًا ودقة وشمـولاً، وصدر هذا الفهـرس فى نهاية

القرن الماضى واشتمل على فهرس لنحو عشرة آلاف مخطوط. وقد قام المستشرقون فى كافة الجامعات والمكتبات الأوربية بفهرسة المخطوطات العربية فهرسة دقيقة. وتقدر المخطوطات العربية الإسلامية فى مكتبات أوربا بعشرات الآلاف بل قد يصل عددها إلى مئات الآلاف.

وهنا أيضاً كلمة حق يجب أن تقال وهى أن انتقال هذا العدد الهائل من المخطوطات إلى أوربا بوسائل شرعية أو غير شرعية قد هيأ لها أحدث وسائل الحفظ والعناية الفائقة والفهرسة الدقيقة. وعندما أقول هذا أشعر بالأسى والحسرة لحال المخطوطات النادرة فى كثير من بلادنا العربية والإسلامية وما آل إليه حال الكثير منها من التلف والتآكل وصعوبة أو استحالة الاستفادة منها.

٧- للمستشرقين باع طويل فى مجال المعاجم. وأخص بالذكر هنا المعجم المفهرس لألفاظ الحديث الشريف، الذى يشمل كتب الحديث الستة المشهورة بالإضافة إلى مسند الدارمى وموطأ مالك ومسند الإمام أحمد بن حنبل. وقد تم نشره فى سبعة مجلدات فى الفترة من عام ١٩٣٦م حتى عام ١٩٦٩م. وتفيد منه كافة المعاهد والجامعات الإسلامية فى العالم. وقد تعاون على إخراجه عدد من المستشرقين المعروفين. ونشير أيضاً إلى الجهد الذى بذله «أوجست فيشر» (ت١٩٤٩م) فى معجم اللغة العربية القديمة مرتباً حسب المصادر. فقد قضى فيشر أربعين عاماً فى جمعه وتنسيقه وتعاون معه عدد من المستشرقين.

٨- قام المستشرقون بنشر الكثير من أمهات كتب التراث. وقد عرفنا الكثير من هذا التراث محققاً ومطبوعاً على أيديهم. ولم يقتصر الأمر على نشر النصوص العربية بل قاموا أيضاً بترجمة مئات الكتب العربية الإسلامية إلى كافة اللغات الأوربية.

(ب) الجوانب السلبية :

وبعد هذه النظرة التى ألقيناها على ما للمستشرقين من إيجابيات يحق لنا الآن أن ننبه إلى الجوانب السلبية فى تفكيرهم ودراساتهم. وتنصب النواحى السلبية

بصفة أساسية على دراساتهم عن الإسلام وما يتصل به. وفيما يلى نعرض نماذج من هذه السلبيات:

١ـ يعد الاستشراق أسلوباً خاصاً فى التفكير ينبنى على تفرقة أساسية بين الشرق والغرب. « فالشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا » كما قال الشاعر الاستعمارى المشهور « كبلنج »Kipling.

فالغربيون عقليون محبون للسلام متحررون منطقيون وقادرون على اكتساب قيم حقيقية ، أما الشرقيون فليس لهم من ذلك كله شىء.

ولكن هناك حقيقة مهمة يتجاهلها المستشرقون ببساطة، وهى أن الحضارة الغربية ـ التى يصفونها باعتزاز بأنها حضارة مسيحية ـ مبنية فى الأصل على تعاليم رجل شرقى وهو المسيح عليه السلام، وعلى ما نقلوه عن العرب من علوم عربية ومن تراث قديم تطور على أيدى العرب. وهذه الحقيقة تجعل هذه التفرقة المبدئية إلى شرق وغرب والتى يعتمد عليها الاستشراق أمراً مخالفاً للمنطق. فالمسيحية دين شرقى. والزعم بأن الغرب متقدم لأنه يدين بالمسيحية والشرق متخلف لأنه يدين بالإسلام، زعم لا أساس له من العلم ولا من الواقع، فالتقدم الذى يشهده الغرب اليوم فى مجال العلم والتكنولوجيا لا علاقة له بالمسيحية كدين، والتخلف الذى يعانى منه الشرق لا يتحمل الإسلام وزره. فهذا التخلف يعد ـ كما يقول المرحوم « مالك بن نبى » عقوبة مستحقة من الإسلام على المسلمين لتخليهم عنه لا لتمسكهم به كما يزعم الزاعمون.

٢ـ الاستشراق ـ من بين شتى العلوم الأخرى ـ لم يطور كثيراً فى أساليبه ومناهجه. وفى دراسته للإسلام لم يتخلص قط من الخلفية الدينية للجدل اللاهوتى العقيم الذى انبثق منه الاستشراق أساساً. ولم يتغير شىء من هذا الوضع حتى اليوم باستثناء بعض الشواذ. وتخدم اليوم وسائل الإعلام المتعددة فى الغرب تأكيد وتقوية الوضع التقليدى الذى ما يزال ينظر إلى الإسلام إلى حد كبير بمنظار القرون الوسطى. ولعل هذا هو ما دعا السكرتير العام للمجلس الإسلامى الأوربى

فى شهر يناير ١٩٧٩م إلى التنديد بوسائل الإعلام الغربية لموقفها من الإسلام، ووصفه لهذا الموقف بالإجحاف والافتراء على حقائق الدين وتشويهها.

وهذا كله يحدث على الرغم من أن مجلس الفاتيكان قد أشاد فى أكتوبر ١٩٦٥م بالحقائق التى جاء بها الإسلام والتى تتعلق بالله وقدرته ويسوع ومريم والأنبياء والمرسلين، وعلى الرغم أيضاً من قول المستشرق الألمانى المعاصر « رودى بارت » : إن الدراسات الاستشراقية منذ منتصف القرن التاسع عشر تنحو نحو البحث عن الحقيقة الخالصة ولا تسعى إلى نوايا جانبية غير صافية.

وللمستشرق الفرنسي المعاصر « رودنسون » وجهة نظر أخرى حيث يذهب إلى القول بأن هناك ثورة فى التفكير قد حدثت فى التصورات الأوربية للإسلام، الأمر الذى جعل التقييم المسيحى لمحمدٍ ﷺ مسألة حساسة. فلم يعد بإمكانهم الزعم الكاذب بأنه « محتال شيطانى » كما كان عليه الحال فى العصور الوسطى. وفى الوقت الذى نجد فيه بعض المفكرين المسيحيين الذين يهتمون بالمشكلة يعلقون الحكم بحذر، فإننا نجد لبعض الكاثوليك المتخصصين فى الإسلام يعتبرون محمداً ﷺ « عبقرياً دينياً » ويتساءل آخرون عما إذا كان فىّ الإمكان اعتباره ـ بطريقة ما ـ نبياً حقيقياً ما دام القديس توماس الإكوينى يقول بالنبوة التوجيهية التى لا تعنى بالضرورة العصمة والكمال. ومعنى هذا الكلام هو عدم الاعتراف بالنبوة الحقيقية للنبى ﷺ التى تعنى اصطفاء إلهياً ووحياً سماوياً وعصمة ربانية.

والواقع أنه ليس بالأمر الغريب أن يختلف المستشرقون معنا ـ نحن المسلمين ـ فى الرأى حول الإسلام، وإنما الغريب أن يتفقوا معنا فى الرأى. وذلك لأن منطلق تفكيرهم بالنسبة للإسلام ونبيه يختلف عن المنطلق الذى يصدر عنه تفكير المسلمين. ولهذا تختلف وجهات النظر بيننا وبينهم وستظل مختلفة فلا ننتظر منهم أن يتبنوا وجهة نظرنا التى تنظر إلى الإسلام على أنه دين سماوى ختم به الله الرسالات السماوية وأن محمداً خاتم النبيين، وأن القرآن وحى الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ لأنهم لو فعلوا ذلك لأصبحوا مسلمين. وهذا

ما حـدث فعلاً بالنسـبة للبعض منـهم ممن تحول إلى الإسلام. وهذا التـحول إلى الإسلام يعنى فى الوقت نفسه التحول عن الخط الاستشراقى.

ونحن لا نطلب من كل مسـتشرق أن يغير مـعتقده ويعتـقد ما نعتـقده عندما يكتب عن الإسـلام. ولكن هناك أوليات بديهـية يتطـلبها المـنهج العلمى السليم. فعندمـا أرفض وجهـة نظر معينـة لا بد أن أبين للقارئ أولاً وجهـة النظر هذه من خلال فهم أصحابها لها، ثم لى بعد ذلك أن أخالفها.

وعلى هذا الأساس نقول :

إن الكيان الإسلامى كله يقوم على أسـاس الإيمان بالله ورسوله محمد ﷺ الذى تلقى القرآن وحيـاً من عند الله. ويجب على العالم النزيه والمؤرخ المحايد أن يقول ذلك لقـرائه عندما يتـعرض للحديث عن الإسـلام حتى يسـتطيع القارئ أن يفهم سر قوة هذا الإيمان فى تـاريخ المسلمين، ثم له بعد ذلك أن يخالف المسلمين فى معتقدهم وتصوراتهم. أما أن يعرض المستشرق الإسلام بادئ ذى بدء من خلال تصـورات سابقة مبنية على خـيالات وأوهام فهذا ما لا يقره علم ولا خلق. وهذا ما يجعلنا نقول ـ مع الدكتور حسين مؤنس ـ : إن محمداً الذى يصوره المستشرقون ليس هو محـمد الذى نؤمن برسـالته، وإنما هو شـخص آخر من صنع خـيالهم، والإسلام الـذى يعرضـونه فى كتـبهم ليس هو الإسـلام الذى ندين به، وإنما هو إسلام من اختراعهم.

وهكذا يمكن القـول بأن الاستـشراق ـ فى دراستـه للإسلام ـ ليس علـماً بأى مقـياس علمى، وإنما هـو عبارة عن أيديـولوچية خاصـة يراد من خلالهـا ترويج تصورات معينة عن الإسلام بصرف النظر عما إذا كانت هذه التصورات قائمةٍ على حقائق أو مرتكزة على أوهام وافتراءات. وهذا يذكرنا بما كان يفعله السوفسطائيون قديماً. فإذا وصفنا المستشـرقين فى دراستهم للإسلام ـ إلا بعض الشواذ منهم ـ إذا وصفناهم بأنهم السوفسطائيـون الجدد فنحن بذلك لم نتجن عليهم على الإطلاق. ولكن الإنصاف يقتـضينا أيضاً أن نقول : إن الدراسـات الاستشراقيـة كلما كانت

بعيـدة عن مجالات الـعقيـدة الإسلاميـة كانت أقرب إلى الموضـوعيـة وأبعد عن التحامل.

٣ـ يعمد المستشرقون إلى تطبيق المقاييس المسيحية على الدين الإسلامى وعلى نبيه. فالمسيح ـ فى نظر المسيحيين ـ هو أساس العقيدة، ولهذا تنسب المسيحية إليه. وقد طبق المستشرقون ذلك على الإسلام واعتبروا أن محمداً يعنى بالنسبة للمسلمين ما يعنيه المسـيح بالنسبة للمسـيحية، ولهذا أطلقـوا على الإسلام ـ اسم « المذهب المحمدى Mohammedanism » ولكن هناك سبباً آخر لاستخدام هذا الوصف لدى الكثيرين منهم وهو إعطاء الانطباع بأن الإسـلام دين بشرى من صنع محمد وليس من عند الله. أما نسبة المسيحية إلى المسيح فلا تعطى هذا الانطباع لديهم لاعتقادهم أن المسيح ابن الله. وتتم مـقارنة أخرى بين محمـد والمسيح يكون المسيح فـيها هو المقيـاس : فمحمـد مزواج وشهوانى فى مـقابل المسيح العفـيف الذى لم يتزوج، ومحمد محارب وسـياسى أما يسوع فهو مسالم مغلوب ومعـذب يدعو إلى محبة الأعداء . . . : وهكذا.

٤ـ الخلط بين الإسلام كدين وتعاليم ثابتة فى القـرآن الكريم والسنة الصحيحة وبين الوضع المتردى للعالم الإسلامى فى عالم اليـوم. فإسلام الكتاب والسنة يعد فى نظر مستشرق معاصر مثل كـيسلنج إسلاماً ميتاً. أما الإسلام الحى الذى يجب الاهتمـام به ودراسته فـهو ذلك الإسلام المنتـشر بين فرق الدراويش فى مـختلف الأقطار الإسلاميـة، وهو تلك الممارسات السائدة فى حيـاة المسلمين اليوم بصرف النظر عن اقترابها أو ابتعادها من الإسلام الأول.

٥ـ التأكيد على أهميـة الفرق المنشقة عن الإسلام كالبابية والبـهائية والقاديانية والبكداشية وغيـرها من فرق قديمة وحديثة، وتعميق الخـلاف بين السنة والشيعة. ودائماً يعتبـرون المنشقين أصحاب فكر ثورى تحررى عقلى ، ودائمـاً يهتمون بكل غريب وشـاذ، ودائماً يقيـسون مـا يرونه فى العالم الإسلامى علـى ما لديهم من قوالب مصبوبة جامدة.

وقد أشار المسـتشرق رودنسون إلى ذلك حين قال : « ولم ير المستـشرقون فى

الشرق إلا ما كانوا يريدون رؤيته، فـاهتموا كثيراً بالأشياء الصـغيرة والغريبة، ولم يكونوا يريدون أن يتطور الشـرق ليبلـغ المرحلة التى بلغتـها أوربا، ومن ثم كـانوا يكرهون النهضة فيه ».

٦ـ يفتقد المرء الموضوعية فى كتابات معظم المستشرقين عن الدين الإسلامى فى حين أنهم عندما يكتبون عن ديانات وضعية مثل البوذية والهندوكية وغيرها يكونون موضوعيين فى عرضهم لهـا. فالإسلام فقط من بين كل الديانات التى ظهرت فى الشرق والغـرب هو الذى يُهاجَم. والمسلمـون فقط من بين الشرقـيين جميـعاً هم الذين يوصمون بشتى الأوصاف الدنيئة. ويتساءل المرء : لماذا ؟.

ولعل تفـسيـر ذلك يعـود إلى أن الإسلام كـان يمثل بالنسـبـة لأوربا صدمـة مستمرة. فقد كان الخوف من الإسلام هو القاعدة. وحتى نهاية القرن السابع عشر كان « الخطر العـثمـانى » رابضاً عند حدود أوربا ويمثل ـ فى اعـتقـادهم ـ تهديداً مستمراً بالنسبة للمدنية المسيحية كلها.

ولهذا يمكن الـقول ـ كمـا يقول إدوارد سعـيد ـ بأن الاستـشراق من الناحـية النفسية يعد صورة من صور جنون الاضطهاد.

فالإسلام ـ إذن ـ حتـى فى عصر ضعف أتباعه لا يزال يمثل تحـدياً على كافة المستويات. فهل يعى المسلمون هذه الحقيقة؟ .

ومن هنا يمكن فهم ما يقوله « موير » Muir : « إن سيف محمد والقرآن هما أكثر الأعداء الذين عرفهم العالم حتى الآن عناداً ضد الحضارة والحرية الحقيقية »، وما يزعمـه فون جرونيبـاوم من أن الإسلام ظاهرة فريدة لا مثـيل لها فى أى دين آخر أو حـضارة أخرى. فـهو دين غيـر إنسانى وغيـر قادر على التطور والمعـرفة الموضوعية. وهو دين غير أخلاقى وغير علمى واستبدادى.

وهكذا يتضح الحقـد الدفين على الإسلام باستمـرار بمثل هذه الافتراءات التى ليس لها فى سوق العلم نصيب.

٧ـ يعطى الاستشراق لنفسه فى دراسته للإسلام موقف ممثل الاتهام والقاضى.

فبينما نجد مثلاً أن علم التاريخ يحاول أن يفهم فقط ولا يضع موضع الشك أسس المجتمع الذى يدرسه، نجد الاستشراق يعطى لنفسه حق الحكم بل حق الاتهام والرفض للأسس الإسلامية التى يقوم عليها المجتمع الإسلامى. وذلك ناتج عن نوايا مسبقة لا يمكن ـ بحال من الأحوال ـ أن تكون نوايا علمية صافية كما يدعى المستشرق رودى بارت.

٨ـ تحالف فريق من المستشرقين مع الاستعمار الذى أذل العالم الإسلامى حقبة من الزمان فى العصر الحديث. ويقول المستشرق المعاصر « اشتيفان فيلد» بصدد الإشارة إلى تلك الفئة من المستشرقين : « والأقبح من ذلك أنه توجد جماعة يسمون أنفسهم مستشرقين، سخروا معلوماتهم عن الإسلام وتاريخه فى سبيل مكافحة الإسلام والمسلمين. وهذا واقع مؤلم لا بد أن يعترف به المستشرقون المخلصون لرسالتهم بكل صراحة ».

ومن بين الأمثلة العديدة فى هذا الصدد نذكر المستشرق « كارل هينريش بيكر » (ت ١٩٣٣م) مؤسس « مجلة الإسلام » الألمانية. فقد قام بدراسات تخدم الأهداف الاستعمارية الألمانية فى إفريقيا. أما «بارتولد» Barthold (ت ١٩٣٠م) مؤسس مجلة Mir Islama الروسية فقد تم تكليفه عن طريق الحكومة الروسية بالقيام ببحوث تخدم مصالح السيادة الروسية فى آسيا الوسطى. أما عالم الإسلاميات الهولندى الشهير « سنوك هورجرونيه » (ت ١٩٣٦م) فقد لعب دوراً مهماً فى تشكيل السياسة الثقافية والاستعمارية فى المناطق الهولندية فى الهند الشرقية، وشغل مناصب قيادية فى السلطة الاستعمارية الهولندية فى إندونيسيا، أما المستشرق الفرنسى المعروف ماسنيون فقد كان مستشاراً لوزارة المستعمرات الفرنسية فى شئون شمال إفريقيا. وغير هؤلاء كثيرون وضعوا أنفسهم وعلمهم ودراساتهم فى خدمة الاستعمار ضد الإسلام والمسلمين.

٩ـ الدعوة إلى إصلاح الإسلام : يزعم المستشرقون أن الإسلام دين جامد، وأنه لم يعد مسايراً لروح العصر. ولذلك فهو فى حاجة إلى إصلاح جذرى. وفى

ذلك يقول أحد المستشرقين : « إن على الإسلام إما أن يعتمد تغييراً جذرياً فيه أو أن يتخلى عن مسايرة الحياة ». وهذه دعوة يوجهها إلى المسلمين غريب عنهم بشأن ما ينبغى عليهم أن يفعلوه فى دينهم. وهذا الإصلاح المزعوم يمثل محاولة من محاولات تغيير وجهة نظر المسلم عن الإسلام، وجعل الإسلام أقرب إلى المسيحية بقدر الإمكان.

ولعله من نافلة القول أن نشير هنا إلى أن الإسلام يشتمل على أصول لا يملك أحد أن يغير فيها شيئاً وهى عقائد الإسلام الأساسية. ويشتمل على فروع وهى قابلة للتغيير حسب المصلحة الإسلامية، وأن الإصلاح الذى نفهمه نحن المسلمين هو إصلاح للفكر الإسلامى الذى هو فى حاجة إلى المراجعة المستمرة حتى يتلاءم مع متطلبات العصر وحاجات الأمة فى إطار من التعاليم الإسلامية.

ولكن الدعوة إلى إصلاح الإسلام أو تحديثه ـ كما يقال أحياناً ـ ليست بهذا المفهوم، وإنما هى عبارة عن تفريغ الإسلام من مضمونه وعزله كلية عن تنظيم أمور المجتمع، وجعله مجرد تعاليم خلقية شأنه فى ذلك شأن الديانة المسيحية.

ويتورط البعض من أبناء المسلمين فى حمل لواء الدعوة إلى إصلاح الإسلام كما يفهمها المستشرقون. ومن أحدث الكتب فى هذا الشأن كتاب صدر فى ألمانيا الغربية فى العام الماضى (١٩٨١م) بعنوان أزمة الإسلام الحديث ـ لمؤلف عربى مسلم يعمل أستاذاً فى جامعة فرانكفورت بألمانيا، يدعو فيه بحماس إلى الأخذ بالنموذج الغربى فى الإصلاح المتمثل فى جعل الدين مجرد تعاليم خلقية لا تكاليف إلزامية. فذلك ـ فى نظره ـ هو الحل الوحيد لأزمة الإسلام. وبذلك يتم إبعاد الدين كلية عن التدخل فى شئون الحياة حسب النموذج العلمانى الغربى.

وهكذا نوفر نحن أبناء المسلمين على المستشرقين بذل الجهد فى هذا السبيل، ونتولى نحن الدعوة إلى تحقيق الأهداف التى عاشوا قروناً طويلة يعملون من أجلها دون جدوى.



٤ - موقفنا من الاستشراق :

والآن ـ وبعد أن اتضحت لنا بعض الشيء أبعاد المواقف الاستشراقية بخيرها وشرها ـ لا بد لنا من الحديث عن موقفنا ـ نحن المسلمين ـ من الاستشراق ـ وهذا يستدعينا أن نتذكر ما كان يفعله أسلافنا فى مثل هذه المواقف.

لقد كانت التيارات الفكرية الأجنبية القديمة ـ التى كانت تمثل تحدياً للإسلام والفكر الإسلامى الأصيل فى عصور الإسلام الزاهرة ـ كانت حافزاً للمسلمين فى تلك الأيام الخوالى للوقوف أمامها بقوة وصلابة. وقد كانت المواجهة على مستوى التحدى بل تفوقه. فقد هضم الفكر الإسلامى تلك التيارات هضماً دقيقاً واستوعبها استيعاباً تاماً ثم كانت له معها وقفته الصلبة وبنفس الأسلحة الفكرية.

فالمواجهة ـ إذن ـ كانت مواجهة فكرية. وكأن التاريخ الآن يعيد نفسه، فالحرب الآن بين الإسلام والتيارات المناوئة له حرب أفكار، والمعركة معركة فكرية، ولهذه المعركة أدواتها التى يجب التسلح بها، فالخسران فى هذه المعركة أشد وطأة وأقوى تأثيراً وأعظم فتكاً من خسارة أية معركة حربية أياً كان حجمها.

لننظر مثلاً نموذجاً رائداً فى تاريخ الفكر الإسلامى . . إنه حجة الإسلام الغزالى الذى خاض غمار معارك فكرية عديدة وخرج منها جميعاً منتصراً، فماذا كان يفعل؟

يقول الغزالى فى كتابه (المنقذ من الضلال) : « إنه لا يقف على فساد نوع من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم حتى يساوى أعلمهم من أهل ذلك العلم، ثم يزيد عليه ويجاوز درجته فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم وإذ ذاك يمكن أن يكون ما يدّعيه من فساده حقاً ».

وقياساً على ما يقوله الإمام الغزالى نجد أن استيعاب الإنتاج الاستشراقى حول الإسلام ودراسته دراسة عميقة هو الخطوة الأولى لنقده نقداً صحيحاً وإثبات

ما يتضمنه من تهافت أو زيف، الأمر الذى يجعل المستشرقين يفكرون ألف مرة قبل أن يكتبوا تحسباً لما قد يواجههم من نقد علمى يعريهم ويثبت زيف ادعاءاتهم.

ويؤكد هذه الحقيقة المستشرق الفرنسى مكسيم رودنسون حين يشير إلى أن هناك طريقاً واحداً فقط لنقد المستشرقين. وهذا الطريق يسير عبر دراسة تفصيلية لمؤلفاتهم، ويجب أن يرتبط نقدنا لإنتاج المستشرقين بنقد ذاتى حقيقى بصفة مستمرة، يجب أن نواجه أنفسنا مواجهة حقيقية بعيوبنا وقصورنا وتقصيرنا، وأن نكون على وعى حقيقى بالمشكلات التى تواجهنا فى هذا العالم المعاصر.

وقد يتمثل الجانب الإيجابى للاستشراق فى صورة الهجوم علينا وعلى أمجادنا وليس فى صورة المدح، وكلنا نعلم أن هناك عدداً لا بأس به من المستشرقين قد مدحوا حضارتنا فى مؤلفاتهم وأثنوا على علمائنا ومجدوا تراثنا، وآخرهم المستشرقة الألمانية المعاصرة زيجريد هونكه فى كتابها (شمس الله تسطع على الغرب). ولكن جانب المدح والثناء قد يكون له تأثير تخديرى علينا، فيجعلنا نغمض عيوننا مستسلمين لتلك الأحلام السعيدة التى تذكرنا بالعز الذى كان، ونركن إلى ذلك ونعيش على صيت آبائنا وأجدادنا، ونظن أننا عظماء لأن أجدادنا كانوا عظماء، ورحم الله جمال الدين الأفغانى الذى كان يقول: «إن المسلمين أصبحوا كلما قال لهم الإنسان: كونوا بنى آدم، أجابوه أن آباءنا كانوا كذا وكذا وعاشوا فى خيال ما فعل آباؤهم غير مفكرين بأن ما كان عليه آباؤهم من الرفعة لا ينفى ما هم عليه من الخمول والضعة. إن الشرقيين كلما أرادوا الاعتذار عما هم فيه من الخمول الحاضر قالوا: أفلا ترون كيف كان آباؤنا ؟ نعم قد كان آباؤكم رجالاً، ولكنكم أنتم أولاء كما كنتم، فلا يليق بكم أن تتذكروا مفاخر آبائكم إلا أن تفعلوا فعلهم».

ومن هنا نقول إن الجانب الهجومى التفنيدى الاستفزازى فى إنتاج المستشرقين قد يكون بالنسبة لنا خيراً من جانب المدح تأكيداً للمثل المعروف «رب ضارة نافعة»، فقد يكون هذا الاستفزاز حافزاً لنا لنخرج من حالة الركود الفكرى التى

وصلنا إليها لننطلق من جديد، فننهض ونبنى أفكارنا من جديد ونعيد ترتيب صرح ثقافتنا، وبذلك نقبل التحدى ونستجيب له فننهض من كبوتنا. ولعل هذا ينطبق على تفسير توينبى للحضارة بأنها استجابة للتحدى بمعنى أنها رد معين يواجه به شعب من الشعوب تحدياً معيناً.

وهذا الرد ليس مجرد استنفاد الطاقات فى رد الهجوم وترقب الطعنات للرد عليها، وإنما هو الرد الفعال الذى ينتقل إلى الموقف الأقوى. فلا يجوز أن نقف دائماً موقف المعتدى عليه، فالمعتدى عليه غالباً ما يكون ضعيفاً. ولهذا لا بد من أن نغير وضعنا، وذلك لن يكون إلا بتغيير أفكارنا، فنحن لسنا متخلفين لقلة أشيائنا، ولكن تخلفنا لقلة أفكارنا وتبدد جهودنا، ولن تتغير أحوالنا إلا بتغيير ما فى نفوسنا: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾[1].

ولا بد لنا من أن نعترف بأن الاستشراق يستمد قوته من ضعفنا، ووجوده نفسه مشروط بعجز العالم الإسلامى عن معرفة ذاته. فالاستشراق فى حد ذاته كان دليل وصاية فكرية. ويوم أن يعى العالم الإسلامى ذاته وينهض من عجزه ويلقى من على كاهله أثقال التخلف الفكرى والحضارى ـ يومها سيجد الاستشراق نفسه فى أزمة، وخاصة الاستشراق المشتغل بالإسلام، ويومها لن يجد الجمهور الذى يخاطبه لا فى أوربا ولا فى العالم الإسلامى.

ولكى نكون أكثر وضوحاً وأكثر تحديداً فى تصوير ما ينبغى علينا أن نقوم به لمواجهة الاستشراق نذكر فيما يلى بعض النقاط التى نعتقد أنها أمور أساسية فى هذا المجال :

١ـ علينا أن ننظر إلى حركة الاستشراق بكل جدية، ونأخذ فى حسابنا أن لها آثاراً عظيمة على قطاعات عريضة من المثقفين فى العالم الإسلامى وفى العالم الغربى على السواء. ولهذا لا بد من التوفر على دراسة الاستشراق دراسة عميقة.

---

(١) سورة الرعد : آية ١١.

وليس يكفى أن نقول إن ما يكتبونه كلام فارغ، فهذا الكلام الفارغ مكتوب بشتى اللغات الحية ومنتشر انتشاراً واسعاً على مستوى عالمى. ومواجهته لا بد أن تكون على نفس المستوى العالمى، وبالكلام المليان على حد تعبير الدكتور حسين مؤنس.

٢- بدلاً من أن نظل نقتات فكرياً من دائرة المعارف الإسلامية التى قام بإعدادها المستشرقون قبل الحرب العالمية الثانية والتى تجاوزوها ويقومون منذ سنوات بإصدار دائرة معارف إسلامية جديدة - علينا أن نقوم نحن المسلمين بإصدار دائرة معارف إسلامية باللغة العربية واللغات الأوربية الرئيسية تقف على الأقل فى مستوى دائرة المعارف الإسلامية للمستشرقين تخطيطاً وتنظيماً وتتفوق عليها علمياً، وتنقل وجهة النظر الإسلامية فى شتى فروع الدراسات الإسلامية والعربية إلى المسلمين وغير المسلمين على السواء.

فكل فراغ فكرى لدينا لا نشغله بأفكار من عندنا يكون عرضة للاستجابة لأفكار منافية وربما معادية لأفكارنا، فلا نلومن عندئذ إلا أنفسنا.

٣- علينا أن نوحد جهودنا فى العالم الإسلامى لإقامة مؤسسة إسلامية علمية عالمية لا تنتمى بالولاء إلى بلد إسلامى معين ولا لمذهب سياسى أو فكرى أو دينى معين، بل يكون ولاؤها الأول والأخير لله وحده ولرسوله محمد ﷺ، وتستطيع استقطاب الكفاءات العلمية الإسلامية فى شتى أنحاء العالم، وتقف على قدم المساواة مع الحركة الاستشراقية ويكون لها دوريات ومجلات علمية ذات مستوى رفيع تنشر بحوثها بلغات مختلفة، وتعمل على استعادة أصالتنا الفكرية واستقلالنا فى ميدان الأفكار، فهذا هو الطريق الصحيح إلى الاستقلال الاقتصادى والسياسى، إذ إن المجتمع الذى لا يصنع أفكاره الرئيسية لا يمكنه - على أية حال - أن يصنع المنتجات الضرورية لاستهلاكه ولا المنتجات الضرورية لتصنيعه.

والأمر الذى يؤسف له حقاً هو أننا على امتداد العالم الإسلامى بسكانه الذين تجاوزوا الألف مليون وبكل ما لنا من إمكانات هائلة لا نملك مؤسسة علمية دولية

لها نفس الإمكانات العلميـة والمادية التى تملكها المؤسسة الاستشـراقية. أليس هذا من الأمور التى تدعو إلى الأسى والحسرة ؟

٤ـ لا بد أن تكون لنا مؤسـسة تبشـيرية عالـمية، وأعنى بذلك جهـازاً للدعوة الإسلامـية فى الخـارج يدعو للإسلام ـ مـن ناحية ـ ويرعى المسلـمين الجدد ـ من ناحية ثانية ـ ويحمى المسلمين بالوراثة ـ من ناحية ثالثة.

ولا بد من إصدار كـتب إسلامـية باللغات العـالمية الحيـة تصحح التـصورات الخـاطئة عن الإسـلام فى الأذهان وتعـرض الإسلام بأسلـوب علمى يتناسب مع العقلية المعاصرة، وتقدم الحلول الإسلامية لمشكلات المسلمين العصرية.

٥ـ لا بد من إعداد ترجمة مقبولة لمعـانى القرآن باللغات الحية نسد بها الطريق على عشرات الترجمات المنتشرة الآن بشـتى اللغات والتى قام بإعدادها المستشرقون وصدورها فى غالب الأحـيان بمقدمات مملوءة بالطعن عـلى الإسلام. ولا بد أيضاً من اختيار مجموعة كافية ومناسبـة من الأحاديث النبوية الصحيحة وترجمتها أيضاً لتكون مع ترجمـة معانـى القرآن فى متناول المسلمين غـير الناطقين بالعـربية وفى متناول غير المسلمين الذين يريدون فهم الإسلام من منابعه الأصلية.

٦ـ العمل على تنقية التراث الإسلامى حتى يكون غذاء فكرياً صالحاً للمسلم. فتراثنا فيه الغث وفيه السـمين. ومع أن الإسلام لا يتحمل وزر الخرافات والأوهام والإسـرائيليات التى تشـتمل عليـها بـعض كتب التـراث لدينا، فإن المسـتشـرقين يستخدمون هذا التراث بكل ما فيه. ويكفى أن نشير فى هذا الصدد إلى مثال واحد وهو قصة الغرانيق المذكـورة فى كتبنا والتى ركز عليها المستشـرقون. فإذا اتهمناهم بالتجنى حق لهـم أن يردوا الاتهام ويقولوا : نحن لم نخـترع شيـئاً من عندياتنا. أليست القصة واردة فى مصادركم المعتمدة؟.

٧ـ محاولة اقتحام مجـالات تدريس العلوم العربية والإسلامية فى الخارج عن طريق الاتفاقات الثقافية التى تعقد بين بلدان العالم الإسلامى ودول أوربا وأمريكا،

وذلك بإرسال أساتذة أكفاء من الأقطار الإسلامية إلى معاقل الاستشراق للتدريس فيها. وبذلك يمكن بالتدريج تصحيح التصورات الأوربية عن الإسلام بالعمل العلمى الدءوب وليس عن طريق الشعارات فقط. وأعتقد أن هناك الآن جامعات فى أوربا وأمريكا لديها الاستعداد للاستجابة لذلك.

وبعد . . .

لقد حاولنا بما عرضناه على مسامعكم فى هذه المحاضرة من نقاط أن نكون منصفين لأنفسنا ولغيرنا، وأن نكون موضوعيين نرى الأسود أسود، والأبيض أبيض، حتى لا تختلط علينا الرؤية فنخطئ الطريق الصحيح إلى فهم أبعاد المشكلة.

وليس ما قلناه عن الإسلام والاستشراق هو نهاية المطاف. وإنما هى مجرد ملاحظات نقصد من ورائها الدعوة إلى التأمل والتفكير فى أبعاد هذه المشكلة المطروحة.

وأرجو أن أكون قد وُفقت إلى الصواب . . والله من وراء القصد، وهو حسبنا ونعم الوكيل.



الفصل الثانى

دور مؤسسات الدعوة حيال الغزو الفكرى

ويتضمن هذا الفصل:

- تمهيد.
- تحديد المفاهيم.
- مؤسسات الدعوة.
- الغزو الفكرى.
- مخاطر الغزو الفكرى.
- دور مؤسسات الدعوة:
  أولاً: تحصين الجبهة الداخلية.
  ثانياً: المواجهة المباشرة.
- خطوات عملية.

تمهيد:

لم أُكلَّف بكتابة هذا البحث[1] إلا فى نهاية الشهر الماضى، وكان علىَّ أن أكتبه خلال أيام قليلة حتى يمكن لسكرتارية المؤتمر أن تطبعه وتدرجه ضمن البحوث الأخرى. ولعلنى كنت أستطيع أن أستجمع أفكارى حول هذا الموضوع خلال تلك الفترة الزمنية القصيرة، ولكن هناك أموراً علمية أخرى والتزامات كثيرة لا تحتمل التأجيل تتصل بعملى فى إدارة الكلية التى أشرف بعمادتها جعلتنى أتردد فى قبول الكتابة فى هذا الموضوع المهم تحت ضغوط عامل الوقت.

ولكننى ـ من ناحية أخرى ـ أحسست بمسئوليتى نحو هذا العمل الذى يعد نوعاً من الجهاد فى سبيل الله، ولذلك اختلست بعض الوقت فى زحمة أعمالى الأخرى لأكتب هذه السطور التى تعد بمثابة رءوس موضوعات والتى أرجو أن يكون فيها بعض الفائدة، وأن تكون إسهاماً متواضعاً فى أعمال هذا المؤتمر الجليل، وإن كنت أول من يدرك ما فى هذا البحث من قصور وتقصير.

تحديد المفاهيم:

يتحتم علينا فى البداية أن نحدد بعض المفاهيم التى تعد بمثابة المفاتيح لهذا الموضوع. فعنوان البحث المطلوب يحمل بعض المفاهيم مثل « مؤسسات الدعوة » و«الغزو الفكرى» و «الدور» الذى يمكن أن تقوم به هذه المؤسسات حيال هذا الغزو. وهذه أمور تحتاج إلى شىء من التوضيح ـ أو التحديد، بمعنى أصح ـ فخطواتنا فى مجال الدعوة يجب أن تكون محسوبة، ومفاهيمنا يجب أن تكون محددة ودقيقة؛ فنحن اليوم فى عصر لا مجال فيه للارتجال أو التعميمات الغامضة.

---

(١) قدم هذا البحث إلى مؤتمر « دور الجامعات الإسلامية فى تكوين الدعاة » الذى عقد بجامعة الأزهر فى الفترة من ١٨ - ٢٢ أبريل ١٩٨٧م.

مؤسسات الدعوة :

فماذا نعنى عندما نتحدث عن مؤسسات الدعوة ؟

مؤسسات الدعوة مفهوم واسع يشمل وزارات الأوقاف والمساجد التى تتبعها وما تقوم به من دور كبير فى التوعية الدينية، وتشمل أيضاً معاهد التعليم التى تعنى بالتكوين الإسلامى على اختلاف مراحلها ـ وبخاصة الجامعية منها ـ ويدخل فيه كذلك إدارات الوعظ والإرشاد واللجان العليا للدعوة، ولجان الشئون الدينية بالمجالس النيابية والمجلس الأعلى العالمى للمساجد والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ولجان الشئون الدينية بالأحزاب المختلفة وإدارات تدريب الدعاة، ووسائل الإعلام الإسلامية مقروءة أو مسموعة أو مرئية مثل إذاعات القرآن الكريم والصحافة الدينية سواء أكانت صحفاً يومية أو أسبوعية أو مجلات أسبوعية أو شهرية أو دورية . . . إلخ، كما يدخل تحت مفهوم مؤسسات الدعوة أيضاً المؤسسات الأهلية والجمعيات الدينية التى تعنى بالتوعية الدينية.

ويمكن تجاوزاً أن يدخل تحت هذا المفهوم أيضاً الجهود الفردية التطوعية فى مجال الدعوة إلى الله. ولكن هذه الجهود الفردية إذا لم تكن مؤهلة للقيام بدورها فى مجال الدعوة فإن خطرها أو ضررها سيكون أكثر من نفعها.

ومن أجل ذلك لا يجوز إغفالها لأنها يمكن أن تثير الكثير من النزاعات حول أمور شكلية فى الدين فتضر أكثر مما تنفع وتفرِّق بدل أن توحِّد.

وأخطر هذه المؤسسات جميعاً هى المؤسسات التى تتولى التربية والتثقيف ابتداء من المراحل التعليمية الأولى حتى المراحل النهائية، ويضاهيها فى الخطر والأهمية وسائل الإعلام؛ لما لها من تأثير لا يقاوم فى صياغة أفكار الناس وتوجيه عقولهم.

ومؤسسات الدعوة هذه تستطيع أن تؤدى أجلَّ خدمة للإسلام إذا تعاونت فيما بينها وقامت بتنسيق خططها وتوحيد جهودها. أما إذا تشاحنت فيما بينها وتنافرت خططها وتضاربت جهودها فإن هذا من شأنه أن يعود بالضرر البالغ على الدعوة الإسلامية بصفة عامة. بل وينعكس أثره سلبياً على الإسلام ذاته.

الغــزو الفكرى :

أما مـفهوم الغزو الفكرى فـإنه مفهـوم قد استقـر فى الأذهان فى معظم بلاد العالم الثالث على الرغم من عدم دقة إطلاقه. فالغزو يعنى الإرغام والقهر. وهذا المعنـى غير قـائـم إلا فـى بعض الصـور التى يطلـق عليها مفــهوم الغزو الفكرى. أما بقية صور ما يسمى بالغزو الفكرى فتتم بأيدينا نحن وباختيارنا، وهذا هو وجه الخطورة.

وبصفــة عامة: يمكن القـول بأن مفهوم الغــزو الفكرى يقصد به كل التـيارات الفكرية الهدامة الواردة من الغرب الرأســمالى أو الشرق الماركسى، سواء تمثلت فى نظريات فلسفية أو اجتماعية أو اقـتصادية أو تربوية أو سياسية أو دينية أو دراسات استشــراقية أو غير ذلك من نــظريات تتصل بحقل الدراسات الإنســانية على وجه الخصوص.

وقد تكون بعض هذه التـيارات الفكرية قد فُـرضت بالفعل فرضـاً من جانب المستعمر على الشعوب الإسلامية إبان فترة الاحتلال لهذه البلاد مثل فرض النظرية العلمانية بالفصل بين الدين والدولة فى مجال السياسة والاقتصاد وتنظيم المجتمع، وازدواجية التعليم وما إلى ذلك من أمور أريد لنا دون إرادتنا أن نسير فى تيارها.

وقد يكون بعض هذه التيــارات الفكرية قد جُلب إلى بلاد المسلمين على أيدى مسلمين تثـقفوا بالثقافـات الغربية فى الوقت الذى لم يكونوا فيــه على دراية تامة بأمور دينهم العامة أو الخاصة، وقد يكون بعض هذه التيارات قد جُلب على أيدى مواطنين غيــر مسلمين يهمهم بالدرجــة الأولى إضعاف الإسلام وتفـتيت وحدته ـ وقد يكون بعض هذه التيارات الفكرية قــد وجد لنفسه مرتعاً خصبـاً وفرصة مواتية لدى بعض النــفــوس المقلدة للغــرب فــى كل شىء من أبناء المسلمــين تحت تأثيــر مركبـات النقص وعقد التخلف التى تعانى منهــا. ولعل هذا الفريق هو الذى عناه المرحوم مالك بن نبى ـ المفكر الإسلامى الجزائرى ـ حينما تحدث فى بعض مؤلفاته عن أولئك الذين ما زالت لديهم القابلية للاستعمار.

ولا يجوز إغفال الدور الذى تقوم به بعض وسائل الإعلام فى العالم الإسلامى فى نقل الكثير من هذه التيارات الفكرية الهدامة سواء أكان ذلك عن علم ودراية أم عن جهل وغفلة، وسواء أكان ذلك بطريق مباشر أو غير مباشر. فإن ما تنقله وسائل الإعلام هذه مسموعة أو مرئية أو مقروءة يعمل عمله فى صياغة أفكار الشباب والأطفال على وجه الخصوص، بل وفى صياغة أفكار الكهول أيضاً وينعكس أثره سلبياً على سلوكهم وتوجهاتهم.

مخاطر الغزو الفكرى :

بعد هذا التوضيح القصير نعود إلى جوهر الموضوع وهو الدور المنوط بمؤسسات الدعوة حيال الغزو الفكرى. ولكن قبل ذلك علينا أن نسأل :

ما أسباب الخوف من الغزو الفكرى الذى لجأ إليه الاستعمار بعد أن استحال عليه الوجود العسكرى فى البلاد التى كان يحتلها ويسيطر عليها ؟

إن القضية هنا تتصل اتصالاً مباشراً بالضعف الذى يعانى منه العالم الإسلامى كله أو بمعنى آخر : إن الأسباب الحقيقية لهذا الخوف تكمن فى التخلف الذى يخيم على الشعوب الإسلامية.

وهذا التخلف واقع ملموس حتى وإن توارى خلف بعض مظاهر التقدم المادى فى بعض المناطق الإسلامية.

وغنىٌ عن البيان أن الجسم الضعيف يكون أكثر تعرضاً لخطر الإصابة بالأمراض الفتاكة من الجسم السليم؛ فالأمة الإسلامية لو كانت قوية مرهوبة الجانب ورائدة فى مضمار التقدم والحضارة لما كانت هناك على الإطلاق مشكلة قائمة حول الغزو الفكرى وخطره على الإسلام. فالإسلام فى ذاته قوى فى مبادئه وأصوله وأهدافه وتشريعاته، ولا يُخشى عليه من أية تيارات فكرية مناوئة أياً كان خطرها وأياً كان مصدرها ما دام هذا الدين قد وجد من أتباعه الفهم الصحيح

لأهدافه وغاياته وتشريعاته. ولكن إذا افتقد الإسلام لدى أتباعه ذلك الفهم ؛ لضعفهم وانهيار عزائمهم وانحلال عرى وحدتهم فهنا يكون الخطر كل الخطر الذى يهدد كيانهم كله.

فالقضية ـ إذن ـ تدور حول ما يتعرض له المسلمون ـ نظراً لضعفهم ـ من مخاطر الغزو الفكرى الذى يحاول أن يحتويهم ويستولى على عقولهم ويصوغ لهم أفكارهم ويخطط لهم فى كل مجالات حياتهم حتى ينسوا دينهم الذى يراد إزاحته تماماً من النفوس، أو على الأقل يراد له أن يكون فقط مجرد مظهر خارجى يتمثل فى بعض المظاهر الدينية الشكلية التى لا تعنى شيئاً. فالمستهدف فى النهاية هو الإسلام بوصفه يشكل العقبة الرئيسية أمام القوى الأجنبية التى تحاول السيطرة على المسلمين أو استنزاف خيراتهم.

فما دام القرآن يُتلى بين المسلمين وما دام الإسلام حياً فى نفوسهم فمن المستحيل أن يأمن العدو أو يهدأ له بال أو يقر له قرار، فالإسلام يرفض ولاية الأجنبى على المسلمين وفى الوقت نفسه يغرس العزة فى نفوس المؤمنين.

ومن هنا تحاول شتى التيارات الفكرية الوافدة أن تصفِّى أدمغة المسلمين من المحتوى الحقيقى للإسلام بطريق مباشر أو غير مباشر.

وإن نظرة عابرة على بعض هذه التيارات ترينا بوضوح مدى الجهود التى تُبذل فى سبيل إفراغ الإسلام من مضمونه واختزاله إلى مجرد طقوس شكلية لا روح فيها ولا حياة، أو محاولة طمسه كلية ومحوه من العقول والقلوب.

فالاستشراق مثلاً له أسلوبه فى التشكيك فى الإسلام جملة وتفصيلاً . . جملة بالادعاء بأنه دين مأخوذ من الديانات السابقة عليه ولا جديد فيه، وتفصيلاً بالتشكيك فى القرآن الكريم سواء فى مصدره أو فى نصه، وفى الحديث النبوى وروايته وفى الشريعة الإسلامية وأصالتها، وفى الفلسفة الإسلامية وخصوصيتها، وفى الفكر الإسلامى والتاريخ الإسلامى بصفة عامة، وكذلك تأجيج نار النزاعات والانقسامات بين الفرق الإسلامية وإحياء النزعات القديمة مثل الفرعونية والفينيقية

والفارسية وغيرها من انتماءات قديمة يراد لها أن تغطى على انتماء المسلمين لإسلامهم وتاريخهم وحضارتهم، كما تعمل هذه التيارات على إضعاف اللغة العربية بوصفها لغة القرآن الكريم، وذلك بتشجيع اللهجات العامية المحلية والتعصب لها أو الدعوة إلى كتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية، إلى آخر تلك الخطط المشبوهة والمفضوحة.

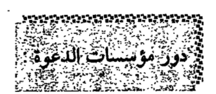
ومن ناحية أخرى تعمل التيارات المادية الإلحادية ـ من مذاهب وضعية أو ماركسية أو وجودية ـ تعمل على محو الدين تماماً من النفوس وجعل الإنسان عبداً أسيراً لأنانيته وحاجاته المادية، فلا مجال هناك لما يسمى بالروح أو الدين، فذلك أمر يعد فى نظر هؤلاء تخلفاً ورجعية.

وهكذا تأخذ المفاهيم معانى معكوسة. فالمادى الماركسى ـ الذى اتخذ إلهه هواه ـ يصف نفسه بالتقدمية، أما المتدين المتمسك بدينه الملتزم بآدابه فإنه يوصف بالرجعية.

وهكذا تدخل علينا كل هذه التيارات الفكرية الغازية من خلال الضعف الذى يعانى منه المسلمون لا من خلال ضعف الإسلام. ولكن إذا ضعف المسلمون وأصبحوا كالجسد الهزيل الذى لا يقوى على مقاومة ميكروبات الأمراض التى تغزو جسمه فإن الخطر ينتقل بالضرورة إلى الإسلام ذاته.

وهنا تبرز بين المسلمين أنفسهم شتى التفسيرات التى تنحرف بالإسلام عن مقاصده وغاياته، وتتدخل هنا الأهواء والأغراض لتميل بالدين حسبما تشاء، وتظهر النزاعات والانقسامات بين المسلمين من أجل أمور ثانوية. ويساعد العدو بالطبع على إشعال نار هذه الانقسامات بهدف ضياع وحدة المسلمين وتفكيك عرى التماسك بينهم؛ وبذلك يصل إلى ما يريد بأيدينا نحن.





إن الدور الذى يجب على مؤسسات الدعوة أن تنهض للقيام به حيال مخاطر الغزو الفكرى ينبغى أن يسير فى خطين متوازيين ما وقت واحد : أولهما يتمثل فى تحصين الجبهة الداخلية. وثانيهما يتمثل فى الواجهة المباشرة للغزو الفكرى.

وهذا إجمال نفصله فيما يلى :

أولاً : تحصين الجبهة الداخلية :

يقتضى تحصين الجبهة الداخلية استنهاض عزائم المسلمين لنفض غبار التخلف عن كواهلهم وحثهم على المشاركة الإيجابية فى صنع التقدم والحضارة على أرضهم عن طريق العلم والدراسة والفهم، حتى لا يظلوا - كما يراد لهم - مجرد مستهلكين لمنتجات الغرب. فالأمر المؤسف حقاً أن العالم الإسلامى - الذى حباه الله برقعة تحمل فى باطنها كل خيرات الدنيا - ما يزال يعتمد فى قوته على الدول الأجنبية بنسبة تزيد على ستين فى المائة. وهذه الدول إذ تورِّد له قُوتَهُ تورِّد له فى الوقت نفسه أفكارها وقيمها وتقاليدها وطرائق معيشتها. ومعروف أن من لا يملك قوته لا يملك قراره.

ومن أجل ذلك يجب أن تقوم مؤسسات الدعوة بتنشيط الدافع الذاتى لدى المسلمين وإبراز القيم الإسلامية المنسية مثل: قيم العمل والوقت والحق والخير والجمال وترسيخ هذه القيم فى النفوس.

فلن يجدينا فى شىء أن نكتفى بسرد تاريخنا المشرق والتغنى بما كان لنا من أمجاد سابقة، فنحن لن نكون جديرين بالانتساب إلى هؤلاء الأسلاف العظام إلا إذا كنا مثلهم رجالاً نعمل ونبنى الحضارة والتقدم ونتسلح بالعلم والمعرفة وإلا فلا خير فينا.

ويحضرنى فى هذا الصدد ما يروى من أن شكيب أرسلان قد زار جمال الدين

الأفغـاني ذات مرة عندمـا كان شبـه أسير في عاصمة الخلافة العثمانية وحكى له ما يروى من أن العرب عبروا المحيط الأطلنطي قديماً واكتـشفوا أمريكا قبل اكتشاف الأوربيين لها فيرد عليه جمال الدين قـائلاً : « إن المسلمين أصبحوا كلما قال لهم الإنســان : كونوا بني آدم، أجابوه : إن آباءنا كانوا كذا وكـذا، وعاشوا في خيال ما فعل آبـاؤهم، غير مفكرين بأن مـا كان عليه آباؤهم من الرفعـة لا ينفي ما هم عليه من الخمول والضعة.

إن الشـرقيـين كلمـا أرادوا الاعتذار عما هم فـيه من الخمول الحـاضر قالوا : أفلا ترون كيف كـان آباؤنا ؟ نعم قد كان آباؤكم رجالاً، ولكنـكم أنتم أولاء كما أنتم، فلا يليق بكم أن تتذكروا مفاخر آبائكم إلا أن تفعلوا فعلهم »[1].

فـمن الضروري أن توجـه مـؤسسـات الدعـوة جهـودها ـ كل منهـا بأسلوبه وطريقته الخاصة ـ لإيقاظ الهمم لدى كل فـئات الشعب وحفز العزائم للعمل على انتشال العـالم الإسلامي من الركود الذي يحـيط به ـ وهذا أمر يتطلب وضع خطة للتنمية الدينية والأخلاقية على غرار ما تقوم به الدول من وضع الخطط الاقتصادية والاجتماعية، وذلك من أجل ترسيخ المفاهيم والقيم الإسلامية في النفوس لتنطلق إلى العمل بهمة ونشاط. فهذه التنمية الدينية والأخلاقية هي الأساس الحقيقي لكل أنواع التنمية الأخرى اقتصادية كانت أم اجتماعية أم تربوية أم سياسية . . . إلخ.

والغـريب أن الدول الإسلامـية تضع باسـتمـرار خططاً للتنمـية الاقـتصـادية والاجتمـاعية دون أن تبذل أي جهد حـقيقي في سبيل وضع خطة للتنمـية الدينية والأخلاقيـة في حين أن هذه هي الركيزة الأساسية لـتلك ـ فتربية الضميـر وتوعية العقول بقيم الإسـلام وآدابه يدفع العامل إلى العمل بجد وإخلاص مراعيـاً ضميره وربه، فيزيد الإنتاج وتتنافس العقول في سبيل الخير للمجتمع الإسلامي.

ومن ناحية أخرى فـإن التربية على أساس القيم والمبادئ الإسلاميـة، والتوعية

---

(١) زعماء الإصلاح في العصر الحديث لأحمد أمين ص ١٠٢ - دار الكتاب العربي - بيروت.

الدينية بأسس الإسلام وغاياته يشكل حصانة قوية ودعامة أساسية تستطيع أن تواجه أية تيارات فكرية أجنبية .

ومن هنا ـ من تقوية الجبهة الداخلية الإسلامية وتوعيتها ـ نحصِّن المسلم من الوقوع بسهولة فى حبائل الغزو الفكرى.

ويجب أن يبدأ هذا التحصين من مرحلة الطفولة، وذلك بغرس الانتماء الحقيقى إلى الإسلام فى نفوس النشء وإبراز صور البطولات الإسلامية أمام عينه وقلبه، وصقل مواهبه وتنمية مداركه فى إطار من أخلاق الإسلام وآدابه.

ولا بد أن تتحقق أمامه القدوة الحسنة التى تجعله يتعايش مع الإسلام ممثلاً فى نماذج حية لا فى مجرد التلقين بكلام نظرى؛ فإن من أخطر الأمور فى مجال التربية أن يجد الطفل فى مربِّيه أو فى والديه والمحيطين به ذلك الانفصام الممقوت بين القول والفعل. فإذا نهى المربى عن خلق لا بد أن يكون هو نفسه منهياً عنه، وإلا حق عليه قول القائل :

لا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وتَأْتِى مِثْلَهُ ... عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ

ابْدَأْ بِنَفْسِكَ فَانْهَهَا عَنْ غَيِّهَا ... فَإِذَا انْتَهَتْ عَنْهُ فَأَنْتَ حَكِيمُ

ومن الضرورى أن يستمر التحصين المطلوب فى جميع مراحل التعليم.

ومن هنا تأتى أهمية تدريس الثقافة الإسلامية فى الجامعات الإسلامية حتى لا يترك الطالب فى هذه المرحلة الحاسمة من مراحل حياته نهبًا لشتى التيارات الفكرية دون أن تكون لديه حصانة كافية من دينه وتراثه وقيمه، ودون أن يكون لديه الانتماء الراسخ لعقيدته وتاريخه.

ثانياً : المواجهة المباشرة :

أما عن الجانب الثانى من المهمة الأساسية لمؤسسات الدعوة حيال الغزو الفكرى، والذى سبق أن أشرنا إلى أنه ينبغى أن يسير ـ فى الوقت نفسه ـ مع الجانب الأول، فإنه يتمثل فى المواجهة المباشرة للتيارات الفكرية الغازية، ونعنى

بذلك ضرورة الدراسة الواعية لشتى التيارات الفكرية، وإدراك أسسها وأهدافها ووسائلها حتى يمكن نقضها وتفنيدها وحماية المسلمين من أخطارها. ولنا فى أسلافنا مثل يحتذى، فقد كانت التيارات الفكرية الأجنبية القديمة ـ التى كانت تمثل لوناً من ألوان التحدى للإسلام والفكر الإسلامى الأصيل فى عصور الإسلام الزاهرة ـ كانتْ حافزاً للمسلمين فى تلك الأيام الخوالى للوقوف أمامها بقوة وصلابة. وقد كانت المواجهة على مستوى التحدى بل تفوقه. فقد هضم الفكر الإسلامى تلك التيارات هضماً دقيقاً واستوعبها استيعاباً تاماً، ثم كانت له معها وقفته الصلبة وبالأسلحة الفكرية نفسها. . فالمواجهة إذاً كانت مواجهة فكرية.

وكأن التاريخ يعيد نفسه، فالحرب الآن بين الإسلام والتيارات المناوئة له حرب أفكار، والمعركة معركة فكرية. ولهذه المعارك أدواتها التى يجب التسلح بها. فالخسران فى هذه المعركة أشد وطأة وأقوى تأثيراً وأعظم فتكاً من خسارة أية معركة حربية أياً كان حجمها [1].

ومواجهة هذه التيارات الفكرية مواجهة حاسمة لا تكون إلا بدراستها دراسة واعية. . « فلا يقف على فساد نوع من العلوم ـ كما يقول الإمام الغزالى ـ من لا يقف على منتهى ذلك العلم حتى يساوى أعلمهم من أهل ذلك العلم، ثم يزيد عليه ويجاوز درجته فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم . . . وإذ ذاك يمكن أن يكون ما يدَّعيه من فساده حقاً » [2].

وقد طبَّق الإمام الغزالى هذه القاعدة على نفسه حين تعرض بالنقض والتفنيد للأفكار الفلسفية اليونانية فى عصره وللأفكار الباطنية وغيرها من تيارات فكرية.

وقد فعل الإمام ابن تيمية الشىء ذاته حين تعرض بالنقض والتفنيد للتيارات الفكرية الأجنبية فى عصره.

---

(١) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى للدكتور محمود حمدى زقزوق ص ١٢٤ (سلسلة كتاب الأمة).

(٢) المنقذ من الضلال للغزالى، تحقيق : الدكتور عبد الحليم محمود ص ١٠٣، القاهرة.

وإذا كان أسلافنا العظام قد فعلوا ذلك منذ قرون فنحن اليوم فى نهاية القرن العشرين أولى بأن نفعل ذلك؛ فعصرنا لم يعد يحترم غير منطق العلم ومخاطبة العقل والإقناع بالحجة والبرهان.

ومن هنا تأتى ضرورة الدراسة الواعية لكل ما يدور فى عالم اليوم من أفكار ونظريات ونقدها فى موضوعية، وعدم اللجوء إلى إلقاء الكلام على عواهنه والإغراق فى التعميمات التى لا تجدى فتيلاً.

وهناك نقطة مهمة وضرورية قبل التوجه بالنقد إلى الآخرين وهى ضرورة ممارسة النقد الذاتى أولاً حتى نعرف مواقع أقدامنا، ونكون على وعى بقصورنا وتقصيرنا فى حق أنفسنا وفى حق ديننا، وأن نقوم بتشخيص عللنا وأمراضنا الاجتماعية والفكرية والسلوكية تشخيصاً حقيقياً حتى يمكننا أن نقوم بعلاجها علاجاً سليماً.

ولا يكفى أن نرفع أصواتنا بين حين وآخر بوضع كل ما نعانيه من علل وأمراض وتخلف وانحدار على شماعة الاستعمار والصهيونية، ونكتفى بذلك وكأننا قد قمنا بحل مشاكلنا، وأدينا واجبنا وعرفنا السبب الحقيقى لكل ما نعانيه من تخلف. إن هذا السلوك هو التخلف بعينه وهو العجز بعينه.

والذى يجب أن ندركه جيداً هو أن التيارات الفكرية الغازية تستمد قوتها من ضعفنا، ووجودها نفسه فى بلادنا وبين ظهرانينا مشروط بعجز العالم الإسلامى عن معرفة ذاته. ويوم أن يعى العالم الإسلامى ذاته وينهض من عجزه ويلقى عن كاهله أثقال التخلف الفكرى والحضارى - يومها لن تجد هذه التيارات الفكرية الغازية مجالاً للظهور أو الانتشار بيننا.

وإذا كان علينا أن نضع عن أنفسنا أغلال الوصاية الفكرية فإن علينا من ناحية أخرى أن نتحرر من عقدة التخلف التى تسيطر علينا فى جميع مناحى حياتنا، والتى تسد على الكثيرين منا منافذ الأمل فى الخروج من أزمتنا. فقد تحررنا من الاستعمار العسكرى ولكننا لم نتحرر من القابلية للاستعمار؛

ولهذا فإن نظرة الكثيرين منا لكل ما يأتى من الغرب هى نظرة التقدير

والإكبار، حتى وإن كان هذا الذى يرد إلينا متمثلاً فى أزياء غريبة عن أذواقنا وتقاليدنا، أو أشرطة تحمل ألحاناً صاخبة وأصواتاً مزعجة تصرخ بعنف يحطم الأعصاب، ونعدها فناً نتلقفه ونحاكيه لأنه قادم من الغرب المتقدم، غافلين عن الأسباب التى أفرزت فى الغرب مثل هذه الظواهر، وهى أسباب غريبة عنا بكل تأكيد [٢].

ويبدو أن « عقدة الخواجة » والتقدير الفائق لقدرات الأجنبى أمر ضارب بأطنابه فى بعض الجوانب من تاريخنا. فقد حكى الجاحظ فى كتاب «البخلاء» الحكاية التالية عن طبيب عربى مسلم هو (أسد بن جانى). يقول الجاحظ: « وكان طبيباً فأكسد مرة. فقال له قائل : السنة وبيئة، والأمراض فاشية، وأنت عالم، ولك صبر وخدمة، ولك بيان ومعرفة. فمن أين تؤتى فى هذا الكساد؟ قال : أما واحدة فإنى عندهم مسلم وقد اعتقد القوم قبل أن أتطبب، لا بل قبل أن أخلق أن المسلمين لا يفلحون فى الطب.

واسمى أسد، وكان ينبغى أن يكون اسمى صليبًا ومراسل ويوحنا وبيرا. وكنيتى أبو الحارث، وكان ينبغى أن تكون : أبو عيسى، وأبو زكريا، وأبو إبراهيم، وعلىَّ رداء قطنٌ أبيض، وكان ينبغى أن يكون علىَّ رداء حرير أسود. ولفظى عربى وكان ينبغى أن تكون لغتى لغة أهل جنديسابور » [١].

وكل هذه وغيرها شواهد تؤكد لنا ضرورة التحرر من مركبات النقص وعقد التخلف حتى نكون على ثقة بأنفسنا، والنقد الذاتى من ناحية أخرى كفيل بفتح عيوننا على كل عيوبنا.

وهذه الخطوات تمثل شروطاً ضرورية للدخول فى المواجهة العلمية التى على مؤسسات الدعوة أن تضطلع بها، وبخاصة تلك المؤسسات المعنية بتكوين الدعاة أو التخطيط لتكوينهم. وفيما يلى بعض الأفكار العملية المتواضعة فى مجال المواجهة الفكرية:

---

(١) انظر كتابنا : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى ص ١٢٧ وما بعدها.

خطوات عـــمليـــة :

نظراً لأن المواجهـة اليوم ـ كـما سبق أن أشـرنا ـ هى مواجـهة على المسـتوى الفكرى، ونظراً لأن التيارات الفكرية الوافدة تتخذ لنفسـها صفة العلمية والإنسانية والتقـدمية والحـضارية . . . إلخ، فلا بد لنا من أن ندخـل إلى هذا الميدان ونحن مسلحون بنفس الأسلحـة الفكرية التى تستخدمها هذه التـيارات أو التى تدعى أنها تستخدمها حتى يمكن كـشف زيفها على علم وعن بينة. وهذا يقتضى اتخاذ بعض الخطوات العملية ومنها على سبيل المثال ما يأتى :

١- إنشاء مركز علمى للدراسات الاستشراقية :

فليس من المعقـول ولا من المقبول أن يكون هناك فى أوربا وأمريكـا ما يقرب من مائة معـهد للاستشراق تقوم كـلها بدراسة عقائدنا وحضـارتنا ولغتنا وتاريخنا كله، ولا يوجد لدينا على امتداد العالم الإسلامى مركز بحوث واحد لدراسة الكم الهائل الذى أنتجته المؤسسة الاستشراقية عن ديننا وحضارتنا.

وحسب بعض الإحـصاءات بلغ عدد المؤلفـات التى أصدرها المستشـرقون عن الشرق منـذ أوائل القرن التاسع عـشر حـتى منتصف القـرن العشريـن ستين ألف كتاب. وفى الكثير منها طعن فى ديننا وتشكيك فى قرآننا وهجوم على نبينا وهدم فى حـضارتـنا وتراثنا كله. ونحن عن هذا كله غـافلون اللهم إلا بـعض الجهـود الفردية هنا وهناك.

ولا يخفى على أحد أن هناك فـريقاً من المثقفين فى العالم الإسلامـى معجبين بالدراسـات الاستشـراقيـة ومنهم من يتقلـدون مناصب الأستـاذية فى الجامـعات الإسلامية، ويقومون ببث أفكارهم بين الطلاب فى قاعات الدراسة.

٢- مركز علمى لدراسة التيارات المعاصرة :

وإنشاء هذا المركز يعد ضرورة تحتمهـا المصلحة الإسلامية للتعمق فى فهم هذه

التيارات ودراستها ثم إصدار الدراسات الرصينة الواعية التى تأتى على هذه المذاهب من القواعد بأسلوب علمى مقنع يكشف ما فيه من زيف وبطلان، الأمر الذى يحملها على الفرار من الساحة الفكرية فى بلاد المسلمين.

٣- موسوعة إسلامية عالمية :

هناك ضرورة ملحة ليس فقط على مستوى العالم الإسلامى، بل أيضاً على المستوى الفكرى العالمى لإخراج موسوعة إسلامية عالمية باللغة العربية وثلاث لغات أوربية على الأقل تعرض الإسلام عرضاً علمياً وبطريقة موضوعية تنأى عن الخلافات المذهبية الضيقة وترد فى الوقت نفسه على المزاعم التى تثار ضد الإسلام، وتحل هذه الموسوعة محل دائرة المعارف الإسلامية التى أخرجها المستشرقون وما يزالون يقومون بإخراج الطبعة الثانية منها، أو على الأقل تكون بجوار هذه الدائرة، والباحثون لدينا يعتمدون على تلك الدائرة الاستشراقية، وهم معذورون، فكل فراغ فكرى لدينا لا نشغله بأفكار من عندنا يكون عرضة للاستجابة لأفكار منافية، وربما معادية لأفكارنا فلا نلومنَّ حينئذ إلا أنفسنا.

وهذا العمل المطلوب لإخراج موسوعة إسلامية بأقلام المسلمين يقتضى تكوين هيئة علمية عالمية للموسوعة تضم خيرة العلماء من جميع أنحاء العالم الإسلامى تتوفر على إخراج هذا العمل العلمى الضخم من منطلق الانتماء للإسلام وحده والعمل من أجله لا من منطلق انتماءات إقليمية ضيقة. ولا بد من أن تتوفر لهذه الهيئة شتى الإمكانات المادية لتقوم بعملها على خير وجه.

وعلى مؤسسات الدعوة أن تتبنى الدعوة لجمع التبرعات من جميع أنحاء العالم الإسلامى لتمويل هذا العمل الإسلامى وتمويل المركزين البحثيين المشار إليهما قبل ذلك.

فهذه الموسوعة، وكذلك الدراسات التى تصدر عن هذين المركزين ستمد الدعاة برصيد علمى كبير يعينهم على القيام بمهمتهم فى مجال الدعوة الإسلامية على أفضل الوجوه، ويجعلهم قادرين على مواجهة شتى التيارات الفكرية.

٤- جهاز عالمى للدعوة الإسلامية فى الخارج :

وإذا تحدثنا عن مؤسسات الدعوة ودورها حيال الغزو الفكرى فى بلاد المسلمين فلا يجوز أن ننسى أن دور مؤسسات الدعوة يجب أن يمتد ليشمل الأقليات الإسلامية فى كل مكان. فهذه الأقليات تتعرض أكثر من غيرها لمخاطر الغزو الفكرى والمحو المنظم لعقيدتها وذاتيتها وارتباطها بتراثها ولغاتها وتاريخها كله، وبخاصة تلك الأقليات التى تعيش فى البلاد الشيوعية.

وعلى الرغم من وجود الملايين العديدة من المسلمين فى أوربا وأمريكا فإن الأجيال الجديدة من أبناء المسلمين هناك والأجيال القادمة يشبون وهم لا يعرفون من لغاتهم الأصلية شيئاً.

وهؤلاء إذا أرادوا التعرف على إسلامهم لا يجدون أمامهم ـ فى أغلب الأحيان ـ إلا كتب المستشرقين فى كل مكان فيستقون معلوماتهم من هذه الكتب ومعظمها تشكيك فى الإسلام.

ومن ناحية أخرى فإن وجود هذه الملايين من أبناء المسلمين فى البلاد التى تصدر لنا التيارات الفكرية المناوئة لفكرنا وديننا يدعونا لأن نهتم بهم اهتماماً مضاعفاً.

وهذا يتطلب إنشاء جهاز عالمى للدعوة الإسلامية فى الخارج يقوم بالدعوة إلى الإسلام من ناحية ويحمى المسلمين بالوراثة من ناحية ثانية ويرعى المسلمين الجدد من ناحية ثالثة.

ويقتضى ذلك ـ من بين أمور أخرى ـ إصدار سلسلة كتب إسلامية باللغات العالمية لتصحيح التصورات الخاطئة عن الإسلام فى الأذهان وتقديم الحلول الإسلامية لمشكلات المسلمين العصرية وبخاصة مشكلات المسلمين فى بلاد الحضارة الغربية.

كما ينبغى أن يهتم الجهاز المقترح بنشر لغة القرآن بأحدث وسائل التعليم حتى يظل ارتباط المسلم فى هذه البلاد موصولاً دائماً بقرآنه وبسنة نبيه عليه الصلاة والسلام.

وبعد :

فليس هناك شك فى أن تنفيذ مثل هذه المقترحات وغيرها من خطوات عملية فى هذا المضمار سيكون له مردود عظيم على الإسلام والمسلمين فى الداخل والخارج، وسيشد من عزائم الدعاة ويوسع آفاقهم ويجعلهم أكثر قدرة على مواجهة المواقف الفكرية المختلفة فى ثبات وقوة، ويجعل لهم الغلبة والنصر فى المعارك الفكرية أياً كان حجمها وأياً كانت الجهة التى تقف وراءها.

والأمر الجدير بالذكر فى هذا المقام هو أن الإنسان المعاصر فى عالم اليوم قد بدأ يبحث عن الثوابت فى مجال الدين والعقيدة. وإذا قام المسلمون بهذا العمل العلمى الضخم بشتى اللغات الحية فإنهم سيقدمون بذلك أجلّ خدمة للإسلام فى القرن الخامس عشر الهجرى، ويقدمون للإنسان المعاصر ـ المتعطش للمعرفة والباحث عن الحقيقة ـ النور والهداية.

وهناك مؤشرات قوية ـ كما يقول بعض المراقبين المطلعين على التطورات الفكرية فى العالم [1] ـ توحى بأن القرن الحادى والعشرين يمكن أن يشهد تحول نصف سكان الكرة الأرضية إلى الإسلام لما فى هذا الدين من عوامل جذب كثيرة بالنسبة للإنسان المعاصر، شريطة أن ينهض المسلمون بواجبهم العلمى فى عرض دينهم وعقائدهم بالأسلوب الذى يقنع الإنسان المعاصر.

وليس ما نقوله مجرد أمنيات أو أحلام؛ فمن منا كان يتصور قبل الحرب العالمية الثانية أن يكون للإسلام حضور قوى ومؤثر فى بلاد غرب وشمال أوربا؟

ولكن المعجزة قد حدثت، وارتفعت عشرات المآذن وأقيمت مئات المساجد فى بلاد غرب وشمال أوربا، وأصبح للإسلام وجود بالملايين من أبنائه فى كل أنحاء أوربا وأمريكا ، الأمر الذى حدا بالبعض إلى القول بأن الصحوة الإسلامية أو إشراق شمس الإسلام مرة أخرى سيكون من أوربا.

---

(١) د. رشدى فكار ، فى محاضرة له بالمركز العام لجمعيات الشبان المسلمين بالقاهرة فى ٢٩/٣/١٩٨٧م.

فالإسلام الذى بدأ غـريباً فى مكة ينطلق اليوم مرة أخـرى من بلاد الغربة فى الطرف الآخر من العالم.

وقد نتفـق أو نختلف مع هذا القول، ولكن الأمر الذى لا شك فـيه هو تزايد أعداد المسلمين باستـمرار فى تلك البلاد، الأمر الذى اضطرت معه كـثير من هذه البلاد إلى الاعتراف رسمياً بالإسـلام والاعتراف بكل ما يترتب على هذا الاعتراف من حقوق للمسلمين هناك..

﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (1).

صدق الله العظيم



(1) سورة يوسف : آية ٢١.

الفصل الثالث

مستقبل الإسلام
فى الغرب

ويتضمن هذا الفصل :

١ - تمهيد : ظاهرة إسلامية جديدة.

٢ - الوجود الإسلامى فى الغرب ومشكلاته.

٣ - سوء فهم الإسلام فى الغرب وأسبابه.

٤ - ركائز المستقبل الإسلامى فى الغرب:

أولاً : البعد المتعلق بالعالم الإسلامى.

ثانياً : البعد المتعلق بالمسلمين فى الغرب.

ثالثاً : البعد المتعلق بالعالم الغربى.

١- تمهيد : ظاهرة إسلامية جديدة :

منذ نهاية الحرب العالمية الثانية برزت إلى الوجود ظاهرة إسلامية جديدة فى العالم الغربى لم تجد حتى الآن ما تستحقه من اهتمام ورعاية من جانب الهيئات الإسلامية، وإن كان العالم الغربى يرصدها بكل دقة.

وتتمثل هذه الظاهرة فى اتساع رقعة المد الإسلامى فى طول البلاد الغربية وعرضها، فقد ازدادت أعداد المسلمين فى أوروبا وأمريكا فى العقود الخمسة المنصرمة زيادة ملحوظة لم تعد تقدَّر بالآلاف أو مئات الآلاف، بل تقدر بالملايين العديدة، وارتفعت المآذن فى كثير من البقاع فى القارتين الأوربية والأمريكية واضطر عدد من بلدان العالم الغربى إلى الاعتراف بالواقع الجديد وذلك بالاعتراف القانونى بالإسلام بما يترتب على ذلك من آثار تتيح للمسلمين إنشاء المدارس والجمعيات الخيرية والمؤسسات الإسلامية المختلفة، الأمر الذى أعطى للمسلمين فى تلك البلاد وزناً خاصاً وأهمية تتلاءم مع أعدادهم المتزايدة.

وهكذا تشاء العناية الإلهية أن تشرق شمس الإسلام فى هذه البلاد التى تأخر دخول الإسلام إليها أربعة عشر قرناً من الزمان . . ولو كانت موازين النصر قد مالت إلى جانب المسلمين فى معركة بواتييه جنوب فرنسا عام ٧٣٢م لعمَّت حضارة الإسلام جميع أنحاء أوربا منذ ذلك التاريخ.

صحيح أن معظم المسلمين فى بلاد الغرب الآن هم من أبناء البلاد العربية والإسلامية الذين هاجروا إلى هناك بعد الحرب العالمية الثانية واستقر بهم المقام فى بلاد المهجر، وذلك بالإضافة إلى من اعتنق الإسلام من أبناء البلاد الأصليين الذين يتزايد عددهم أيضاً باستمرار والحمد لله.

ومع أننا كمسلمين نغتبط لهذا المد الإسلامى المبارك إلا أننا فى الوقت نفسه

لابد لنا من التنبيه إلى خطر مستقبلى يتمثل فى القلق على مستقبل الأجيال القادمة من أبناء المسلمين فى بلاد الغرب. فقد كان الجيل الأول الذى استقر هناك يعرف لغته الأصلية وكانت لدية خلفية ثقافية إسلامية تحميه من خطر الذوبان فى المجتمع الجديد.

لكن الأجيال التالية لهذا الجيل - والتى نسى كثير من أبنائها لغته الأصلية - لم تجد من يحصنها بدرجة كافية بالثقافة الإسلامية ضد خطر ضياع الهوية الثقافية والذاتية الإسلامية.

مسئولية إنقاذ هذه الأجيال واستثمار المد الإسلامى الجديد فى الغرب يقع على عاتق الأمة الإسلامية والمؤسسات المعنية بشئون الدعوة الإسلامية فى العالم الإسلامى. فهذه الأجيال المسلمة فى تلك البلاد فى أشد الحاجة إلى أن نمد لها يد العون ونساعدها فى إقامة مؤسسات علمية وتعليمية وأنشطة ثقافية تقوم بالتوعية المستمرة بمختلف الوسائل وربط هذه الأجيال بالأمة الإسلامية وفتح عيونها على ما يتهدد ذاتيتها من أخطار.

ومن جانب آخر علينا أن نعمل جاهدين على محاولة تصحيح الصورة المشوهة للإسلام فى أذهان الغرب.. فهذا التصحيح يعد فى الوقت نفسه مساعدة قيمة لأبناء المسلمين فى بلاد المهجر حيث يشد أزرهم ويقوى جانبهم ويزيدهم ثقة واعتزازاً بدينهم وحضارتهم، والأسلوب العلمى فى هذا الصدد هو أنسب الوسائل لمواجهة تيار العداء السافر والمستتر للإسلام والمتأصل فى الثقافة الغربية منذ قرون عديدة.

وهذا إجمال يحتاج إلى شىء من التفصيل نوضح فيه مشكلات الوجود الإسلامى فى الغرب، وظاهرة سوء فهم الإسلام فى المجتمعات الغربية ثم ننتقل بعد ذلك إلى بيان الأبعاد الأساسية التى تحدد مستقبل الإسلام فى الغرب.

❖❖❖

٢ - الوجود الإسلامى فى الغرب ومشكلاته :

إن الدول الغربية لم تفكر فى بداية الأمر فى قضية الوجود الإسلامى فى الغرب. فقد كانت هذه البلاد ـ بعد الحرب العالمية الثانية ـ فى أشد الحاجة إلى الأيدى العاملة لتبنى نفسها بعد الدمار الذى خلفته الحرب.

ومن هنا كانت قضية إعادة البناء هى الشغل الشاغل للدول الأوربية ـ وبوجه خاص، لكل من انجلترا وفرنسا وألمانيا ـ ولم يكن يدور فى الأذهان أن المهاجرين إلى الغرب ـ من أبناء الأمة الإسلامية والعربية ـ سيستقرون فى البلاد التى هاجروا إليها. فالمفروض أن إقامتهم كانت مؤقتة، وكما يقول أحد القساوسة الألمان :

« لقد كان ينبغى عليهم فى واقع الأمر أن يعتبروا أنفسهم ضيوفاً مؤقتين وأن يتصرفوا على هذا الأساس، وأن يعودوا بعد ذلك إلى أوطانهم وهم محتفظون بآرائهم التى يعتنقونها » (١).

ولكن المهاجرين قد استقر بهم المقام فى بلاد الغرب، وعندئذ بدأ المجتمع الغربى يدرك مدى الكم الهائل من المشكلات التى ترتبت على ذلك ومنها على سبيل المثال لا الحصر : قضايا الحفاظ على الهوية الإسلامية، وتعليم الدين الإسلامى، ومشاكل التكيف مع الحضارة الغربية، والاندماج فى مجتمع مسيحى علمانى، والاغتراب المكانى والروحى، الأمر الذى جعل المسلمين فى كثير من البلاد الغربية يعيشون فى ظل ظروف تتمثل فى انتزاعهم من جذورهم، وفى الإحساس بالظلم والاستغلال الاجتماعى والتفرقة فى المعاملة بطريقة خفية أو مكشوفة (٢)، وسوء ظن الغربيين تجاه المسلمين الذين يعايشونهم لدرجة أن أحد

---

(١) انظر بحثاً لنا بعنوان : «الإسلام ومشكلات المسلمين فى ألمانيا» ص ٣٠ ـ مكتبة وهبة بالقاهرة ١٩٨١م.

(٢) راجع على سبيل المثال : التمييز فى الأجور والوظائف وآفاق المستقبل للشباب المسلم فى كندا ـ لداود حسن حمدان ـ ضمن كتاب الأقليات المسلمة فى العالم ص ١١٨٥ وما بعدها (المجلد الثالث) الرياض ١٩٨٦م.

علماء الطبيعة الألمان ـ الذى كان من المعارضين لإنشاء مركز إسلامى فى العاصمة الألمانية بون ـ عبَّر عن مقدار سوء الظن بالمسلمين قائلاً إنه أحب لديه أن يبنى «مفاعل ذرى» أمام باب منزله من أن يُبنى مركز إسلامى معللاً ذلك بأن المفاعل الذرى يمكن أن يحسب حسابه، أما المسلمون فلا يستطيع المرء أن يتنبأ بالأخطار التى ترد من جانبهم [١].

وقد أصبح وجود تلميذة مسلمة تغطى رأسها فى مدارس الغرب أمراً يشغل الرأى العام الغربى كله بوصف ذلك أمراً يتعارض مع التقاليد والحضارة الغربية، ولأنه فى الوقت نفسه يذكِّر الناس هناك بالإسلام. وهذا فى حد ذاته أمر غير مرغوب فيه.

والأمر الذى لا شك فيه هو أن الوجود الإسلامى فى الغرب يتعرض لتحديات خطيرة تهدد كيانه، وهى تحديات تفرضها البيئة المحيطة بأبناء المسلمين فى الغرب دينياً وأخلاقياً واجتماعياً. فكل سلبيات المجتمع الغربى ينعكس أثرها السلبى على الشباب المسلم فى الغرب سواء فى مجال التحلل من الدين أو القيم أو السلوك.

فالحياة الاجتماعية فى الغرب تثير الشكوك فى عقول الشباب حول كثير من الأمور المتعلقة بالعقيدة والحياة الإسلامية.

وفى هذا الصدد لا بد من الإشارة إلى جهود المبشرين التى تهدف إلى إبعاد المسلمين عن إسلامهم. وإذا لم تنجح جهودهم فى تنصيرهم فعلى الأقل تشكيكهم فى دينهم.

وهكذا يواجه المسلمون فى الغرب مشكلات دينية ونفسية واجتماعية وحضارية وسلوكية.

وينتهز أعداء الإسلام فى الغرب حقيقة ضعف المسلمين فى العالم الإسلامى وتخلفهم بإرجاع ذلك التخلف إلى الإسلام ذاته، وفى المقابل إرجاع تقدم

---

(١) الإسلام ومشكلات المسلمين فى ألمانيا ص ٨.

المجتمعات المسيحيـة إلى المسيحية ذاتها، فى حين أن الإسلام ـ كدين ـ لا صلة له بتخلف المسلمين، كما أن المسيحية ـ كدين ـ لا صلة لها بتقدم المجتمعات الغربية.

ورحم الله مـالك بن نبى الذى كـان يقول : « إن التـخلف الذى يعـانى منه العالم الإسلامى ليس سبـبه تمسك المسلمين بالإسلام وإنما هو عقوبة مسـتحقة من الإسلام على المسلمين لتخليهم عنه لا لتمسكهم به كما يظن بعض الجاهلين».

ويريد الساسـة الغربيون أن يتكـيف الإسلام فى الغرب مع التـقاليد الغـربية. ولذلك وجدنا وزير الداخليـة الفرنسى الذى رفض أن تمنح فرنسا تأشـيرات دخول للقراء والوعـاظ المصريين فى شهر رمـضان من عام (١٤١٣هـ) ـ كمـا كان ذلك سائداً فى الأعـوام الماضية ـ يبرر هذا الرفض بـأن فرنسا تريد «تنميـة الإسلام فى فرنسا على الطريقة الفرنسية».

وقـد أصبح الوجـود الإسلامى فى الغـرب يتـعرض اليـوم لأبشع الحمـلات الإعلامية ومـوجات الكراهية والتخويف من جانب الجمـاعات المتطرفة من النازيين الجدد فى ألمانيا واليـمينيين المتطرفين فى فرنسا وغـيرهما من جماعـات متطرفة فى بلاد غربية أخرى. وهى حملات ليست موجهة ضد المسلمين كأشخاص فحسب، بل ضد الإسلام بوصفه ديناً غير مرغوب فيه.

وما احـتضان الغـرب لسلمان رشـدى والدفاع عنه إلا حلقـة من حلقات هذا المخطط الإعلامى ضـد الإسلام، ولكن لماذا يتـعرض الإسـلام وحده من بين كل الأديان فى العالم لهذه المعاملة الظالمة ؟

٣- سوء فهم الإسلام فى الغرب وأسبابه :

إن سوء فهم الإسلام فى الغـرب بصفة عامة يرجع أساساً إلى تشويه مـتعمد للإسلام منذ قـرون طويلة. فالحـملات الضارية ضـد الإسلام اليوم ليـست وليدة ظروف جديدة طارئة، وإنما هى نتيـجة ترسبات قديمة ترسخت فى العـقلية الغربية

منذ الحروب الصليبية، بل حتى قبل الحروب الصليبية حينما فتح المسلمون الأندلس، وحينما فتح العثمانيون ـ فيما بعد ـ القسطنطينية وحاصروا العاصمة النمساوية فيينا.

وقد شهدت العصور الوسطى فى أوربا الكثير من الافتراءات ضد الإسلام والمسلمين، وراح اللاهوتيون النصارى فى ذلك الوقت المبكر ينشرون الافتراءات والأكاذيب حول الإسلام ونبيه ﷺ.

وهناك فى هذا الصدد الكثير من الأساطير فى وصف الإسلام، وهى أساطير مغرقة فى الخيال وفى الضلال اخترعها الكتاب فى ذلك العصر مثل أنشودة رولاند الشهيرة وغيرها من آثار أدبية تصف المسلمين بأنهم عباد أصنام[1] وتدمغهم بأحط الأوصاف. ولم ينج من نشر مثل هذا الضلال أعلام الأدباء فى الغرب مثل دانتى وفولتير وغيرهما. وقد ترسخ فى العقلية الغربية أن الإسلام دين عدوانى متعصب شهوانى تواكلى . . . إلخ، وما تزال حتى يومنا هذا تدرس للأطفال فى المدارس الغربية معلومات خاطئة عن الإسلام والمسلمين [2].

ومن هنا لا نعجب إذا وجدنا الحملات الإعلامية ضد الإسلام والمسلمين فى الغرب تنشط بين الحين والحين. فهى حملات تعبر عن مدى سوء فهم الغربيين للإسلام، ومدى تأصل ما ورثوه فى هذا الصدد من أوهام ترسخت فى أذهانهم.

ويعجب المرء عندما يجد أن الأديان الأخرى وبخاصة الأديان البشرية تعامل من جانب الغرب معاملة منصفة . . والإسلام وحده من بين كل الديانات فى العالم هو الذى يُهاجَم ويُسَاء إليه، وهو وحده الذى يُرمَى بكل النقائص.

---

(١) انظر كتابنا : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى ص ٢٩ وما بعدها ـ دار المنار بالقاهرة ١٩٨٩م، وكذلك : نظرة الغرب إلى الإسلام فى القرون الوسطى، لساذرن ـ ترجمة على فهمى خشيم ـ دار الفكر بطرابلس ـ ليبيا ١٩٧٥م.

(٢) يراجع فى هذا الصدد جهود ومنشورات الأكاديمية العلمية الإسلامية فى كولونيا بألمانيا. فقد قامت هذه الأكاديمية بإجراء دراسات حول المعلومات التى تشتمل عليها الكتب المدرسية عن الإسلام فى دول القارة الأوربية.

وترتعد فرائص الغربيين حينما يسمعون عما يسمى بالصحوة الإسلامية فى بعض البلاد الإسلامية، وينظر الغرب اليوم إلى الإسلام على أنه هو العدو البديل بعد انهيار العدو التقليدى المتمثل فى الشيوعية . . ولم يخف المسئولون فى الغرب ذلك، بل أعلنه العديد منهم فى صراحة ووضوح .

ويتضح موقف الغرب من المسلمين فى وقوفه موقف المتفرج لأكثر من عامين من مأساة البوسنة والهرسك فقد أعلن الصرب فى وضوح أنهم يقومون بمهمة تاريخية وهى حماية أوربا من الإسلام، وأن أوربا إذا قالت شيئاً غير ذلك فهذا من قبيل النفاق. وقد ظلت أوربا بالفعل تنافق طوال هذه المدة وتكتفى بإصدار بيانات الشجب والاستنكار إلى أن يحقق الصرب أهدافهم. ويريد الصرب أن يكرروا فى البوسنة والهرسك ما فعله الإسبان قبل خمسمائة عام من طرد المسلمين من الأندلس والفتك بهم. ولو نجح الصرب فى ذلك سيأتى الدور على بقية المسلمين فى بلاد غربية أخرى.

٤ـ ركائز المستقبل الإسلامى فى الغرب :

إن مستقبل الإسلام فى الغرب يتوقف بصفة أساسية على عدة عوامل : أولها يتعلق بالعالم الإسلامى، وثانيها يتعلق بالمسلمين الذين يعيشون فى الغرب، وثالثها يتعلق بالموقف الغربى نفسه.

فهناك ـ إذن ـ أبعاد ثلاثة: بعد على مستوى العالم الإسلامى، وبعد على مستوى المسلمين فى الغرب، وبعد غربى.

وهذه العوامل أو الأبعاد الثلاثة غير منفصلة عن بعضها، بل هى متداخلة ومتشابكة؛ ومن هنا فلا يجوز بحث مستقبل الإسلام فى الغرب دون النظر إليها من خلال هذا التداخل؛ نظراً لأن كل عامل منها له تأثير متبادل مع العوامل الأخرى. وفيما يلى نعرض وجهة نظرنا فى هذا الصدد :

أولاً : البعد المتعلق بالعالم الإسلامى :

أما البعد الأول وهو البعد الذى يتعلق بالعالم الإسلامى فإننا نود فى البداية أن نؤكد على حقيقة ثابتة فى أن مستقبل الإسلام فى الغرب يتوقف بالدرجة الأولى على مستقبل الإسلام فى العالم الإسلامى. فالمسلمون أمة واحدة، كما أراد الله لها أن تكون ﴿ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾[1] ومن هنا فإن عزة الإسلام وقوة المسلمين فى العالم الإسلامى وازدياد تأثيرهم فى مجال السياسة العالمية من شأنه أن يدعم الأقليات الإسلامية فى الغرب ويرفع من معنوياتها، ويزيدها التصاقاً بدينها وتراثها وحضارتها، ويعطيها الأمل فى مستقبل مشرق . .

ومن هنا تأتى ضرورة استمرار ربط الجسور مع المسلمين فى الغرب، ومعاونتهم فى تصحيح صورة الإسلام فى أذهان الغربيين بكل الوسائل العلمية والعملية التى تعرض الإسلام عرضاً سليماً يصحح المفاهيم المغلوطة ويزيل الشبهات ويبدد الأوهام ويقضى على الأباطيل المنتشرة بين الغربيين سواء فى وسائل الإعلام أو فى بحوث المستشرقين أو فى المناهج الدراسية. وهذا كله من شأنه أن يحمى أبناء المسلمين فى الغرب من أخطار التنصير وألاعيب الملاحدة.

وفى هذا الصدد نقترح الوسائل التالية :

١ـ إصدار دائرة معارف إسلامية باللغة العربية واللغات الأجنبية تعرض الإسلام عرضاً علمياً وبطريقة موضوعية تنأى عن الخلافات المذهبية الضيقة، وترد فى الوقت نفسه على المزاعم التى تثار ضد الإسلام، وتحل هذه الموسوعة - بالنسبة للمسلمين فى الغرب ـ محل دائرة المعارف الإسلامية التى أخرجها المستشرقون وما يزالون يقومون بإخراج الطبعة الثانية منها، كما تكون هذه الموسوعة أيضاً بجوار موسوعة المستشرقين بالنسبة لغير المسلمين ممن يريدون أن يتعرفوا على وجهات النظر الإسلامية من مصادرها الأصلية.

فالباحثون لدينا فى العالم الإسلامى وفى العالم الغربى أيضاً يعتمدون على

---

(١) سورة الأنبياء : آية ٩٢.

دائرة المعارف الاستشراقية ولعلهم معذورون فى ذلك نظراً لعدم وجود البديل؛ فكل فراغ فكرى لدينا لا نشغله بأفكار من عندنا يكون عرضة للاستجابة لأفكار منافية ـ وربما معادية ـ لأفكارنا، فلا نلومنَّ حينئذ إلا أنفسنا.

٢ـ إصدار موسوعة فقهية مختصرة باللغات الأجنبية تشتمل على كل ما يهم المسلم معرفته فى حياته التمهيدية والعملية.

٣ـ إصدار موسوعة حديثة مختصرة ومبوبة باللغات الأجنبية تشتمل أيضاً على كل ما يهم المسلم معرفته من أمور دينه.

٤ـ إصدار ترجمة معتمدة لمعانى القرآن الكريم بعدد من اللغات الأجنبية لخدمة المسلمين فى الغرب وخدمة الراغبين فى الاطلاع على الإسلام من غير المسلمين [١].

٥ـ مد المسلمين فى الغرب بالعلماء المستنيرين الفاهمين لحقائق الدين والدنيا، وتزويدهم بالمراجع الإسلامية الأصيلة والبرامج الدينية الهادفة التى تستفيد فى نشر الدعوة الإسلامية من كل منجزات العصر من إذاعة وتليفزيون وسينما وفيديو وكومبيوتر. وفى هذا الصدد ينبغى التفكير فى إنشاء قناة تليفزيونية إسلامية لخدمة أبناء المسلمين فى الغرب.

٦ـ إصدار سلسلة من الكتيبات باللغات الأجنبية تعالج العديد من القضايا المثارة على الساحة الفكرية والدينية من منظور إسلامى، وتعرف المسلمين بتاريخهم وحضارتهم، وما قدمته هذه الحضارة من علوم ومعارف وإنجازات رائعة كانت فاتحة خير للبشرية جمعاء.

٧ـ مساعدة المسلمين فى الغرب على اغتنام الفرص المتاحة ـ حسبما تسمح بذلك قوانين البلاد التى تعيش فيها جاليات إسلامية كبيرة ـ لإنشاء نظام تعليمى

---

(١) راجع كتابنا : قضايا فكرية واجتماعية فى ضوء الإسلام ص ٢٢٠ ، ٢٢٩ وما بعدها ، دار المنار بالقاهرة ١٩٨٨م.

إسلامى يبدأ من رياض الأطفال وينتهى بالجامعة ويعتمد هذا النظام على الجمع بين الدراسات المدنية المتعددة بالإضافة إلى برنامج إسلامى متكامل ـ ويندرج ذلك كله فى إطار فلسفة واضحة المعالم محددة الأهداف تنطلق من المفهوم الإسلامى للعلم الشامل لعلوم الدين والدنيا معاً.

ومن الطبيعى أن يقوم هذا النظام التعليمى الإسلامى بالتنسيق مع المؤسسات التعليمية فى الدول المضيفة حتى يمكن الاعتراف بالشهادات التى تمنحها المؤسسات التعليمية الإسلامية.

وهناك بالإضافة إلى هذه المساعدات العلمية الإسلامية ـ التى هى ضرورية بالنسبة للمسلمين فى الغرب ـ أمور أخرى ينبغى أن يضعها العالم الإسلامى فى اعتباره لما لها من أهمية بالغة فى مساعدة المسلمين فى الغرب، ومن ذلك على سبيل المثال :

(أ) جعل قضية الأقليات الإسلامية فى الغرب ضمن قائمة الأمور التى تكون موضوع مباحثات بين الجانب الإسلامى والجانب الغربى، مثلما يفعل الغرب ذلك ويضع فى رأس قائمة موضوعاته الاهتمام بالأقليات المسيحية فى العالم الإسلامى.

(ب) التركيز من جانب العالم الإسلامى على العناصر الإيجابية فى العلاقات التاريخية مع الغرب على المستوى الحضارى وعلى ما قدمته الحضارة الإسلامية من إنجازات باهرة كانت حافزاً للغرب على شق طريقه نحو التقدم والازدهار، وكذلك التركيز على موقف الإسلام التاريخى المتسامح مع المسيحية ومع كل الديانات السماوية.

(ج) إن التزام الدول الإسلامية بمبادئ الإسلام الحقيقية قولاً وعملاً من حيث احترام حقوق الإنسان وكرامته وآدميته من شأنه أن يحسن صورة الإسلام فى العالم ويبطل مزاعم الغرب ضد الإسلام. وهذا كله ينعكس أثره إيجابياً على المسلمين الذين يعيشون فى الغرب.

وحتى يمكن تحقيق هذه البرامج وغيرها من أمور أخرى يحتاجها المسلمون فى الغرب لا بد من إنشاء مؤسسة إسلامية متخصصة لرعاية الأقليات المسلمة فى العالم، ولا يكفى أن يكون بند الأقليات الإسلامية أحد بنود العديد من المنظمات الإسلامية التى ليس بينها فى الغالب أى تنسيق.

فالمطلوب هو مؤسسة متفرغة لهذا العمل بتمويل إسلامى تكون هى حلقة الوصل بين العالم الإسلامى والأقليات المسلمة فى العالم، وتكون مهمتها القيام بإعداد الدراسات اللازمة ووضع الخطط والبرامج ومتابعة التنفيذ.

وهذا الاقتراح وثيق الصلة بإحدى التوصيات العامة التى أصدرها المؤتمر العالمى السادس للندوة العالمية للشباب الإسلامى الذى انعقد فى الرياض عام ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م. فقد أوصى هذا المؤتمر حكومات الدول الإسلامية والهيئات والمنظمات المعنية بإنشاء صندوق يسمى « صندوق الأقليات الإسلامية ».

ثانياً : البعد المتعلق بالمسلمين فى الغرب :

أما البعد الثانى الذى يتصل بالمسلمين الذين يعيشون فى الغرب فإن عليهم مسئولية كبيرة فى مساعدة أنفسهم، ليس فقط من أجل ضمان استمرار وجودهم فى الغرب، بل أيضاً من أجل دعم هذا الوجود وازدهاره والتطلع إلى غد أكثر إشراقاً.

وأود فى هذا الصدد أن أعرض بعض التصورات التى أعتقد أن لها أهميتها القصوى فى مستقبل الإسلام فى الغرب:

١- ضرورة اتحاد المجموعات الإسلامية فى الدول الغربية وتوثيق الروابط فيما بينها والبعد عن الصراعات المذهبية الضيقة والتيارات السياسية التى من شأنها أن تقوض أواصر المودة بين المسلمين فى الغرب.

فمن غير المعقول أن تنقل التجمعات الإسلامية معها إلى الغرب الصراعات السياسية والأيديولوچية والمذهبيات الضيقة السائدة فى البلاد التى أتت منها، وتنسى - فى غمار ذلك - مشاكلها الحقيقية التى ينبغى أن تهتم بها.

وما زلت أذكـر ما دار من مناقشات فى أحـد المراكز الإسلامـية فى أوربا عند زيارتى لهذا المركـز عام ١٩٨٠م. فقد دارت المناقـشات كلها من خـلال منطلقات سياسية وأيديولوچيات يؤمن بها هذا الفريق أو ذاك، وهذا كله يعد من قبيل الهزل فى وقت الجد، وفيه إضاعة للجهد والوقت وتمزيق للروابط واستنفاد للطاقة. فماذا يبقى هناك من طاقة لحل المشكلات فى بلاد المهجر؟

إن مما لا شك فيه أن هناك تحديات خطيرة تواجه المسلمين فى الغرب. والوعى بالمشكلات الحقيقية التى تواجههم ووضعها فى إطارها الصحيح ومراعاة الأولويات فى هذا الصدد هو البداية الصحيحة فى سبيل البحث عن حلول لهذه المشكلات.

٢ـ ضرورة فهم العقليـة الغربية والتعامل معهـا من هذا المنطلق؛ فلا يعقل أن يعيش المسلم فى الغرب وهو يجهل العقلية الغربية وأنماط السلوك الغربى. فالله قد خلقنا مختلفين لنتعارف ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا** ﴾ (١) .

وهذا التعـارف هو الخطوة الأولى للفهم المتـبادل والاحـترام المتبادل والتعاون المشترك. وبذلك يمكن القضاء على أسباب الصـراع وانعدام الثقة والأحكام المسبقة على كلا الجانبين.

٣ـ على المسلمين فى الغـرب أن يقدموا للآخرين صـورة مشرقـة عن الإسلام وذلك بتقديم النموذج الإسلامى الحى المجسِّد لتعاليم الإسلام عملاً لا قولاً فقط، وجوهراً لا شكلاً فحسب.

ويتمـثل ذلك فى السلوك الإسـلامى الملموس الذى يجـذب ولا ينفِّر، فـهذا السلوك على المستوى الـفردى والجماعى له أثره البالغ لا فى تعـديل صورة الغرب عن الإسلام فحسب، بل لجذب الغربيين للإسلام أيضاً.

وليس هناك مـعنى لأن نركز في الغـرب على المظاهر الشكليـة على حسـاب

---

(١) سورة الحجرات : آية ١٣.

الجوهر؛ فالإسلام ليس مجرد مظاهر ورسوم ولكنه عقيدة تمتلئ بها جوانب النفس فتضيء إشراقاً ومحبة للجميع.

وقد روى لى أحد الأساتذة المسلمين فى إحدى الجامعات الألمانية أن شاباً ألمانياً مسلماً يدرس مع أقرانه دراسات إسلامية فى أحد معاهد الاستشراق. وبصرف النظر عن المظهر الغريب لهذا الشاب، والذى هو - فى حد ذاته - منفِّر بالنسبة للآخرين ، فإنه دخل فى إحدى المرات إلى المعهد الذى يدرس فيه فوجد زملاءه - وهم مسيحيون - يقرأون فى المصحف بعض آيات القرآن الكريم تتصل بما يدرسونه. فما كان منه إلا أن نهرهم بغلظة وانتزع المصحف من بين أيديهم، ونهاهم عن لمسه لأنهم كافرون.

فهل مثل هذا السلوك هو الأسلوب السليم لجذب الآخرين إلى الإسلام أو - على الأقل - لإعطائهم صورة مشرقة للسلوك الإسلامى ؟

٤- إقامة الندوات العلمية المشتركة مع العناصر الغربية المستعدة للتفاهم، والمحبة للتعايش فى سلام وأمن واستقرار مع المسلمين، وفتح حوار إيجابى معها يركز على العناصر الإيجابية المشتركة وينحِّى - جانباً - كل ما من شأنه أن يعكر صفو العلاقات بين الجانبين.

وبهذه الطريقة يكسب المسلمون فى الغرب أصدقاء يمكن أن يكون لهم أثر فى خدمة الوجود الإسلامى فى الغرب.

٥- إيجاد الصيغة المناسبة للحفاظ على الذاتية الإسلامية للمسلمين فى الغرب - من جانب - والمشاركة الفعالة فى أنشطة المجتمعات الغربية - من جانب آخر.

فالمسلمون فى الغرب لا يجوز لهم أن ينعزلوا فى حارات مثل حارات اليهود، ولكنهم - من ناحية أخرى - لا يجوز لهم أن يذوبوا فى المجتمع الغربى، بمعنى أن يفقدوا هويتهم الدينية والثقافية.

ولا ننسى أن هناك أخطاراً حقيقية فى هذا الصدد تهدد الأجيال الجديدة من أبناء المسلمين فى الغرب.

ومن هنا فإنه من الضرورى أن تحصِّن الأسر المسلمة أبناءها بالثقافة الإسلامية الرشيدة، مثلما نحصِّن الأطفال عن طريق الأمصال المناسبة ضد الأمراض المختلفة. وهذا يحتم إقامة مؤسسات ثقافية إسلامية فى بلاد الغرب للمساعدة على تحقيق هذا الهدف.

وتتمثل هذه المؤسسات الثقافية فى مؤسسات إسلامية للتثقيف العام تكون - من ناحية - فرصة لالتقاء أبناء الجاليات الإسلامية فى الغرب، ومن ناحية ثانية: تعمل على تأكيد الانتماء الإسلامى ودعمه لدى أبناء هذه الجاليات، ومن ناحية ثالثة: تعمل على استكمال النقص فى برامج التعليم العام فى هذه البلاد؛ حيث لا تكون هناك فى الغالب برامج للتربية الإسلامية، أو إذا كان هناك شىء من هذا القبيل يكون هامشياً ولا يفى بالغرض.

وتسير هذه المؤسسات الثقافية - جنباً إلى جنب - مع المراكز الإسلامية القائمة ومع الاهتمام بإنشاء مدارس إسلامية ما دامت قوانين البلاد تسمح بذلك.

٦- ضرورة فهم حقائق الواقع وحسن التعامل مع هذا الواقع. لقد قرأت فى صحيفة إسلامية تصدر فى إحدى الدول العربية أن حزباً إسلامياً قد تم تشكيله فى دولة أوربية وأنه أعلن أنه يريد تطبيق الشريعة الإسلامية فى هذا البلد.. فهل هذا كلام معقول؟ ..

إن هذا يعنى عدم فهم للواقع الغربى من ناحية، ومن ناحية أخرى يعطى للآخرين الفرصة لتأليب الرأى العام ضد المسلمين فى الغرب؛ وهنا تظهر تُهم الأصولية والعنف والعدوانية والتعصب ... إلخ.

ومن جهة ثالثة نسأل : هل تم التطبيق فى العالم الإسلامى حتى نطالب به هنا فى الغرب ؟

إن المؤمن كيِّس فطن وعليه أن يبتعد عن الأسلوب الساذج فى التعامل مع حقائق الحياة.

❖❖❖

ثالثاً : البعد المتعلق بالغرب :

أما البعد الخاص بالغرب، فإنه يتوقف على البعدين السابقين؛ فالمبادرة بالنسبة لدعم مستقبل الإسلام فى الغرب لن تأتى من الغرب ذاته، ولكنها لا بد أن تأتى من الجانب الإسلامى.

وإذا أردنا أن نلخص أهم النقاط فى الموقف الغربى إزاء الإسلام والمسلمين الذين يعيشون فى الغرب فإننا نحددها فى التساؤلات التالية:

١ـ ما مدى تقبل المجتمعات الغربية للوجود الإسلامى ؟

٢ـ ما مدى جدية المجتمعات الغربية فى مكافحة العنصرية المعادية للأجانب بصفة عامة وللإسلام والمسلمين بصفة خاصة؟

٣ـ ما مدى استعداد الغرب للتعامل مع الإسلام بموضوعية وإنصاف فى وسائل الإعلام كما يفعل مع الديانات الأخرى ؟

٤ـ ما مدى استعداد الغرب لتصحيح الأخطاء فى المعلومات المدرسية عن الإسلام؛ حتى لا تنشأ الأجيال الغربية الجديدة وهى تسير فى نفس خط المعاداة للإسلام والمسلمين؟

إن من الواضح أن تعديل المواقف والتصورات الغربية والإجابة عن هذه التساؤلات يتوقف على مدى تعاملنا الإيجابى مع البعدين السابقين.

وهذا يضاعف من مسئوليتنا على مستوى العالم الإسلامى ـ من جهة ـ وعلى مستوى الأقليات المسلمة فى الغرب ـ من جهة أخرى.

ونخلص من ذلك كله بأن مفتاح حل مشكلات الوجود الإسلامى فى الغرب فى أيدى المسلمين أنفسهم، وليس فى يد غيرهم. فإذا لم نساعد أنفسنا فلن يساعدنا أحد، كما أن الله سبحانه وتعالى لن يساعدنا أيضاً إلا إذا ساعدنا أنفسنا. . وهذا قانون قرآنى ثابت:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾[1] .

فهل نحن على استعداد لتحمل مسئولياتنا إزاء الأجيال القادمة فى الغرب؟

إذا كنا على استعـداد لذلك فإن الأمر يقتضـى تحديد الأهداف ووضع البرامج العلمية والعملية، واتخاذ الوسائل الكفيلة بتحقيق هذه البرامج.

ولعل فى بعض التصورات التى قدمتها - وهى غـير مجهولة لديكم - ما يفيد فى مجال البـحث فى هذا الصدد، ولعلى قصدت بها أن نثـرى النقاش حول هذا الموضوع؛ للخروج بتصورات شاملة؛ لبلوغ الأهداف المرجوة.

والله ولى التوفيق



(١) سورة الرعد : آية ١١ .

خاتمة عامة

حول هموم العالم الإسلامى

١ـ نقد الآخر :

لقد دعيت فى الفترة الأخيرة للمشاركة فى ندوة عقدتها الجامعة الإسلامية العالمية فى إسلام آباد بجمهورية باكستان حول موضوع (العالم الإسلامى والعولمة) . وقد أثارت هذه الندوة فى نفسى شجوناً كثيرة حول هموم العالم الإسلامى المتراكمة التى يئن تحت وطأتها ، والطريقة التى يتعامل بها المسلمون للخروج من حالة التأزم الحضارى القائم الذى يحيط بهم من كل جانب .

فمن الملاحظ أن الكثيرين فى عالمنا الإسلامى يميلون إلى تعليق كل مشكلات المسلمين على شماعة الغير الذى نعتقد ـ صواباً أو خطأً ـ أنه يتربص بنا ، ويخطط لمحونا كمسلمين من خريطة العالم . ويسترسل بنا التفكير ويمتد بنا الخيال للحديث عن تفاصيل التخطيط الخبيث من جانب الآخرين لنهب خيرات العالم الإسلامى، وتدمير اقتصاده وتجويعه ، ومحاولات فرض القيم والمعايير الغربية على الشعوب الإسلامية . . إلخ .

ولا ينسى الكثيرون ـ فى هذا الصدد ـ الحديث عن مثالب المجتمعات الغربية وتدهورها الأخلاقى ، وانحلالها الاجتماعى، وتخلفها الروحى . وفى المقابل يحلو لنا الحديث عما لدينا من قيم روحية وأخلاقية سامية تقينا من شرور هذه المجتمعات وتجعلنا أكثر رقياً فى هذا الجانب . فإذا كانت المجتمعات الغربية قد قطعت أشواطاً كبيرة فى سلم التقدم المادى فنحن أكثر تقدماً ورقياً على المستوى الروحى والأخلاقى من الغرب المتبجح بصناعاته وابتكاراته المادية . إننا إذن فى مجتمعاتنا الإسلامية بخير والحمد لله . وعلى هذا النحو نتعامل فى الأعم الأغلب مع مشكلة التخلف فى العالم الإسلامى دون أن نقدم حلولاً عملية ناجعة لحل هذه المشكلة المتعددة الجوانب .

وفى خضم تحمُّسنا لنقد الآخر وفضح عيوبه وانحرافاته وظلمه وقهره للشعوب وتفسُّخه على المستوى الاجتماعى وتحلله على المستوى الأخلاقى والدينى ؛ ننسى أننا بذلك لا نسىء إلى الآخر ، بل نسىء إلى أنفسنا ، لأننا بذلك نتجاهل عيوبنا ونتغاضى عن نقد أنفسنا . فسهام النقد التى فى جعبتنا قد تم توجيهها إلى الآخر ، ولم يعد لدينا سهم واحد فى هذه الجعبة يمكن أن نوجهه إلى أنفسنا . وبذلك تتراكم مشكلاتنا يوماً بعد يوم دون أن نبذل الجهد المناسب لإيجاد الحلول الملائمة لها . فالغرب لنا بالمرصاد يجهض كل محاولاتنا ويمسك بيده كل خيوط اللعبة المحكمة الماكرة .

وهذا النمط من التفكير يريح الكثيرين من أبناء الأمة الإسلامية . فقد أدينا بذلك واجبنا فى تعرية الآخر وكشف مؤامراته ، وبالتالى فإن تخلفنا ـ إذا كان هناك تخلف ـ سببه الآخر . وجماهير الأمة من كثرة تعودهم على سماع ذلك قانعون راضون يصفقون طويلاً لمن يضرب على هذا الوتر ويخاطب عواطفهم وانفعالاتهم .

٢ـ ضرورة النقد الذاتى :

أما النقد الذاتى ، أما نصيبنا أو إسهامنا فى التخلف القائم، أما قعودنا عن فعل أى شىء إيجابى لتغيير الأوضاع المتخلفة فى العالم الإسلامى ، فإن هذه أمور غير واردة فى الحسبان. فنحن بخير والحمد لله. وهكذا نقوم بإرادتنا ـ دون أن يرغمنا أحد على ذلك ـ بتغييب وعى الجماهير.

إن النقد الذاتى هو الخطوة الأولى نحو الوعى بعيوبنا وأدوائنا وما نتحمله من مسئولية لما يعانيه هذا العالم الإسلامى من التخلف . . الوعى بأننا نتحدث كثيراً ولا نفعل شيئاً إلا أقل القليل . . الوعى بأن هناك واقعاً متخلفاً فى عالمنا الإسلامى يجب أن يتغير . . الوعى بأننا ـ نحن المسلمين ـ نسهم بشكل أو بآخر ـ بقصد أو بغير قصد ، بحسن نية أو بسوء نية ـ فى تخلف مجتمعاتنا الإسلامية .

إن الآخر ينقد نفسه باستمرار ، وكثير من نقدنا له صادر فى الأساس عنه . فنحن مثلاً حين ننقد العولمة ننسى أن الكثير من هذا النقد صادر من مجتمعات العولمة ذاتها . فكتاب «فخ العولمة» ـ على سبيل المثال ـ صادر عن مؤلفين غربيين نستعير منهما نقدهما للعولمة .

ونقد دعوى صراع الحضارات ونهاية التاريخ صادر أيضاً من الغرب وبخاصة من أوربا التى لها فى الأعم الأغلب موقف رافض لهذه الدعاوى الصادرة من الولايات المتحدة الأمريكية .

إننا فى عالمنا الإسلامى فى أشد الحاجة إلى تعديل مواقفنا ، وتطوير أسلوب تفكيرنا ، وتغيير سلوكنا ، والتعرف على الحقائق بطريقة موضوعية بعيدة عن أى ميول عاطفية أو انفعالات وقتية . وهذه كلها أمور تتطلب المزيد من النقد الذاتى، وفتح عيون مواطنينا على نقاط الضعف لدينا والوعى بعيوبنا .

ومن جانب آخر نحن فى أشد الحاجة أيضاً إلى غرس القيم الدافعة إلى تقدم المجتمع فى نفوس أبنائنا . وهذا أمر يقتضى تغيير المفاهيم وتغيير العقليات حتى تكون قادرة على تحمل تبعات النقد الذاتى الذى سيكشف عن الكثير من المساوئ والأخطاء . وكفانا تضييعاً للوقت وتبديداً للجهد وتشتيتاً للفكر فى صرف الانتباه عن عيوبنا وتخاذلنا وتقصيرنا وتعليق ذلك كله على إحدى الشماعات التى تريحنا .

٣ـ مرحلة حاسمة :

إن المرحلة التى يعيشها عالمنا الإسلامى المعاصر لم تعد تحتمل هذا العبث بمقدرات الأمة . فهذه المرحلة تعد من أخطر المراحل الحاسمة فى تاريخ أمتنا الإسلامية، إن لم تكن أخطرها على الإطلاق . ذلك لأن الظروف التى يمر بها العالم المعاصر تختلف اختلافاً أساسياً عن كل ظروف سابقة . فبعد الثورة الصناعية والحروب الساخنة والباردة يعيش عالمنا المعاصر ثورات من نوع مختلف تتمثل فى ثورة المعلومات وثورة الاتصالات والثورة التكنولوجية . وكلها ثورات حدثت خارج نطاق العالم الإسلامى . وفى الوقت الذى يعيش فيه العالم المتقدم هذه الثورات ويقطف ثمارها ، ويجتاح بتيار العولمة بقاع الأرض، نجد عالمنا الإسلامى لا يزال يرزح فى معظمه تحت وطأة التخلف والأمية ، ويندرج فى عداد الدول النامية ، ويعانى بالإضافة إلى ذلك من صراعات ونزاعات بين دوله وطوائفه تنخر فيه كالسوس ، وتعطل نموه الكيفى وتعوق تنميته وتستنزف طاقاته وإمكاناته .

وإذا كان العالم المتقدم يسعى لمحو الأمية التكنولوجية فى بلاده ، فإننا فى عالمنا الإسلامى لا زلنا ـ فى الأعم الأغلب ـ نعانى من مشكلة الأمية الأبجدية التى لا تقل نسبتها

فى المتوسط عن أربعين فى المائة ، مع أن رسولنا العظيم عليه الصلاة والسلام قد قدم لنا منذ أربعة عشر قرناً من الزمان أبلغ الدروس فى الاهتمام بمحو الأمية بين المسلمين حين كان يفرج عن الأسرى فى غزوة بدر إذا قام الواحد منهم بمحو أمية عشرة من أبناء المسلمين بتعليمهم القراءة والكتابة .

إن العالم من حولنا يجرى بسرعة مذهلة ، والفجوة بين العالم المتقدم والعالم الإسلامى تزداد اتساعاً يوماً بعد يوم . وهذا يعنى أن العالم الإسلامى - الذى يقف الآن فى مفترق طرق - يواجه قضايا مصيرية وتحديات كبرى ، وليس هناك مفر أمامه من التحرك السريع لمواجهة هذه القضايا ، والتصدى لهذه التحديات، والعمل بسرعة لتغيير هذا الوضع المتخلف ، ولن يسعفنا فى ذلك أو يساعدنا على الخروج من هذا المأزق الخطير قوة خارجية أو حتى غيبية ، وإنما التغيير يجب أن يكون ذاتياً ، منبعثاً من إرادة إسلامية. فزمن المعجزات قد انتهى ، والقانون القرآنى فى التغيير يحدد لنا معالم الطريق حين يقول : **﴿إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم﴾**[1] .

ولا يجوز للمسلمين فى عالم اليوم أن يكونوا مجرد متقبلين أو مستهلكين لمنتجات العصر وأفكاره . فدينهم العظيم يفرض عليهم أن يكونوا مشاركين بفاعلية فى كل التطورات العلمية والإنجازات التكنولوجية التى تخدم الإنسانية .

وقد نهض علماء المسلمين فى السابق بواجبهم وتحملوا مسئولياتهم. وبذلك أسهموا فى بناء صرح حضارة إسلامية شامخة قدمت عطاءها الغزير للإنسانية كلها ، وكانت من أطول الحضارات عمراً فى التاريخ . ولكن عندما أصيبت همم المسلمين بالفتور، وضعفت عزائمهم ، وخارت قواهم ، تراجعوا إلى مؤخرة الصفوف وتوقف عطاؤهم الحضارى .

وإذا كان تيار العولمة يجتاح عالمنا فى جميع الجهات فإن علينا أن نميز فى هذا التيار بين ما هو إيجابى وما هو سلبى وأن نغتنم ما يأتى به من فوائد ، وفى الوقت نفسه نحصّن أنفسنا ضد ما يجلبه من مخاطر أو سلبيات. وفى كلا الحالين فإننا مطالبون بعمل إيجابى . ومن هنا فإن العالم الإسلامى ينبغى أن يرتفع إلى مستوى التحديات وأن يواجهها بشجاعة وألا ينحنى أمامها ضعفاً أو استخذاء .

---

(١) سورة الرعد : آية ١١ .

إن الأمر جد لا هزل فيه ، وعالمنا لا يرحم الضعفاء ولا يحترم غير الأقوياء . ونحن المسلمين لسنا دعاة استعلاء ، وإنما نحن دعاة عدل وسلام . ولكن لن يُسمع لنا صوت مادمنا ضعفاء . فالعدل والسلام يحتاج إلى عنصر القوة . وقوة عالمنا المعاصر لم تعد فى قوة السلاح فحسب ، وإنما فى قوة العلم والمعرفة . فمن يملك العلم يملك القوة ، ومن يملك القوة يحظى بالاحترام ويكون قادراً على تصحيح المسار من أجل خير وسلام البشرية.

٤ ـ مواجهة التحديات :

ونحن المسلمين فى أشد الحاجة إلى التعاون والتنسيق والتكامل على جميع المستويات لمواجهة التحديات المعاصرة. وإذا كان العالم المتقدم يقوم بتكوين تكتلات اقتصادية كبرى يستطيع من خلالها فرض إرادته وتجارته وسلعه وخدماته فإن الكيانات الاقتصادية الضعيفة لن يكون لها مكان ولن تقوى على البقاء فى ظل التنافس الاقتصادى القائم فى عالم اليوم.

ويتلفت المسلم حوله فلا يجد تكتلاً اقتصادياً واحداً له أهميته فى نطاق عالمنا العربى الإسلامى . وهذا وضع جعل حجم التجارة البينية بين دول العالم الإسلامى يصل إلى أقل من ١٠٪ من مجمل معاملاته التجارية مع بقية دول العالم خارج نطاق العالم الإسلامى.

وعلى الرغم من كل السحب الكثيفة التى تغطى سماء عالمنا الإسلامى فإننا لا نريد أن نكون متشائمين ، ولا يجوز لنا بأى حال من الأحوال أن نفقد الأمل فى مستقبل أفضل للمسلمين . فاليأس والإحباط ليسا من سمات الشخصية الإسلامية : ﴿ **إنه لا ييأس من رَوْحِ الله إلا القوم الكافرون** ﴾[1].

وعندما يتطلع المسلمون إلى غد أفضل فإنهم فى حقيقة الأمر لا ينطلقون من فراغ . فهم أغنياء بما يشتمل عليه دينهم من قيم دافعة إلى التقدم المادى والمعنوى ، وبما لديهم من رصيد حضارى عظيم ، وبما حباهم الله به من ثروات طبيعية كثيرة ، وبما يمتازون به من مواقع جغرافية مهمة تشكل سلسلة متصلة الحلقات لها أهميتها الاستراتيجية الكبرى .

ولكن تحقيق الأهداف المرجوة لا يكون بالتمنى ، وإنما يتطلب إرادة فاعلة ، وعزماً

---

(١) سورة يوسف : آية ٨٧.

أكيداً، وعقلية واعية ، وهمة عالية وسعياً متواصلاً من أجل ترجمة الأمنيات إلى حقائق على أرض الواقع .

وفى ختام هذا الكتاب نود أن نؤكد مرة أخرى على حاجة المسلمين الماسّة إلى إعمال العقل والتمسك بالفكر الموضوعى والبعد عن الخرافات والأوهام، والإقبال بكل الهمة على العلم بجميع مجالاته والتنافس من أجل التفوق فيه ، والوعى بأن إعمار الأرض وصنع الحضارة فيها يعد مسئولية دينية تحقق إرادة الله الذى استخلف الإنسان فى الأرض، وهذا بدوره يتضمن ـ بطبيعة الحال ـ مسئولية المسلمين فى المشاركة بفاعلية فى صنع السلام والأمن والاستقرار فى العالم الذى هو عالمنا جميعاً .

والله ولىُّ التوفيق .

* * *

قائمة بأهم الأعمال العلمية للمؤلف



١- تمهيد للفلسفة (الطبعة الخامسة) - دار المعارف ١٩٩٤م.

٢- المنهج الفلسفى بين الغزالى وديكارت (الطبعة الرابعة) - دار المعارف ١٩٩٧م.

٣- مقدمة فى علم الأخلاق (الطبعة الرابعة) - دار الفكر العربى ١٩٩٣م.

٤- دراسات فى الفلسفة الحديثة (الطبعة الثالثة) - دار الفكر العربى ١٩٩٣م.

٥- مدخل إلى الفكر الفلسفى (مترجم عن الألمانية) - دار الفكر العربى (الطبعة الثالثة) ١٩٩٦م.

٦- ثلاث رسائل فى المعرفة للإمام الغزالى (تحقيق ودراسة) - مكتبة الأزهر ١٩٧٩م.

٧- الإسلام فى مرآة الفكر الغربى (الطبعة الرابعة) - دار الفكر العربى ١٩٩٤م.

٨- الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى - دار المعارف ١٩٩٧ م.

٩- الإسلام فى تصورات الغرب - مكتبة وهبة بالقاهرة ١٩٩٧م.

١٠- قضايا فكرية واجتماعية فى ضوء الإسلام - دار المنار بالقاهرة ١٩٨٨م.

١١- الإسلام والغرب - من مطبوعات المجلس الأعلى للشئون الإسلامية (سلسلة قضايا إسلامية) ١٩٩٤ م.

١٢- مقدمة فى الفلسفة الإسلامية - القاهرة ١٩٩٧م.

١٣- الدين والحضارة - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة ١٩٩٦م.

١٤- الإسلام وقضايا العصر - القاهرة ١٩٩٦م.

١٥- من أعلام الفكر الإسلامى الحديث - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة ١٩٩٧ م.

١٦- الدين والفلسفة والتنوير - سلسلة اقرأ - دار المعارف ١٩٩٦م.

١٧- الإسلام وقضايا الإنسان - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة ١٩٩٧م.

١٨- الإسلام فى مواجهة حملات التشكيك - من منشورات المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة ١٩٩٨م .

ثانياً : رسائل صغيرة :

١- الإسلام ومشكلات المسلمين فى ألمانيا - مكتبة وهبة بالقاهرة ١٩٨١ م.

٢- دور الإسـلام فى تطور الفكر الفلسفى - مكتبة وهبة بالقاهرة ١٩٨٤م، ودار المنار ١٩٨٩م.

٣- الإسلام والاستشراق - مكتبة وهبة بالقاهرة ١٩٨٤م.

٤- العقيدة الدينية وأهميتها فى حياة الإنسان - ملحق لمجلة الأزهر - رجب ١٤١٥ هـ (ديسمبر ١٩٩٤م).

٥- الإسلام دين الحضارة - ملحق لمجلة الأزهر - المحرم ١٤١٨هـ (مايو ١٩٩٧ م).

ثالثاً : مؤلفات وبحوث بلغات أجنبية :

١- فى اللغة الألمانية:

(1) Al Ghazalis Philosophie im Vergleich mit Descartes. Peter Lang Verlag, Frankfurt 1992.

(2) Heutige Weltverantwortung in islamischer Sicht. in : Universale Vaterschaft Gottes. Herder -Verlag 1987.

(3) Die Kulturellen Beziehungen zwischen dem Westen und der islamichen Welt, in : Festschrift für A. Falaturi, Böhlau verlag Köln-Wien 1991.

(4) Al Ghazali. in : Klassiker der Religionsphilosophie, C.H. Beck'sche Verlagsbuchhandlung, München 1995. bei Wien 1992.

(5) Der Mensch im Koran. St Gabriel, Mödling bei Wien. 1992.

(6) Ein Islam und viele Interpretationen.

In : Gesichter des Islam. Hrsg. haus der Kulturen der Welt. Berlin. 1992.

(7) Friede in islamischer Sicht, Begriff und Notwendig keit des Weltfriedens. In : Friede fur die Menschheit. St. Gabriel, Möding bei Wien 1994.

(8) Gerechtigkeit aus islamischer Sicht.

بحث ألقى فى الندوة العلمية حول (العدل والسلام فى المسيحية والإسلام) بجامعة مونستر بألمانيا ـ نوفمبر ١٩٩٢ م.

(9) Der Islam in unserer Welt, Islamische Wissenschaftliche Akademie. Köln 1995.

(10) Die Rolle des Islams in der Gesellschaft.

محاضرة ألقيت فى المؤتمر الدولى بجامعة كولونيا بألمانيا حول (أوربا والحضارة الإسلامية) ـ مايو ١٩٩٣م.

(11) Jesus im Koran.

محاضرة ألقيت فى كلية اللاهوت بجامعة زيوريخ بسويسرا ـ سبتمبر ١٩٩٣ م.

(12) Die Spiritualität im Islam.

بحث ألقى فى المؤتمر الدولى حول (الروحانيات فى الأديان العالمية) بمدينة لوكوم بألمانيا ـ نوفمبر ١٩٩٤م.

(13) Der Beitrag der islamischen Religion zu einer Kultur des Friedens.

بحث ألقى فى المؤتمر الدولى لليونسكو حول ـ(إسهامات الأديان فى ثقافة السلام) فى برشلونة بأسبانيا ـ ديسمبر ١٩٩٤م .

٢ ـ فى اللغة الانجليزية :

(1) On the Role of Islam in the Development of Philosophical Thought-Dar Al -Manar- Cairo 1989.

(2) Cultural Relations between the West and the World of Islam. (Journal "Islam & Christian - Muslim Relations " . Vol 3 No. 1. June 1992 Birmingham UK).

(3) Peace from an Islamic Standpoint. Worldpeace as Concept and Necessity. ST. Gabriel. Mödling, Austria 1995.

(4) Islam Exposes The Biased Attempts to Discredit it. 1998.

٣- فى اللغة الإندونيسية :

١- الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى. ترجمه إلى الإندونيسية تاج الدين عبد الله موسى ـ بانجيل ـ إندونيسيا. بتصريح خاص من رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية بدولة قطر (صاحبة امتياز الطبعة الأولى). ويترجم الكتاب حالياً إلى الروسية والأردية.

٢- المنهج الفلسفى بين الغزالى وديكارت.

٤- فى اللغة التركية :

Oryantalizm veya Medeniyet Hesaplasmasinin. Arka Plani, Izmir. 1993.

٥- فى اللغة الفرنسية :

Le dialogye entre les trois religions révélés du point du vue de l'Islam.

محاضرة ألقيت فى الأصل بالعربية فى مـؤتمر المائدة المستديرة للحوار بين الأديان السماوية الثلاثة بجامعة السوربون فى باريس - يونيو ١٩٩٤م.

رابعاً : أعمال مشتركة :

١ـ محاضرات فى فلسفة التاريخ للفيلسوف هيجل، الجزء الثانى : العالم الشرقى (ترجمه إلى العربـية د. إمام عـبد الفـتاح إمـام ، وراجعـه على الأصل الألمانى د. محـمود حـمدى زقزوق)، دار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهرة ١٩٨٦م.

٢ـ الاشتراك فى ترجمـة كتاب بروكلمان (تاريخ الأدب العربى) بتكليف من المنظـمة العربية للتربية والعلوم والثقافة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة ١٩٩٣م ـ ١٩٩٥م.

٣ـ مراجعة وتقـديم كتاب : الإسلام والمسيحية من تأليف أليـكسى جورافسكى ـ سلسلة عالم المعرفة ـ الكويت ١٩٩٦م.



فهارس الكتاب

أولاً : فهرس الآيات القرآنية.

ثانياً : فهرس الأحاديث الشريفة.

ثالثاً : فهرس الآثار والأقوال والأمثال.

رابعاً : فهرس الأعلام :

(أ) أعلام الأشخاص.

(ب) أعلام جغرافية.

خامساً : فهرس محتويات الكتاب.

أولاً: فهرس الآيات القرآنية

السورة	الآية	الصفحة
الممتحنة	١	٩٠
	٨	٥٣
الصف	٢	٨٧
	٣	٨٧
الجمعة	١٠	١٣٦
المنافقون	٨	١٠٧
التحريم	٦	١٥
الملك	١٠	٦٣
	١١	٦٣
المدثر	٥٤	١٣٠
	٥٥	١٣٠
	٥٦	١٣٠

السورة	الآية	الصفحة
القيامة	١٤	٩٩
الإنسان	٩	١٠٩
المطففين	٢٦	٣١
العلق	١	٦، ٩، ١١، ١٣، ١٤، ١٧، ٤٦، ٦٤، ٩٧
	٢	١٤، ٦٤ ، ٩٧
	٣	١٤، ٦٤ ، ٩٧
	٤	١٤، ٦٤ ، ٩٧
	٥	١٤، ٦٤ ، ٩٧
العصر	١	٩٩، ١٣٩
	٢	٩٩، ١٣٩
	٣	٩٩، ١٣٩



ثانياً : فهرس الأحاديث الشريفة



ثالثاً : فهرس الآثار والأقوال والأمثال

الأثـــــــــر	الصفحـــة

(أ)

❖❖❖

رابعاً : فهرس الأعلام

(أ) أعلام الأشخاص

❖❖❖

(ب) أعلام جغرافية



خامساً : فهرس محتويات الكتاب

الموضـــوع	الصفحـــة



طبعـــة خاصـــة
تصـــدرهـا دار الرشـــــاد
ضمن مشروع مكتبة الأسرة

رقم الإيداع : ١١٦١٥ / ٢٠٠١
I.S.B.N. 977 - 01 - 7329 - 0



بين الحلم والواقع كانت مسافة زمنية ربما بدت لي طويلة أو مختلفة ولكن الأهم أن الحلم أصبح واقعًا ملموسًا حيًا يتأثر ويؤثر، وهكذا كانت مكتبة الأسرة تجربة مصرية صميمة بالجهد والمتابعة والتطوير، خرجت عن حدود المحلية وأصبحت باعتراف منظمة اليونسكو تجربة مصرية متفردة تستحق أن تنتشر في كل دول العالم النامي وأسعدني انتشار التجربة ومحاولة تعميمها في دول أخرى، كما أسعدني كل السعادة احتضان الأسرة المصرية واحتفائها وانتظارها وتلهفها على إصدارات مكتبة الأسرة طوال الأعوام السابقة.

ولقد أصبح هذا المشروع كيانًا ثقافيًا له مضمونه وشكله وهدفه النبيل. ورغم اهتماماتي الوطنية المتنوعة في مجالات كثيرة أخرى إلا أنني أعتبر مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة هي الإبن البكر، ونجاح هذا المشروع كان سببًا قويًا لمزيد من المشروعات الأخرى.

ومازالت قافلة التنوير تواصل إشعاعها بالمعرفة الإنسانية، تعيد الروح للكتاب مصدرًا أساسيًا وخالدًا للثقافة. وتوالي «مكتبة الأسرة» إصداراتها للعام الثامن على التوالي، تضيف دائمًا من جواهر الإبداع الفكري والعلمي والأدبي وتترسخ على مدى الأيام والسنوات زادًا ثقافيًا لأهلي وعشيرتي ومواطني أهل مصر المحروسة مصر الحضارة والثقافة والتاريخ.

سوزان مبارك

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

الثمن ٢٠٠ قرش